

ترجمات

برتولت برشت

قصص من الرزنامة

إعداد وترجمة

بوعلي ياسين

2000

الطبعة الأولى ١٩٩٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٠ موسّعة

القصص التي يضمها هذا الكتاب مأخوذة عن المصادر التالية:

Bertolt Brecht: Kalendergeschichten

برتولت برشت: قصص من الرزنامة. صدرت للمرة الأولى عن دار الأخوة فايس عام ١٩٤٩. الطبعة المعتمدة هنا صدرت عن دار كلام في لايبزيغ عام ١٩٦٨.

- **Bertolt Brecht: Nordseekrabben**

برتولت برشت: جمبري بحر الشمال، دار اويلن شبيغل، برلين ١٩٧٩

- **Bertolt Brecht: Kinderbuch**

برتولت برشت: كتاب للأطفال، دار كتاب الأطفال، برلين. الطبعة الأولى ١٩٦٥، الطبعة الخامسة ١٩٨١ (وهي المعتمدة هنا).

برتولت برشت

قصص من الرزنامة

إعداد وترجمة

بو علي ياسين



قصص من الرزنامة
برتولت برشت
اعداد وترجمة: بوعلي ياسين
الطبعة الثانية ٢٠٠٠

الغلاف من تصميم د. محمد نعيم الجابي
دار الكنوز الادبية
ص.ب / ٧٢٢٦ ـ ١١
هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦
بيروت ـ لبنان

مقدمة الطبعة الأولى

كنت قبل سنتين قد اتفقت مع الصديق عبدو زغبور علـى التعـاون في ترجمة "قصص من الرزنامة" لبرتولت برشت. وأنجز عبدو مبدئيـاً ترجمـة قصص: جندي لاسيوتا، الابنان، العجوز الوضيعة، وأراد ترجمة قصـتي: الاختبار ودائرة الطباشير الأوغسبورغية. لكنه ما أن شرع بترجمة القصتين الأخيرتين حتى اضطر (وهو دكتور في الفلسفة) بحثاً عن لقمة العيـش، إلى الرحيل إلى أميركا اللاتينية. لذلك اضطررت بدوري، عندما وجدت الوقت الـلازم، إلى أن أتـابع الترجمـة وأصدرهـا دون مشـاركته، ودون أن أنسـى جهده وصداقته.

كانت غايتي من هذه الترجمة أن أعرف قـراء العربيـة على برتولـت برشـت كقـاص، بعـد أن عرفـوه جيـداً كمسـرحي وكشـاعر. وقـد أخـذت النصوص المترجمة عن كتاب "قصص من الرزنامـة"، كمـا هـو مبـين، مـع

استثنائين اثنين: أولهما أنني تخليت عن الأشعار الواردة في الكتاب الأصلي واكتفيت بالقصص. وثانيها أنني أضفت أربعاً إلى قصص السيد كوينر زيادة عما في الكتاب الأصلي، القصتان الأوليتان نقلتهما عن كتاب: برتولت برشت، كتاب للأطفال، إعداد ر. هيل وهـ. رامتون، برلين (ط ١٩٦٥/١) ط٥، ١٩٨١، ص ٩١ ـ ٩٢؛ والقصتان الأخيرتان عن كتاب: برتولت برشت: جمبري بحر الشمال، إصدار غ. زايدل، دار اويلن شبيغل، برلين (١٩٧٩؟)، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ وص ١٦٨ ـ ١٦٩. وإني لآمل في طبعة تالية أن أتمكن من إضافة جميع قصص برشت.

بو علي ياسين

اللاذقية، صيف ١٩٩١

مقدمة الطبعة الثانية

تضمّ هذه الطبعة خمس عشرة قصة لبرشت، إضافة لما تضمنته الطبعة الأولى: ٥١ قصة، منها ٤٣ قصة عن السيد كوينر. مع ذلك لا تمثل هذه المجوعة (٦٦ قصة) كامل الثروة القصصية لبرشت. وقد تمت ترجمة قصص: "جرب البلقان، قصة الذي لم يصل متأخراً أبداً، السفر في مقصورة، لكمة الذقن، الموقف الطبيعي لمولر، جمبري بحر الشمال، قصة تأمين صغيرة، أربعة رجال ولعبة بوكر، برباره، وجه جديد، السلامة أولاً، مكان العمل" عن مجموعة "جمبري بحر الشمال". أما قصص: "باني المدن، حام الثخين، امتحان ذهني" فهي مترجمة عن: "كتاب للأطفال".

ولد برتولت برشت عام ١٨٩٨ في مدينة أوغسبورغ (ألمانيا)، لعائلة ميسورة، فقد كان الأب مديراً لأحد المعامل. "لكن عندما أصبحتُ راشداً، لم يعجبني أناس طبقتي"، كتب هو فيما بعد في قصيدة "مطارد لسبب وجيه"١٩٣٣. في الفترة من ١٩١٣ ــ ١٩١٧ نشر وهو طالب في ثانوية

أوغسبورغ أشعاراً وقصصاً ومقالات، منهـا قصـة "حـرب البلقـان" و"قصـة الذي لم يصل متـأخراً أبـداً". وفي عـام ١٩١٧ بـدأ دراسـة الطـب والعلـوم الطبيعية في ميونيـخ. لكنـه قطـع الدراسـة عـام ١٩١٨ وخـدم كممـرض في الجيش، وانضم إبان الثورة الألمانية إلى مجلس الجنـود في أوغسـبورغ. وفي ذلك العام كتـب الدرامـا البيوغرافيـة "بـال". في عـام ١٩١٩ عـاد لمتابعـة الدراسة الجامعية، وفي هذه الفترة (١٩٢٠) كتب قصة "السفر في مقصـورة" و(١٩٢٢) المسـرحية الكوميديـة "طبـول في الليـل" الـتي نـالت جـائزة كلايست. ثم عمل مع مسرح الجيـب في ميونيـخ، وتخلـى عـن الدراسـة، وانتقل في عام ١٩٢٤ إلى برلين للعمل مع المسرح الألماني. عن الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٥ قال برشت فيما بعد: "كانت معرفـتي السياسـية وقتـذاك زهيـدة لدرجـة مخجلـة، غـير أنـني كنـت واعيـاً للاتوافقـات الكبـيرة في الحيـاة الاجتماعية للبشر".

في عام ١٩٢٦ بدأ برشت دراسة جذرية وشاملة للمادية الجدليـة. وفي ذلـك العـام كتـب قصـص: "لكمـة الذقـن"، و"الموقـف الطبيعـي لمولـلر"، و"جمبري بحر الشمال"، و"قصة تـأمين صغـيرة"، و"أربعـة رجـال ولعبـة بوكر". في العام التالي كتب "بربارة"، وفي عام ١٩٣٠ قصة "وجه جديـد"، وفي عام ١٩٣٣ "السلامة أولاً" و"مكـان العمـل". أمـا "قصـص عـن السـيد كويـنر" فقـد بدأهـا برشـت في منتصـف العشـرينات، واسـتمر بهـا حتـى منتصف الخمسينات.

كان اسم برشت مسجلاً في قائمة الأشخاص الواجب اعتقالهم من قبل النازيين. فهاجر عـام ١٩٣٣، وأقـام في الدانمـارك وفنلانـدا.... وزار عـام

١٩٣٥ الاتحاد السوفييتي وشارك في إصدار مجلة "الكلمة". وفي الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٧ أقام في الولايات المتحدة. في مرحلة المنفى كتب برشت في فن القصة: سقراط الجريح (١٩٣٩)، و"دائرة الطباشير الأوغسبورغية" (١٩٤٠)، "جندي لاسيوتا"...

بعد التحقيق معه من قبل لجنة مكارثي (لجنة مكافحة الممارسات اللا أمريكية) غادر برشت عام ١٩٤٧ الولايات المتحدة، وعاد عبر سويسرا عام ١٩٤٨ إلى برلين (الشرقية وقتذاك). هناك أسس مع زوجته هيلينه فايغل مسرح "برلينر انسامبل"، وبقي يعمل فيه تأليفاً وإعداداً وإخراجاً حتى وفاته في ١٤ آب ١٩٥٦. وقد نال في عام ١٩٥٤ جائزة لينين للسلام.

هذه لمحة موجزة عن حياة برشت، حاولت فيها قدر المستطاع تأريخ أعماله القصصية. غير أن المصادر المتوفرة لم تسعفني بالمعلومات الكافية، ذلك لأنها تهتم ببرشت ككاتب مسرحي أولاً، ثم بالدرجة الثانية كشاعر، وأخيراً بالدرجة الثالثة كقاص وروائي رغم تألقه في هذا المجال. وقد يجد القارئ في الترجمة بعض الجمل الطويلة، أو المتشابكة، وأحياناً تعابير عامية أو شبه عامية، وكثيراً من الاستخدام غير الأصولي لعلامات الترقيم ... كل هذا مصدره النصوص الأصلية، لا الترجمة.

بوعلي ياسين

اللاذقية، آذار ١٩٩٩

سقراط الجريح

سقراط ابن الداية، الذي كان بحواراته الثنائية المدعمة بالدعابات المعبّرة قادرا بسهولة وبراعة أن يجعل أصدقاءه يولّدون الأفكار الأصيلة ويزودهم بذلك ببنات أفكار ينجبونها بأنفسهم خلافاً للمعلمين الآخرين الذين كانوا يورطونهم بالأفكار الهجينة، سقراط هذا لا يُعتبر فقط أذكى الإغريق كافة، بل وأشجعهم أيضاً(*). ويبدو أن صيت الشجاعة كان مسوغا، عندما نقرأ لدى أفلاطون، كيف أفرغ سقراط في جوفه بلا تلكؤ أو تململ كأس السم الذي قدمته له السلطة الحاكمة أخيراً مقابل خدماته لأبناء وطنه. غير أن بعض مريديه يرون من الضروري الحديث عن شجاعته في ميدان الحرب. بالفعل فقد شارك سقراط في معركة دليون، تحديداً ضمن فرقة المشاة الخفيفة التسليح، إذ لا وجاهته ـ وقد كان اسكافياً ـ ، ولا دخله ـ وقد كان فيلسوفا ـ كانا يسمحان بتجنيده في أسلحة الجيش الممتازة الغالية. على أن شجاعته كانت، كما يمكن أن يتوقع المرء، من نوع خاص.

---

*) أشكر للصديق محمود كبيبو مساعدته في ترجمة هذا البداية المعقدة الصعبة التي لم نتعودها من برشت الذي أراد المقابلة بين توليد سقراط للأفكار وتوليد أمه للأطفال. ـ المترجم.

في صباح يوم المعركة هيأ سقراط نفسه جيداً قدر المستطاع لتلك المهمة الدموية، وذلك بأكل البصل، لأن البصلٍ برأي الجنود يمنح الجرأة والصمود. لقد جعلته ريبته في مجالات كثيرة ساذجاً في مجالات كثيرة أخرى. وقد كان ضد التكهنات، مع التجربة العلمية. وهكذا، فما كان يؤمن بالآلهة، إنما بالبصل.

للأسف لم يشعر سقراط بأي مفعول حقيقي للبصل، على الأقل ليس فورياً، فهكع منقبضاً ضمن فصيلة من المقاتلين بالسيوف، التي تقدمت في صف أحادي إلى موقعها في أحد الحقول المحصودة. أمامه ووراءه كان يتكعبل شبان أثينيون من الضواحي، وقد لفتوا نظره إلى أن تروس الترسانات الأثينية مصنوعة بكل لا يتناسب مع أناس سمان مثله. هذه الفكرة كانت تراوده هو الآخر، إنما كان هؤلاء السمان في نظره عراضاً، فلم تكن هذه التروس الرفيعة بشكل يدعو للسخرية لتغطي نصفهم.

انقطع تبادل الرأي هذا بين سقراط وبين الذي أمامه والذي وراءه حول مكاسب معامل الحدادة من التروس الصغيرة بصدور أمر بالانتشار.

استقر الجنود على الأرض المحصودة. وتلقى سقراط تعنيفاً من النقيب، لأنه حاول أن يجلس على الترس. لكن ما أزعجه أكثر من البهدلة نفسها هو الصوت الخافت الذي تمت فيه هذه البهدلة. بدا أن ثمة تخميناً بأن يكون العدو قريباً.

كان ضباب الصباح الحليبي يمنع الرؤية. غير أن أصوات وقع الأقدام وصليل السلاح كانت تدل على أن السهل محتل من العدو.

تذكر سقراط بامتعاض شديد حديثاً جرى في المساء الماضي بينه وبين شاب من الأكابر التقاه مرة.وراء الكواليس، وكان هذا ضابطاً في سلاح الفرسان.

قالَ هذا المتعجرف: "خطة ممتازة. المشاة يقفون بكل بساطة هناك، بأمانة وإخلاص متراصين، ويلتقصون لطمة العدو. وفي هذه الأثناء ينحدر الفرسان إلى المنخفض ويأتونه من الظهر".

لا بد أن المنخفض يقع بعيداً بعض الشيء إلى اليمين، في مكان ما في الضباب. ينبغي إذن أن يكون الفرسان قد تقدموا الآن.

بدا لسقراط أن الخطة جيدة، أو بأي حال ليست سيئة. على كلٍّ، توضع دائماً خطط، خاصة إذا كان المرء دون العدو قوة. لكن في الواقع يقاتل المرء كيفما اتفق، هذا يعني أنه يضرب خبط عشواء. ولا يفعل المرء ذلك حيث رسمت الخطة، بل حيث يسمح العدو.

الآن، في ضوء الصباح الرمادي، بدت الخطة لسقراط في غاية الرداءة. ماذا يعني أن المشاة يلتقصون صدمة العدو؟ عموماً يكون المرء سعيداً لو استطاع أن يتحاشى الصدمة، والآن يُفترض أن تكون الشطارة في التقاصها!. إنه لسيء جداً أن يكون القائد نفسه من الفرسان.

ثم إنه لا يوجد في السوق من البصل بقدر ما يحتاج الرجال البسطاء.

وكم هو غير طبيعي، في الصباح الباكر، بدل أن يستلقي المرء في الفراش، أن يقعد في وسط حقل على الأرض العارية، حاملاً على الأقل خمسة كيلو غرامات من الحديد على بدنه وسكيناً حربية في يده!. وإنه لصحيح أن يدافع المرء عن المدينة إذا ما هوجمت، وإلا فإن المرء سيتعرض فيها لضائقات كبيرة. ولكن، لماذا تهاجم المدينة؟ ذلك، لأن أصحاب السفن

ومالكي الكروم وتجار العبيد في آسيا الصغرى قد وقفوا في طريق أصحاب السفن ومالكي الكروم وتجار العبيد من الفرس؛ سبب وجيه!.

فجأة قبع الجميع كالجماد.

من الضباب إلى الشمال سُمع صياح بعيد، ترافق مع قرقعة معادن. ثم اقتربت هذه الأصوات بسرعة. لقد بدأ هجوم العدو.

هبّت الفصيلة واقفة. بعيون جاحظة صار المرء يحلق أمامه في الضباب. على بعد عشر خطوات إلى الجانب سقط رجل على ركبتيه وأخذ يدعو الآلهة متعتعاً. فات الأوان، كما تبيّن لسقراط.

فجأة انطلقت كالجواب صيحة مخيفة في مكان أبعد إلى اليمين. ثم تحولت صيحة الاستغاثة هذه، كا يبدو، إلى صيحة موت. ورأى سقراط في الضباب قضيباً حديدياً صغيراً يطير قادماً. كان رمحاً. ثم نبقت، بشكل غير واضح في الضباب، من قدام قامات ضخمة: الأعداء.

إذ ذاك هيمن على سقراط إحساس بأنه ربما قد صمد أكثر من اللازم، فاستدار بتثاقل وبدأ بالجري، كان الدرع وواقيات الركب تعيقه في ذلك بدرجة كبيرة. كانت هذه أكثر خطراً بكثير من التروس، فما كان المرء ليستطيع التخلص منها.

جرى الفيلسوف لاهثاً فوق الحقل المحصود. كان كل شيء يتوقف على ما إذا كان قد كسب سبقاً كافياً. عسى أن يكون الشبان الطيبون وراءه قد التقصوا الصدمة لبعض الوقت. فجأة سرى فيه ألم جهنمي، باطن قدمه اليسرى صار يلهب، لدرجة أنه لم يظن أنه سيتحمل الألم. فارتمى على الأرض وهو يئن، لكنه وقف ثانية مع صرخة ألم جديدة. بعيون زائغة نظر حوله وأدرك كل شيء: لقد دخل في حقل من الأشواك.

كان خليطاً من الشجيرات القصيرة ذات أشواك حادة. أكــان يجـب أن تصيبه شوكة في قدمه!. بكل حذر، وبعيون دامعة، أخذ يبحث عــن موضـع على الأرض يستطيع فيه القعود. ثم حجل على القـدم السليمة دائـراً بضـع خطوات، قبل أن يستقر ثانية على الأرض. كان عليه أن ينتزع الشوكة فوراً.

تنصّت متحفزاً إلى ضوضاء المعركة: مدّ جسمه بعيداً إلى كلا الجهتــين، لكنه كان بعيداً عن الجهة الأمامية بمئة خطوة على الأقل. على أنه بدا لنفســه أنه يقترب، ببطء إنما بشكل مؤكد.

لم يستطع سقراط أن يخلع صندليه. فقـد كـانت الشـوكة قـد اخـترقت النعل الرقيق وانغرزت عميقاً في اللحم. كيف يمكن للمـرء أن يقـدم للجنـود الذين عليهم الدفاع عن الوطن أحذية رقيقة بهذا الشـكل!. أي ضغـط علـى الصنـدل كـان يتبعـه ألم حـارق. وهكـذا أُنهـك المســكين وتهـدّل كتفــاه الضخمان. ما العمل؟

التقت عينه الخابية بالسيف إلى جانبه. فومضت في دماغه فكرة، كــانت أحب إليه من أية فكرة خطرت له في مناظراته: ألا يستطيع المرء أن يســتخدم السيف كسكين؟ وقبض على السيف.

في هذه اللحظة سمع خطوات بعيـدة. مجموعـة صغـيرة كـانت تمشـي في الحرش. الحمد للآلهة، أنهـم كــانوا مـن جماعتـه!. عندمـا رأوه، توقفـوا بضـع ثوان. وسمعهم يقولون: هذا هو الاسكافي. ثم تابعوا سيرهم.

لكن، إلى اليمين منهم سُمعت الآن جلبة أخـرى. هنـاك كـانت تصـدر الأوامر بلغة غريبة: إنهم الفرس.

حـاول سـقراط أن يقـف ثانيـة علـى قدميـه، أي أن يقـف علـى قدمــه اليمنى. استند إلى السيف، وكان هذا قصيراً بعض الشيء. ثم رأى كتلة مـن

المقاتلين تظهر إلى اليسار في بقعة جرداء. وسمع أنيناً وصوت ارتطام الحديد بالحديد أو بالجلد.

أخذ يحجل بصورة يائسة على القدم السليمة متقهقراً. إذ ذاك اختل توازنه، فعاد واقفاً على قدمه الجريحة، وانهار على الأرض متأوهاً. عندما صارت كتلة المقاتلين ـ ولم تكن كبيرة، بل حوالي عشرين إلى ثلاثين رجلاً ـ على بعد خطوات قليلة، كان سقراط قاعداً في حالة يأس وراء دغلتين من الأشواك وينظر إلى العدو.

كان يستحيل عليه أن يتحرك. أي شيء كان أهون عليه من أن يذوق مرة أخرى ذلك الألم في قدمه. لم يدر ماذا يفعل، وفجأة شرع بالصراخ.

بالوصف الدقيق كان الأمر هكذا: لقد سمع نفسه يصرخ، سمع نفسه يصرخ من جوف بطنه مثل البوق: "إلى هنا، يا فصيلة ثالثة، انقضوا عليهم، يا شباب!". وفي نفس الوقت رأى نفسه كيف قبض على السيف ولوّح به دائرياً من حوله، ذلك لأنه انتصب أمامه، وقد نبق من دغلة، جندي فارسي مع رمحه. فطار الرمح وجرف الرجل معه.

وسمع سقراط نفسه يصرخ ثانية ويقول: "ولا خطوة إلى الوراء، شباب. ها هم الآن حيث نريد، أولاد الكلب. كرابولوس، إلى الأمام مع الفصيلة السادسة! نولوس، إلى اليمين! سأفرم فرماً من يتراجع!".

لدهشته رأى إلى جانبه اثنين من جماعته يحلقان فيه. فهمس لهما: "اصرخا، من شان الآلهة، اصرخا". أحدهما ارتخى حنكه من الرعب، لكن الآخر شرع فعلاً بالصراخ، يصرخ بأي شيء. في هذا الوقت نهض الفارسي أمامهم بتثاقل وهرب إلى الأدغال.

ومن جهة الصحو قدمت تتدهبل دزينة من الرجال المنهكين.

أخيراً على أثر الصراخ اندفع الفرس هاربين، خشية أن يكونوا قد وقعوا في كمين.

"ماذا يجري هنا؟"، سأل أحد مواطني سقراط الذي كان ما يزال قاعداً على الأرض. قال له: "لا شيء. لا تقف هكذا حولي وتبحلق فيّ. الأفضل لو تجري إلى هنا وهناك وتعطي الأوامر، كي لا يلاحظوا هناك كم عددنا قليل". فقال الرجل متردداً: "الأفضل لو أننا نتراجع". فاستنكر سقراط قائلاً: "ولا خطوة، أأنتم أرانب؟!".

وبما أن الجندي لا يكفيه الخوف، بل يحتاج أيضاً إلى الحظ، فقد سُمع فجأة من مكان بعيد بعض الشيء، إنما بوضوح تام، وقع أقدام الأحصنة وصيحات وحشية، وقد كانت باللغة الإغريقية! والكل يعلم، كم كانت الهزيمة ماحقة للفرس في ذلك اليوم. لقد انتهت الحرب.

عندما جاء ألكيبيادس على رأس الفرسان إلى حقل الأشواك، شاهد كيف كانت زمرة من الجنود المشاة تحمل رجلاً سميناً على الأكتاف. وعندما أوقف حصانه علم أنه سقراط. وشرح له الجنود بأن سقراط بمقاومته العنيدة هو الذي دفع الصفوف المتضعضعة في المعركة إلى الصمود.

حمل الجنود سقراط مع تهليلات النصر إلى قافلة العربات. وهناك وضعوه رغم احتجاجاته على عربة مؤن. ووصل عائداً على العاصمة وهو محاط بالجنود المسبّحين بالعرق والهاتفين بحماس. وهناك حملوه على الأكتاف إلى بيته الصغير.

كانت زوجته زانتيبه تطبخ له شوربة فاصوليا. وفيما هي منحنية أمام الموقد تنفخ النار بملء فيها، كانت ترمقه ببعض النظرات. كان ما زال جالساً على الكرسي التي وضعه عليها زملاؤه.

سألته بارتياب: "ماذا حدث لك؟".

تمتم لها: "لي؟ لا شيء!".

فاستفهمت: "إذن ما هذه الثرثرة عن أعمالك البطولية؟".

قال لها: "مبالغات. يالها من رائحة زكية!". فقالت مغضبة: "كيف لـك أن تشم رائحتها وأنا لم أوقد النار تحتها بعد!. جعلت من نفسك أحمـق مـرة أخرى، أليـس كذلـك؟ غـداً، عندمـا أذهـب لجلـب الخبز، يمكنـني أن أسمـع مضحكاتك ثانية".

- "لم أجعل من نفسي أحمق بأي شكل، لقد أُصبت".

- "كنت سكراناً؟".

- "لا، جعلتهم يصمدون بعد أن تقهقروا".

- "أنت لا تقدر أن تجعل نفسك تصمد". قالت هذا وهي تنتصب واقفة بعد أن أشعلت النار. وتابعت: "أعطني المملحة من على الطاولة!".

قال بهدوء وهو يصفن: "لا أعلـم، ربمـا كـان الأفضـل لي أن لا أتنـاول شيئاً على الاطلاق. لقد آذيت معدتي قليلاً".

- "أما قلت لك، أنت سكران؟. حاول أن تقف وأن تتمشى في الغرفـة، عندئذٍ سنرى".

أحس سقراط بمرارة الظلم. لكنه لم يرد بـأي حـال أن يقـف ويـبين لهـا بأنه ليس قادراً على المشي. كانت ذكية إلى أبعد الحدود، عندما يتعلق الأمـر باستكشاف شيء لغير صالحه. ولم يكـن لصالحـه أن يظهـر السـبب الأعمـق لصموده في المعركة.

في الوقت الذي كانت لا تزال تحوص منشغلة بالقدر على الموقد أسرّت له بما يجول ي خاطرها: "أنا متأكدة من أن أصدقاءك اللطفاء قد دبروا لك عمل سخرة في الخطوط الخلفية، في المطبخ الميداني. وما هذا سوى إقصاء".

بأ لم أخذ ينظر من خلال الطاقة إلى الزقاق حيث كان أناس كثيرون يطوفون بالمصابيح البيضاء يحتفلون بالنصر.

أصدقاؤه المحترمون لم يحاولوا شيئاً كهذا، وهو ما كان ليتقبله، على كل حال ليس بهذه البساطة. - "أم أنهم لم يجدوا غضاضة في أن يزحف معهم اسكافي؟! لن يحركوا أصبعاً واحدة من أجلك. هو اسكافي، يقولون لأنفسهم، ويجب أن يبقى اسكافياً. وإلا كيف سنتمكن من الذهاب إليه في جحره الحقير ونثرثر معه ساعات ونسمع العالم كله يقول: انظروا، سواء كان اسكافياً أم لم يكن، فهؤلاء الناس اللطفاء يجلسون إليه ويتحدثون معه في الفلفسة. زمرة حقيرة!".

قال لها برباطة جأش: "اسمها فلسفة". فرشقته بنظرة غير ودية وهي تقول: "لا تجعل من نفسك دائماً معلماً لي. أنا أعلم أنني غير متعلمة. لولاي لما وجدت أحداً يقدم لك من وقت لآخر طشت ماء لتغسل قدميك".

أصابته رجفة، وأمل أن لا تكون قد لاحظت ذلك. اليوم لا يجوز بأي حال أن يصل الأمر إلى غسل القدمين. الحمد للآلهة أنها تابعت حديثها.

- "إذن أنت لم تكن سكراناً و لم تكلف بأعمال سخرة. إذن قمت بدور المقاتل. هناك دم على يدك، هاه؟ ولكن، عندما أمعس عنكبوتاً، تنفجر صارخاً. ليس، كما لو أنني أصدق بأنك فعلاً قد أثبت جدارة. ولكن، ثمة أمر خبيث، فعل ماكر، لابد أنك قمت به، حتى ربتوا لك على كتفك. لكنني سوف أكشف عن ذلك. كن على ثقة!".

الآن أصبحت الشوربة جاهزة. كانت رائحتها مغرية. تناولت المرأة القدر ووضعتها، وهي تمسك المقبض بثوبها، على الطاولة وبدأت تحتسي الشوربة بالملعقة.

فكر في نفسه، أليس من الأفضل لو أنه استعاد شهيته. لكن فكرة أنه سيضطر عندئذ للذهاب إلى المائدة، منعته من ذلك في الوقت المناسب.

انتابه شعور بعدم الارتياح، شعور واضح بأن الأمر لم ينقض بعد. بالتأكيد ستحدث في الفترة القادمة أشياء غير سارة. فلن يقف الأمر عند حدّ أننا كسبنا معركة ضد الفرس وعشنا في سلام. الآن، في أول احتفالات النصر لن يتوجه التفكير بالطبع إلى من يعود الفضل في ذلك. الكل سيكون مشغولاً بالحديث عن بطولاته. إنما غداً أو بعد غد سيجد كل منهم بأن رفيقه قد نسب لنفسه كل المجد، ويكون بالتالي مفضّلاً على الآخرين. عندئذ سيقلل الكثيرون من شأن بعضهم، بأن يعلنوا بأن الاسكافي هو في الحقيقة البطل الرئيسي. أما الكيبيادس فهو بالأصل ليس محبوباً عند الناس، وسيغبطهم أن يعلنوا له: أنت كسبت المعركة، ولكن اسكافياً هو الذي أمكنك من ذلك.

والشوكة كانت ما تزال تؤلمه أكثر من قبل. وإذا لم يخلع الصندل في القريب، فربما حدث لديه تسمم في القدم.

قال وهو سارح الفكر: "لا تتلقمسي هكذا؟".

تجمدت الملعقة في فم المرأة: "ماذا أفعل؟!".

فأسرع مذعوراً يؤكد لها: "لاشيء، كنت سارحاً في أفكاري".

ووقفت المرأة خارجة عن طورها، أشعلت النار في الموقد تحت القدر وخرجت.

تنفس الصعداء. بعجل عمل على القيام عن الكرسي وأخذ يحجل، وهو ينظر حوله متهيباً، إلى مضجعه في الخلف. عندما دخلت زوجته ثانية لتأخذ منديلها من أجل الخروج، نظرت بارتياب، كيف كان ملقى على مرجوحة النوم الملبّسة بالجلد دون حراك. فكرت للحظة، أنه لا بد يحتاج إلى شيء ما. بل وجال في ذهنها أن تسأله عن ذلك، فقد كانت شديدة الانصياع له. لكن، خطر على بالها شيء أفضل وغادرت مبوزمة الحجرة، كي تتفرج مع جارتها على الاحتفالات.

لم يهنأ سقراط بالنوم وأفاق مهموماً. كان قد خلع الصندل، لكنه لم يستطع الوصول إلى الشوكة. وقد أصبحت قدمه شديدة التورم.

زوجته كانت صباح اليوم أقل حدة.

مساء اليوم الماضي كانت قد سمعت كل المدينة تتحدث عن زوجها. لا بد أنه قد حدث فعلاً شيء ما جعل الناس متأثرة هكذا. أما أن يكون هو قد أوقف صفاً من المهاجمين الفرس، فهذا ما لم يدخل في رأسها. ليس هو من يفعل ذلك، قالت في نفسها. نعم، هو يقدر أن يوقف جمعاً كاملاً من الناس بتساؤلاته. ولكن ليس صفاً من المهاجمين. فماذا حدث إذن؟

كانت غير واثقة لدرجة أنها أحضرت له حليب الماعز إلى المضجع.

ولم يكن لدى سقراط الحيل للوقوف.

سألته: "ألا تريد الخروج؟".

همتر: "ما عندي رغبه".

ليس هكذا يجيب المرء على سؤال لطيف من قبل زوجته، لكنها فكرت في نفسها، لربما أراد فقط تجنب نظرات الناس، وهكذا مررت الجواب.

باكراً قبل الظهر وصل زوار.

كانوا زوجاً من الشباب، من أبناء أسر ميسورة، من الوسط الذي يحتك به سقراط عادة. كانوا يعاملونه دائماً كأستاذ لهم، وبعضهم كان يسجل ما يقوله لهم باعتباره شيئاً مميزاً.

اليوم أخبروه مباشرة بأن أثينا بكاملها تتحدث عن بطولته. إنه يوم تاريخي للفلسفة (هكذا معها حق إذن بأن إسمها فلسفة وليس شيئاً آخر). فسقراط قد برهن بأن متبصّراً كبيراً يمكن أن يكون أيضاً ممارساً كبيراً.

استمع سقراط إليهم دون سخريته المعهودة. وفيما كانوا يتكلمون، أحس وكأنه يسمع من بعيد، كما يسمع المرء عاصفة بعيدة، مَضْحكة هائلة، مضحكة مدينة بأكملها، مضحكة بلد، من بعيد، إنما مقتربة، لا يقف في وجهها شيء، تصيب الجميع، المارة في الشوارع، التجار والساسة في الأسواق، الحرفيين في دكاكينهم الصغيرة.

فجأة قال لهم بحزم: "هراء كله هذا الذي تقولونه. أنا لم أصنع شيئاً".

نظروا إلى بعضهم مبتسمين، ثم قال أحدهم: "تماماً هذا الذي قلناه لبعضنا. كنا نعلم أنك سوف تنظر إلى الأمر هكذا. ما هذه الضجة الآن فجأة، سألنا اويسوبولوس أمام النادي. منذ عشر سنوات وسقراط يقدم أعظم المنجزات العقلية، في حين لا أحد يلتفت إليه. الآن كسب معركة واحدة، وكل أثينا تتحدث عنه. قلنا، ألا ترون كم هذا مخجل؟!".

زفر سقراط من الأعماق وقال: "ولكنني لم أكسب أية معركة على الاطلاق. دافعت عن نفسي، لأنني هوجمت. هذه المعركة لم تكن تهمني. فأنا لست تاجر سلاح ولا صاحب كروم في المنطقة. لم أكن أعلم من أجل ماذا أقاتل. وجدت نفسي بين أناس عقلاء من الضواحي لا مصلحة لهم

بالمعارك، وأنا فعلت تماماً ما فعلوه هم أيضاً، إنما قبلهم ببضع لحظات على الأكثر".

كانوا كمن ضُرب على رأسه.

ثم صاحوا: "ليس صحيحاً، هذا ما قلناه أيضاً. هو لم يفعل أكثر من الدفاع عن نفسه. هذه طريقته في أن يكسب المعارك. اسمح لنا بأن نسارع إلى النادي. لقد قطعنا حديثنا هناك حول هذا الأمر، من أجل أن نسلّم عليك".

وذهبوا وهم غارقون باستمتاع في الحديث.

بقي سقراط مستلقياً وهو صامت، يستند على مرفقيه، وينظر إلى السقف المسوّد بالشحار. كان محقاً في توجساته.

كانت زوجته تراقبه من زاوية الغرفة، وترقع بصورة آلية ثوباً قديماً. فجأة قالت بهدوء: "إذن ما وراء ذلك؟".

انتفض بأجمعه. ونظر إليها مضطرباً.

كانت كائناً كادحاً، بصدر كاللوح وعينين حزينتين. كان يعلم أنه يستطيع الاعتماد عليها. وهي سوف تقف إلى جانبه فيما لو قال تلامذته: سقراط؟ أليس هذا هو الاسكافي الشرير الذي ينكر الآلهة؟. لم تكن أحوالها حسنة معه، لكنها لم تكن لتتذمر، إلا أمامه. وما مرّ مساء دون أن يجد فيه على الرفّ رغيف خبز وقطعة شحم، عندما كان يعود جائعاً من عند تلامذته الميسورين.

سأل نفسه، ما إذا كان عليه أن يصارحها بكل شيء. ثم فكر في أنه سيضطر في الفترة القادمة لأن يقول في حضورها جملة من الأكاذيب

والتلفيقات عن أعماله البطولية، عندما يأتي أناس كما الآن، وهذا ما لا يستطيعه إذا علمت بالحقيقة، ذلك لأنه كان يحترمها.

لذلك ترك الأمر كما هو واكتفى بالقول: "شوربة الفاصوليا من مساء الأمس، رائحتها الكريهة ملأت الحجرة".

لم تزد على أن رشقته بنظرة مرتابة جديدة. بالطبع ما كانوا في حالة تسمح لهم بحفظ طعامهم. وسقراط ما أراد بقوله سوى أن يصرف ذهنها عن موضوعه. في داخلها نمت القناعة بأن ثمة مشكلة لديه. لماذا لا ينهض عن مضجعه؟ هو في الحقيقة يتأخر دائماً في النهوض، إنما بسبب كونه يذهب متأخراً إلى الفراش. لكنه البارحة استلقى باكراً. واليوم كانت المدينة بأكملها مستنفرة احتفالاً بالنصر. في الزقاق كانت جميع الدكاكين مغلقة. قسم من الفرسان كانوا الساعة الخامسة صباحاً عائدين من ملاحقة العدو، فقد سمع الناس وقع حوافر الخيول. كان من هواة تجمعات الناس. في مثل هذه الأيام كان يتجول عادة بينهم من الصباح الباكر حتى المساء ويشتبك معهم في مناقشات. فلماذا إذن لا ينهض؟!.

أظلم الباب ودلف أربعة من رجال البلدية. بقوا واقفين في وسط الحجرة، وقال أحدهم بلهجة رسمية، إنما لطيفة تماماً، بأن لديه مهمة بأن يُحضر سقراط إلى مجلس المدينة. فالقائد ألكيبيادس قدّم اقتراحاً بأن يكرّم على انجازاته الحربية.

في الزقاق كان ثمة لغط يدل على أن الجيران قد تجمعوا أمام البيت.

شعر سقراط بالعرق يتصبب منه. أدرك أن عليه الآن أن يقف، وإذا رفض الذهاب معهم، فلا بد على الأقل من أن يقول وهو واقف شيئاً لطيفاً يشيّع الجماعة إلى الباب. وأدرك أنه لن يقدر على أن يمشي أبعد من

خطوتين. وعندئذ سيرون قدمه ويعرفون كل شيء. عندئذ ستبدأ المضحكة، هنا والآن.

وهكذا، بدل أن ينهض، بقي مسترخياً على السنادة، وقال متذمراً: "أنا لا أحتاج إلى تكريم. قولوا للمجلس، بأنني قد تواعدت مع بعض الأصدقاء للالتقاء الساعة الحادية عشرة من أجل مناقشة قضية فلسفية تهمنا، لذلك آسف لكوني لا أستطيع الحضور. أنا لا أصلح مطلقاً للاحتفالات الرسمية، وأشعر بالتعب الشديد.".

وقد أضاف الجملة الأخيرة، لأنه تكدر لكونه حشر الفلسفة في الأمر. وقال الجملة الأولى، لأنه أمل بجفائه أن يتخلص منهم بأيسر طريقة.

بالفعل فهم رجال البلدية هذه اللغة. فاستداروا على أعقابهم وانصرفوا يدوسون أقدام الشعب الذي تجمهر في الخارج.

- "انتظر، لسوف يعلمونك كيف تكون مهذباً مع أصحاب المناصب"، قالت زوجته هذا منزعجة وذهبت إلى المطبخ.

انتظر سقراط حتى أصبحت في الخارج، ثم أدار جسمه الثقيل بسرعة في الفراش، وقعد على طرف السرير، وهو ينظر بطرف عينه إلى الباب، وحاول بحذر لا متناه بأن يدعس على قدمه المريضة. بدا ذلك مستحيلاً. فاستلقى إلى الوراء وهو يتصبب من العرق.

مرت نصف ساعة. تناول كتاباً وأخذ يقرأ. إذا أبقى قدمه ساكنة، فإنه لا يشعر بشيء تقريباً.

جاء بعدئذ صديقه أنتيستيس. لم ينزع عنه مشلحه السميك، بقي عند طرف المضجع واقفاً، سعل بصورة تشنجية، وحك لحيته المبعثرة على رقبته، وهو ينظر إلى سقراط:

- "أمازلت مستلقياً؟ ظننت أني لن ألقى سوى زانتيبه. لقد نهضت خصيصاً لأستعلم عنك. كنت مزكوماً جداً، ولذلك لم أستطع الحضور البارحة".

قال له باقتضاب: "اجلس!".

أحضر أنتيستينس كرسياً لنفسه من القرنة وجلس إلى صديقه: "سأعاود الدروس اليوم مساء. ما من سبب للانقطاع أكثر من ذلك".

- "لا".

- "لقد سألت نفسي بالطبع عما إذا كانوا سيأتون. اليوم يوم المآدب العظيمة. ولكن في الطريق التقيت بالشاب فيستون. وعندما قلت له، بأنني سوف أدرّس اليوم الجبر، أبدى تحمساً. فقلت له، بأنه يستطيع المجيء بخوذته. سوف ينفجر فيثاغورث والآخرون من الانزعاج، عندما يقولون لهم، بأنهم بعد المعركة تابعوا دروس الجبر لدى انتيستينس".

مرجح سقراط نفسه بعض الشيء بأرجوحة نومه، بأن دفع بظاهر يده على الجدار المائل قليلاً. بعينين جاحظتين نظر متفحصاً إلى صديقه: "هل صادفت أحداً آخر في طريقك؟".

- "الكثير من الناس".

نظر سقراط منقبضاً باتجاه السقف. هل عليه أن يحلب صافياً مع أنتيستينس؟ كان واثقاً منه إلى حد بعيد. فهو شخصياً لم يأخذ أبداً نقوداً على الدروس، ولذلك ليس منافساً لأنتيستينس. لربما وجب عليه فعلاً أن يعرض عليه حالته الصعبة.

نظر انتيستينس بعينيه المتقدتين بفضول إلى صديقه وأخبره: "جورجياس يدور بين الناس ويحدثهم بأنك هربت من المعركة، وأنك في حالة البلبلة

اتخذت الوجهة الخاطئة، فاتجهت إلى الأمام. ويقال أن زوجاً من الشباب الطيبين قد عملوا له عَلْقة على ذلك".

نظر سقراط متفاجئاً بصورة غير سارة. فقال له متكدراً: "هراء". فجأة اتضح له ما سيكون بيد أعدائه من سلاح ضده، إذا كشف أوراقه. في الليل، قبيل الفجر، فكّر، لربما أمكنه أن يقلب القضية كلها إلى تجربة، ويقول بأنه أراد أن يرى كم الناس سريعو التصديق. فمنذ عشرين سنة وهو يدعو في كل الأزقة إلى المسالمية، وإشاعة واحدة تكفي ليرى فيه تلامذته وحشاً كاسراً إلى آخره إلى آخره. ولكن هذا يعني أن المعركة ما كانت لتُكسب. من الواضح أن هذا ليس الوقت المناسب للمسالمية. فبعد الهزيمة يكون حتى القادة مسالمين لفترة. وبعد النصر يكون حتى صغار الناس من أنصار الحرب، لفترة على الأقل، إلى أن يلاحظوا بأن النصر والهزيمة ليسا مختلفين كثيراً بالنسبة لهم. لا، الآن لا يستطيع أن يتباهى بالمسالمية.

من الزقاق تناهى إليه دربكة أحصنة. توقف فرسان أمام البيت، ودلف إلى الداخل بمشيته المتمايلة ألكيبيادس وصاح مشرقاً:

- "صباح الخير، يا أنتيستينس. كيف حال سوق الفلسفة؟ إنهم غاضبون. في مجلس المدينة يرغون ويزبدون بسبب جوابك، يا سقراط. وحبا بالنكتة غيّرت اقتراحي من تقليدك اكليل الغار إلى ضربك خمسين عصا. بالطبع استاءوا من ذلك، لأنه وافق مزاجهم تماماً. ومع ذلك، فلا مفر لك من المجيء معي. سوف نسير معاً، على الأقدام!".

زفر سقراط. كانت علاقته جيدة مع الشاب الكيبيادس. وقد شربا مراراً سوية. كانت بادرة لطيفة منه أن يبحث عنه. بالتأكيد لم يكن الأمر

مجرد رغبة في إهانة مجلس المدينة. وحتى هذه الرغبة الأخيرة محترمة ويجب دعمها.

بالأخير قال سقراط متفكراً وهو يتابع التأرجح في مرجوحة نومه: "العجلة ريح ترمي السقالة. اجلس!". ضحك ألكيبيادس وسحب لنفسه كرسياً. وقبل أن يجلس انحنى لزانتيبه التي وقفت في باب المطبخ وهي تنشّف يديها بثوبها.

قال نافذ الصبر: "أنتم الفلاسفة أناس مضحكون. ربما يؤسفك أنك قد ساعدتنا في كسب المعركة. لا بد أن أنتيستينس قد لفت نظرك إلى أنه لم تكن هناك أسباب كافية لذلك؟".

ـ "نحن تحدثنا عن الجبر"، قال انتيستينس بسرعة وعاد إلى السعال.

ابتسم الكيبيادس بخبث: "أنا لم أتوقع غير ذلك. كل المطلوب أن لا تثار ضجة حول الأمر، أليس كذلك؟ برأيي أنها كانت ببساطة شجاعة. تريدان القول، ليس شيئاً مميزاً. حسناً، ولكن ما المميّز في قبضة أوراق من الغار؟ كزّ على أسنانك ودع الأمر يمر، ياعجوز! سيمر بسرعة ودون ألم. ثم نذهب بعدئذ لنشرب دمعة". وبفضولية نظر إلى هذا الجسد المقتدر العريض الذي ارتمى الآن في حالة تأرجح شديد نسبياً.

فكر سقراط بسرعة. خطر بباله شيء يستطيع قوله. يمكن أن يقول إنه البارحة ليلاً أو اليوم صباحاً قد التوت قدمه. مثلاً، عندما أنزله الجنود من على أكتافهم. بل إن في ذلك نقطة لصالحه. فهذا الحادث يشير كيف يمكن بسهولة أن يتأذى المرء من تكريم مواطنيه له.

وبدون أن يتوقف عن التأرجح، انحنى إلى الأمام بحيث انتصب جذعه وهو قاعد، ومسّد بيده اليمنى على ذراعه اليسرى العارية، وقال بهدوء:

"المسألة هكذا قدمي.." . عندما تفوه بهذه الكلمة التقى نظره الحائر ـ إذ بدأ الآن يتلفظ بأول كذبة حقيقية في الموضوع، حتى الآن كان ما زال صامتاً ـ بزانتيبه في باب المطبخ.

خانه لسانه. فجأة لم تعد لديه الرغبة بأن يسرد قصته. قدمه لم تلتو. وتوقفت مرجوحة النوم.

من ثم قال بحمية وبصوت منتعش: "اسمع، يا ألكيبيادس. لا يمكن في هذه الحالة الحديث عن الشجاعة. مباشرة عندما ابتدأت المعركة، أي عندما ظهرت لي طلائع الفرس، لذت بالفرار، وفي الاتجاه الصحيح، إلى الوراء. لكن، كان هناك حقل من الشوك. فداست قدمي على شوكة ولم أستطع المتابعة. عندئذ أخذت أضرب حولي مثل الوحش، كدت أصيب بعضاً من جماعتي. من عزة الروح جعلت أصرخ بشيء ما عن فصائل أخرى، كي يظن الفرس بوجود شيء من ذلك. وكان هذا سخافة، لأن الفرس بالطبع لا يفهمون الاغريقية. من ناحية أخرى بدوا هم أيضاً متوتري الأعصاب. فلم يستطيعوا احتمال هذا الصراخ، بعد كل ما احتملوه عند التقدم. فأحجموا لحظة، وعندئذ جاء فرساننا. هذا كل شيء".

لبضع ثوان هيمن السكون على الحجرة. ألكيبيادس حملق فيه. أنتيستينس سعل من وراء يده المرفوعة أمام فمه، هذه المرة بصورة طبيعية. ومن باب المطبخ، حيث وقفت زانتيبه، صدرت قهقهة مجلجلة.

بعدها قال أنتيستينس بجفاف: "وبالطبع ما كنت لتستطيع المشي إلى مجلس المدينة، والصعود حَجْلاً على الدرج كي تتقبل اكليل الغار، مفهوم".

أسند ألكيبيادس ظهره في كرسيه إلى الخلف، وتأمل بعينين مزوكتين الفيلسوف في مضجعه. لكن، لا سقراط ولا أنتيستينس نظرا إليه.

انحنى ثانية إلى الأمام، وشبك يديه على إحدى ركبتيه. وجهه الصبياني النحيل اضطرب قليلاً، لكنه لم يُسفر عن شيء من أفكاره أو مشاعره: ولماذا لم تقل بأنك أُصبت بجرح آخر؟".

قال سقراط باقتضاب: "لأن الشوكة كانت في قدمي".

قال ألكيبيادس: " آ، لذلك؟! فهمت"، وانتصب بسرعة وتقدم إلى الفراش. "خسارة أنني لم أجلب معي اكليل غاري. لقد سلمته لمرافقي. وإلا لكنت تركته لك الآن. لك أن تصدقني، بأنني أعتبرك شجاعاً دون انتقاص. أنا لا أعرف أحداً يتحدث في مثل هذه الظروف بما تحدثت أنت فيه". ثم خرج مسرعاً.

فيما بعد، عندما غسلت زانتيبه قدمه وانتزعت منها الشوكة قالت مستاءة: "كان يمكن أن يحدث تسمم في الدم".

فقال الفيلسوف: "على الأقل".

* * *

يوليوس قيصر والجندي

١ - قيصر

منذ بداية آذار عرف الديكتاتور أن أيام الديكتاتورية أصبحت معدودة.

لو أن غريباً جاء من إحدى الولايات لكان ربما وجد العاصمة أعظم من أي وقت مضى: كانت المدينة قد نمت بشكل غير طبيعي، خليط ملون من الشعوب ملأ المساكن المزدحمة، بنايات حكومية هائلة تنتظر الانجاز، الوسط التجاري[1] يعج بالمشاريع، الحياة التجارية تُبدي ملامح عادية، العبيد رخيصو الثمن.

بدا النظام مستتباً. الديكتاتور كان قد نُصب لتوه ديكتاتوراً مدى الحياة، ويحضّر الآن لأعظم مشاريعه، وهو احتلال الشرق، الحملة التي طال انتظارها إلى بلاد فارس والتي ستكون حملة اسكندرية[2] ثانية حقاً.

---

١) في الأصل: City.هذه الحاشية وجميع الحواشي اللاحقة من وضع المترجم.

٢) نسبة إلى الفاتح الاسكندر المقدوني.

عرف قيصر بأنه لن يعيش هذا الشهر. لقد وصل إلى قمة سلطانه. لم يبق أمامه إذن سوى الهاوية.

كان الاجتماع الكبير لمجلس الشيوخ في ١٣ آذار، الذي خطب فيه الديكتاتور ضد "الموقف التهديدي للحكومة الفارسية"، مصرّحاً بأنه قد جمع جيشاً في الاسكندرية عاصمة مصر، قد كشف عن موقف لا مبال بشكل غريب، بل بارد، من قبل مجلس الشيوخ. أثناء الخطاب تناقل أعضاء المجلس قائمة غريبة بالمبالغ التي أودعها الديكتاتور بأسماء مستعارة في المصارف الاسبانية: الدكتاتور نقل ثروته الخاصة (١١٠ملايين) إلى الخارج. لعله غير مؤمن بحربه؟ أو ربما كان لا ينوي أصلاً أية حرب ضد الفرس، بل ضد روما؟ ـ كالعادة صادق مجلس الشيوخ بالاجماع على اعتمادات الحرب.

في قصر كليوباترا، مركز الدسائس المتعلقة بالشرق، كان بضع عسكريين مجتمعين. كانت الملكة المصرية هي الواعز الحقيقي للحرب ضد الفرس. وقد هنأها بروتوس وكاسيوس وضباط شباب آخرون على انتصار السياسة الحربية في مجلس الشيوخ. وأخذوا يضحكون، مبدين إعجابهم بفكرة نشر قائمة المبالغ الغريبة. فالديكتاتور سوف يُفاجأ، عندما يحاول جمع الاعتمادات المرصدة من الوسط التجاري....

بالفعل أتيح لقيصر، الذي لم يغب عنه برود مجلس الشيوخ رغم انقياده، أن يلاحظ في الوسط التجاري أيضاً موقفاً في غاية اللاعقلانية. في غرفة التجارة عرض أمام رجال المال خارطة ضخمة، معلقة على الحائط، وشرح لهم خططه الحربية في بلاد فارس والهند. صار رجال المال يهزون برؤوسهم، ثم بدأوا يتحدثون عن بلاد الغال التي أُحتلت منذ سنوات والتي مع ذلك قد تفجّرت فيها انتفاضات دموية من جديد. "التنظيم الجديد" لم يثبت فاعلية.

وطُرح اقتراح: أليس من الأفضل لو أمكن تأجيل بدء الحرب إلى الخريف؟ لم يجب قيصر، وغادر المكان بفظاظة. فرفع الرجال أيديهم بالتحية الرومانية. أحدهم تمتم: "ماعاد عنده أعصاب، هذا الرجل". لعلهم فجأة ما عادوا يريدون الحرب!

الاستطلاعات تعطي وقائع مذهلة: مصانع الأسلحة تحضّر بشكل محموم للحرب، أسهمها آخذة بالقفز إلى الأعلى، كذلك العبيد ترتفع أثمانهم...

ماذا يعني هذا؟ يريدون حرب الديكتاتور ويمنعون عنه المال من أجل ذلك؟

حتى المساء سيعلم قيصر، ما الذي يعنيه هذا: هم يريدون الحرب، ولكن بدونه.

أعطى قيصر الأمر باعتقال خمسة مصرفيين، لكنه كان مهزوزاً في داخله لدرجة الانهيار العصبي، مما أذهل مرافقه الذي عرفه هادئاً تماماً في قلب المعارك الدامية. عندما جاء بروتوس، الذي يحبه كثيراً، استعاد شيئاً من هدوئه. مع ذلك لم يشعر في نفسه من القوة ما يكفي لأن ينظر في ملف أرسله له أحد مخبريه من الوسط التجاري. تضمن هذا الملف أسماء متآمرين. وهم يحضّرون للاعتداء على حياته. لقد خشي الديكتاتور أن يجد في هذا الملف السميك ("لقد كان سميكاً جداً، سميكاً بشكل مرعب") أسماء أليفة، فأحجم عن فتحه. كان بروتوس بأمس الحاجة إلى كأس من الماء، عندما أعاد قيصر الملف أخيراً إلى سكرتيره، دون أن يفتحه ـ للمذاكرة لاحقاً!.

في قصر كليوباترا حدث هلع شديد، عندما جاء بروتوس شاحب الوجه ذاهلاً وأخبر أن ثمة ملفاً عن المؤامرة. في كل لحظة يمكن أن يقرأه قيصر.

بصعوبة هدأت كليوباترا الحاضرين، مناشدة إياهم بشرفهم العسكري، وأعطت هي بالذات الأمر لحاشيتها بالتأهب للرحيل.

في هذا الوقت ظهر قائد الشرطة لدى قيصر للتباحث. هو ثالث قائد للشرطة في هذه السنة التي لم يمض منها سوى شهرين، الإثنان الأولان جرت تنحيتهم لتورطهم في المؤامرة. قال قائد الشرطة، إنه يضمن للديكتاتور سلامته الشخصية ـ رغم الاضطراب الذي نشأ في الوسط التجاري على أثر اعتقال المصرفيين، الذين على كل حال يتمتعون بدعم من أوساط متنفذة... الحرب مع الفرس، التي يبدو أن قائد الشرطة مقتنع بابتدائها قريباً، سوف تُسكت ـ برأيه ـ المعارضة. أثناء استعراض قائد الشرطة للإجراءات الأمنية الواسعة التي يراها ضرورية، كان قيصر ينظر من خلاله، كما في الرؤيا، كيف سيموت، ذلك لأنه سيموت:

سوف يوعز بحمله إلى رواق بومبيي[1]، ينزل هناك، يتخلص من أصحاب الالتماسات، يدخل المعبد، يبحث بنظره عن هذا أو ذاك من الشيوخ ويحييه، ويجلس إلى كرسي. بعض الطقوس سوف تؤدى. إنه يراها أمامه. بعد ذلك سيتقدم المتآمرون نحوه بأية حجة ـ في رؤيا قيصر ليس لهم وجوه، فقط بقع بيضاء مكان الوجوه ـ . أحدهم سيقدم له شيئاً للقراءة، وهو سيمد يده إليه، وعندئذ سينهالون عليه، سوف يموت. لا، بالنسبة له لن تكون هناك حرب في الشرق. ولن يُقيّض للأعظم من كل مشاريعه أن يتحقق: أن يصل سالماً إلى سفينة، تقله إلى قواته في الاسكندرية، إلى المكان الوحيد الذ يمكن أن يكون آمناً.

---

١ ـ في الأصل: **Porticus Pompejus**

عندما كان الحرس أواخر المساء يرون بعض السادة يدخلون حجرات الديكتاتور، كانوا ما زالوا يظنون أن هؤلاء قادة وخبراء عسكريون يريدون التباحث بشأن حرب الفرس. غير أنهم ما كانوا غير أطباء، فالديكتاتور كان يحتاج إلى عقار منوّم.

اليوم التالي، وهو الرابع عشر من آذار، سار بشكل مضطرب ومؤلم. عند ركوبه إلى مدرسة الفرسان جاءته فكرة عظيمة: مجلس الشيوخ والوسط التجاري ضده، وماذا بعد؟ سوف يتوجه إلى الشعب!.

ألم يكن مرة مفوض الشعب العظيم، الأمل الأبيض للديمقراطية؟ وقتذاك كان ثمة برنامج هائل أرعب به مجلس الشيوخ رعب الموت،وهو توزيع الأراضي الزراعية وإسكان الفقراء. الديكتاتورية؟ لا ديكتاتورية بعد الآن! قيصر العظيم سوف يتنحّى، سوف ينسحب إلى الحياة الخاصة، يذهب مثلاً إلى اسبانيا...

كان متعباً عندما اعتلى الحصان، وباستسلام تركهم يطوفون به أرجاء المدرسة، ثم (بتأثير تفكيره بالشعب) انتصب في ركوبه، شدّ الزمام، وانطلق بالحصان حتى بلّله العرق، لقد غادر مدرسة الفرسان رجلاً جديداً متنشطاً.

لم يكن الكثير من أولئك الذي يلعبون هذه اللعبة الكبيرة يشعر صباح اليوم بالاطمئنان الذي شعر به قيصر ... كان المتآمرون ينتظرون الاعتقال. أقام بروتوس الحرس في حدائقه، وفي أماكن متفرقة وضعت خيول في حالة الاستعداد. في العديد من البيوت حُرقت بُرديات[1]. وفي قصرها على نهر التيبر كانت كليوباترا بعدّ نفسها ليوم الموت. فلا بد أن قيصر قد قرأ الملف.

---

[1] ـ وهي التي كان يكتب عليها بدلاً من الورق في أيامنا.

وها هي تزين نفسها بعناية، تمنح عبيدها الحرية، توزع الهدايا. فقريباً سيصل زبانية قيصر.

لقد ضربت المعارضة ضربتها البارحة. واليوم يجب أن تتبع الضربة المعاكسة من قبل النظام.

في المجلس الصباحي للديكتاتور اتضح كيف ستكون الضربة المعاكسة: في حضور عدد من الشيوخ تحدث قيصر عن خطته الجديدة. سوف يعلن عن انتخابات، ويعتزل. شعاره الآن: ضد الحرب! المواطن الروماني سوف يحتل الأرض الايطالية، لا الفارسية. إذ كيف يعيش المواطن الروماني، حاكم العالم؟ قيصر يصف لهم ذلك.

وجوه متحجرة استقبلت الوصف المخيف لحرمان المواطن الروماني العامي. لقد نزع الديكتاتور عن وجهه القناع؛ يريد تحريض الغوغاء. بعد نصف ساعة سيصبح كل في الوسط التجاري على علم بما حدث. وهكذا ستزول العداوات بين الوسط التجاري ومجلس الشيوخ، بين المصرفيين والضباط، سيصبح الجميع متفقين على شيء واحد: ليسقط قيصر!

قبل أن ينهي كلمته، عرف قيصر أنه قد أخطأ. ما كان عليه طبعاً أن يكون بهذه الصراحة. إذ ذاك غيّر بغتة الموضوع، مستعيناً بظرفه المعهود: ليس لدى أصدقائه ما يخشونه، أراضيهم ستكون في أمان، سوف تجري مساعدة الفلاحين للحصول على أراضٍ، ولكن هذا ستقوم به الدولة، من وارداتها. سوف يكون الصيف جميلاً، وهم مدعوون لضيافته في البايه[1].

حالما شكره الحضور على دعوته وغادروا، أمر قيصر بإقالة قائد الشرطة واعتقاله، لأنه مساء البارحة كان قد أطلق سراح المصرفيين المعتقلين. ثم

---

١ ـ مكان للسباحة الاستجمام زمن الرومان يقع شمالي نيبال في ايطاليا.

أرسل سكرتيره إلى الأوساط الديمقراطية كي يقفر مزاجها. الآن يتوقف كل شيء على موقف الشعب.

لم تكن الأوساط الديمقراطية سوى سياسيي النوادي الحرفية المنحلة منذ وقت طويل، والتي كانت في العصر الذهبي للديمقراطية تلعب الدور الرئيسي في الانتخابات. كانت ديكتاتورية قيصر قد حطمت فيما مضى هذا الكيان بقسوة، وشكلت من قسمٍ من أعضائه حرساً مدنياً باسم نوادي الشوارع. ثم جرى حلّ هذه أيضاً. أما الآن فيبحث السكرتير تيتوس راروس عن سياسيي العامة كي يقفر مزاجهم.

تحدث السكرتير مع عريف سابق لصنف الحائكين، ثم مع داعيةٍ انتخابيٍ سابق، هو الآن صاحب حانة. كلا الرجلين أبديا حذراً شديداً، ونفوراً من التحدث في السياسة. وأشارا إلى العجوز كاربو، الزعيم السابق لعمال البناء، الذي يتمتع بأكبر التأثير، ذلك أنه يقبع في السجن.

في هذه الأثناء تلقى قيصر زيارة هامة: كليوباترا. فلم تعد الملكة تتحمل توتر الأعصاب. تريد أن تعرف مصيرها. هي مستعدة للموت، وكل فنون مصر قد سخرتها لاستثمار جمالها المشهور في القارات الثلاث. بدا أن الديكتاتور ليس في عجلة من أمرهِ. وكان معها، كما كان دائماً في السنوات الأخيرة، في غاية التهذيب، مستعداً في كل وقتٍ لبذل النصيحة، يلمّح من آن لآن، بأنه مستعد لأن يعود في الحال عشيقاً لها، إذا أرادت ذلك، هو الخبير بالجمال الأنثوي الذي لا يشق له بنان. إنما، ولا كلمة في السياسة. جلسا في الردهة وأخذا يطعمان السمكات الذهبية، وتحدثا عن الطقس، ودعاها إلى البايه في الصيف...

لم تطمئن كليوباترا. يبدو أنه لم ينته بعد من ترتيباته للضربة المعاكسة، هذا هو كل شيء، كما يظهر. أخيرا انصرفت بوجه جامد. رافقها قيصر حتى محفتها، ثم توجه إلى المكاتب، حيث الحقوقيون وأمناء السر يعملون بشكل محمومٍ على وضع مشروع لقانون انتخاب جديد. يجب أن يبقى المشروع سريا: محظور على أي واحد مغادرة القصر. سوف يكون هذا الدستور الأكثر حرية من كل ما عرفته روما في حياتها.

وبالطبع، كل شيء يعود الآن إلى الشعب...

ولما كان راروس قد طالت غيبته بشكل ملفت ـ ماذا هنالك للأخذ والرد، يجدر بهؤلاء العامة أن يمدوا كلتا يديهم، إذ يقدم لهم الديكتاتور هذه الفرصة الفريدة ـ ، يقرر قيصر الذهاب إلى سباق الكلاب. إنه يشعر بالحاجة لأن يقيم بنفسه اتصالاً بالشعب، والشعب يتواجد في سباق الكلاب. الحلبة لم تكن ممتلئة تماماً بعد. وقيصر لا يتوجه إلى المنصة الكبيرة، بل يحتل مكاناً إلى الأعلى بين الجمهور. فليس ثمة خشية من أن يتعرف عليه الناس،لأنهم ما رأوه قط إلا من بعيد.

تفرج قيصر بعض الوقت، ثم راهن على أحد الكلاب. إلى جانبه جلس رجل، فشرح له قيصر لماذا راهن على هذا الكلب بالذات. فهزّ الرجل رأسه. ويبدو أن بعض الناس قد جلسوا على غير مقاعدهم، فأبعدهم عنها قادمون جدد. حاولِ قيصر أن يدخل في حديث مع جيرانه، عن السياسة. فكان جوابهم واحداً، ثم أدرك بأنهم يعرفون من هو: لقد كان يجلس بين شرطته السرية.

وقف منزعجاً وانصرف. وبالمناسبة، فقد ربح الكلب الذي راهن عليه...

أمام الحلبة التقى بسكرتيره الذي يبحث عنه. لم تكن لديه أخبار سارة. فما من أحد يريد التفاوض، في كل مكان يسود الخوف أو الكراهية، والشخص الذي يثقون به هو كاربو، عامل البناء. استمع قيصر إلى سكرتيره وهو متجهم الوجه، ثم صعد إلى محفته وأمر بحمله إلى السجن المارمرتيني. فقد أراد التحدث مع كاربو. كان ثمة ضرورة للبحث عن كاربو. ففي هذه المعاقل[1] يوجد كثير الكثير من سجناء العامة، وهم يتخون هنا بالعشرات. لكن بعد زمن من الرواح والمجيء جرى بواسطة حبال طويلة انتشال عامل البناء كاربو من أحد الجحور، وأصبح بإمكان الديكتاتور أن يتحدث إلى الرجل الذي يثق به شعب روما.

جلسا متقابلين يتأملان بعضهما. كان كاربو رجلاً كبير السن، ربما ليس أكبر سناً من قيصر، لكنه على أية حال يبدو في الثمانين من عمره. كان طاعناً في السن، ذابلاً إنما متماسكاً. شرح له قيصر دون مواربة مخططه العجيب. وهو إعادة الديمقراطية، إعلان الانتخابات، وأن ينسحب هو إلى حياته الخاصة الخ. الخ.

كل هذا والرجل العجوز صامت، لم يقل نعم، لم يقل لا، بقي صامتاً. حدّق بجمود في قيصر، ولم يصدر عنه أي حسّ. عندما رحل قيصر، أدلوه بالحبال الطويلة ثانية إلى جحره. لقد انتهى الحلم بالديمقراطية. وأصبح واضحاً: إذا أرادوا الانقلاب، فليس معه. فهم يعرفونه جيداً.

عندما عاد الديكتاتور إلى مقره، لاقى السكرتير بعض الصعوبة في إفهام الحرس من هو. فهم جدد. إذ أن القائد الجديد للشرطة أبعد الحرس الروماني وزج في القصر عصبة من الزنوج. فالزنوج موثوقون أكثر. لا يفهمون

---

[1] - في الأصل: **Casemattes**

اللاتينية وبالتالي لا يمكن بهذه السهولةجعلهم يصابون بعدوى المزاج السياسي في المدينة...

في القصر لم يمر الليل بهدوء. أفاق القيصر عدة مرات وتمشى في أرجاء القصر الممتدة، في حين كان الزنوج يشربون ويغنون. لم يهتم به أحد، لم يتعرف إليه أحد. استمع إلى إحدى أغانيهم الحزينة، وخرج إلى الاسطبل يزور حصانه المحبوب. على الأقل الحصان تعرّف عليه... روما الخالدة مستلقية في إغفاءة قلقة. على أبواب التكايا ما زال حرفيون مفقرون مصطفين من أجل ثلاث ساعات نوم ويقرأون إعلانات كبيرة نصف ممزقة تدعو للتطوع كجنود في حرب الشرق التي لن تحدث. في حدائق أولاد الذوات[1] اختفى الحراس منذ ليلة البارحة. من القصور تنبعث أصوات سكرى.عبر البوابة الجنوبية للمدينة ينسلّ موكب صغير: ملكة مصر تغادر العاصمة وهي محجبة تماماً. في الساعة الثانية ليلاً يتذكر قيصر شيئاً، فينتصب واقفاً ويذهب بلباس النوم إلى الجناح الذي ما زال يعمل فيه الحقوقيون على إنجاز الدستور الجديد، ويصرفهم إلى النوم.

قبيل الصبح يتلقى قيصر نبأ أن سكرتيره راروس قد اغتيل في الليل. من الواضح أن مباحثاته مع سياسيي العامة قد فشى سرّها، فانقضت من الظلمة أيد قادرة. أيدي من؟ القوائم التي كانت بحوزته بأسماء المتآمرين، اختفت.

لقد اغتيل راروس في القصر. إذن فالقصر لم يعد آمناً لأنصار الديكتاتور. فهل ما زال آمنا بالنسبة للديكتاتور نفسه؟.

وقف قيصر طويلاً أمام السرير الميداني، حيث يرقد السكرتير الميت، آخر ثقاته، الذي دفع حياته ثمناً لهذه الثقة.

---

١ ـ بالفرنسية في الأصل: **Jeunesse Doree**

أثناء خروجه من الحجرة صدمه أحد الحراس بكتفه، و لم يعتذر منه. وعندما نزل إلى الممشى، نظر حواليه مراراً بعصبية.

في الردهة، التي كانت خالية على غير العادة ـ إذ لم يحضر أحد المجلس الصباحي ـ، صادف قيصر رسول أنطونيوس: القنصل وتابعه يقولون له، إن عليه أن لا يذهب اليوم بأي حال إلى مجلس الشيوخ، وثمة خطر يتهدد سلامته الشخصية هناك. فأرسل إليه قيصر يخبره، بأنه لن يذهب إلى مجلس الشيوخ. ـ بدلاً من ذلك أمر بحمله إلى منزل كليوباترا، ماراً بطريقه بالصف الطويل لأصحاب الالتماس، المتواجد كل صباح أمام قصره. لربما تموّل كليوباترا حملته؟ عندئذٍ لن يحتاج، لا إلى الوسط التجاري ولا إلى الشعب.

غير أن كليوباترا لم تكن في المنزل. كان مغلقاً. يبدو أنها قد ذهبت في سفرةٍ بعيدة... فإلى القصر ثانية. كانت بوابة القصر مفتوحة بشكل مريب. فتبين أن الحرس قد انسحبوا. انحنى سيد العالم من على محفته ونظر إلى منزله الذي لم يعد يتجرأ على دخوله.

كان يستطيع أن يطلب من أنطونيوس تأمين حرس حماية. لكنه ارتاب في كل حرس. الأفضل له أن يذهب بدون حرس حماية؛ فبذلك لن يحتاج على كل حال لأن يخشاهم. ولكن، إلى أين يذهب؟ وأعطى أمره: سيذهب إلى مجلس الشيوخ.

ارتمى في محفته مُسند الظهر، لا ينظر يميناً ولا شمالاً. أوعز بحمله إلى رواق بومبيي. نزل هناك. تخلص من أصحاب الالتماسات، دخل المعبد. بحث عن هذا أو ذاك من الشيوخ، وحيّاه. جلس على كرسيه. جرى تأدية بعض الطقوس. بعد ذلك تقدم المتآمرون نحوه بحجة من الحجج. لم تعد لهم بقع

بيضاء فوق الأعناق كما في حلمه قبل يومين؛ كان لهم جميعاً وجوه، وجوه أفضل أصدقائه. أحدهم قدّم له شيئاً للقراءة، مدّ يده إليه. ثم نهالوا عليه.

٢ - الجندي

في غسق الصباح كانت عربة ثيران تمر عبر الحقول المخضرة بالربيع باتجاه روما. إنه الفلاح والمحارب القيصري القديم ذو الاثنين والثمانين عاماً تيرنتيوس سكابر مع الأسرة والعفش. وجوههم مهمومة. لقد طردوا من أرضهم الصغيرة لعدم تسديدهم إيجارها. فقط لوسيليا ذات الثماني عشر عاماً كانت تترقب المدينة الضخمة الباردة بعين سارّة: خطيبها يعيش هناك.

أثناء اقترابهم من المدينة لاحظوا أنها مقبلة على أحداث استثنائية. الرقابة على الحواجز مشددة، بين الحين والحين كانت توقفهم دوريات عسكرية. ثمة إشاعات عن حرب كبيرة وشيكة الوقوع في آسيا. رأى المحارب القديم أكواخ التجنيد، المعروفة لديه، ما زالت فارغة في هذه الساعات الباكرة، فعادت إليه الحياة. قيصر يخطط لحملات مظفرة جديدة. وها قد وصل تيرنتيوس سكابر في الوقت المناسب. إنه يوم ١٣ آذار عام ٤٤.

قرابة الساعة التاسعة قبل الظهر كانت عربة الثيران تمر عبر رواق بومبيي. جمع من الشعب ينتظر هنا قدوم قيصر والشيوخ إلى جلسة في المعبد، حيث يفترض أن يسمع مجلس الشيوخ إلى "بيان هام من الديكتاتور". كان الناس عموماً يتحادثون في الحرب، لكن ما أثار دهشة سكابر هو أن دوريات عسكرية كانت تحاول دفع الناس إلى متابعة السير. فكان الحديث يتوقف، حالما يظهر الجنود. في هذا الوقت كان هم المحارب القديم أن يزمق

بعربته. وعندما قطع نصف المسافة، وقف في عربته واستدار إلى الخلف صائحاً: عاش قيصر! لكنه استغرب أن أحداً لم يردد هتافه.

في حالة من تشوش الفكر آوى سكابر أسرته الصغيرة في فندق رخيص في الضاحية. وانطلق يبحث عن صهره المستقبلي، سكرتير قيصر تيتوس راروس. و لم يرض أن ترافقه لوسيليا. فعليه بالأول أن يصفي الحساب مع هذا الشاب.

لم يكن سهلاً، كما تبين له، أن ينفذ المرء إلى قصر قيصر من الساحة. فالرقابة، وخاصة على الأسلحة، كانت شديدة للغاية. الجو متوتر!

في الداخلِ علم أن للديكتاتور أكثرمن مئتي سكرتير. و لم يكن اسم راروس معروفاً من أحد.

بالفعل، منذ ثلاث سنوات لم يعد راروس يقابل رئيسه في جناح مكتبة القصر. هو السكرتير الأدبي لقيصر وعليه أن يعاونه في انجاز مؤلّف في النحو. وها هو المؤلف ملقى لم يمسّه الديكتاتور، إذ لم يعد لديه وقت لمثل هذه الأشياء. كانت فرحة راروس لا توصف، عندما خبّط الجندي القديم داخلاً. ماذا؟ لوسيليا هنا في روما؟ أجل، هي هنا، ولكن ما من سبب للسرور. فقد ألقيت الأسرة في الشارع، وهذا بسبب لوسيليا أصلاً. كان بإمكانها بلا حرج أن تكون تجاه مالك الأرض، صناعي الجلود بومبيليوس، متساهلة نوعاً ما... خاصة منذ أن انقطع راروس كلياً عن المجيء! ودافع الشاب عن نفسه بحماس. فهو لم يحصل على إجازة. وسوف يفعل ما بوسعه لمساعدة الأسرة. سوف ينال سلفة من الإدارة. وسوف يستخدم ارتباطاته لمصلحة تيرنتيوس سكابر. ولماذا لا يصبح المحارب القديم نقيباً، آخر الأمر ثمة حرب كبيرة على الأبواب!

في هـذه اللحظـة: وقـع أقـدام وصليـل سيوف في الممـر، انفتـح البـاب بسرعة: على العتبة وقف قيصر.

وقف السـكرتير الصغـير جـامداً أمـام النظـرة الفاحصـة لـلرجل الكبـير. فلأول مرة منذ ثلاث سنوات يظهـر قيصـر ثانيـة في غرفـة عملـه! و لم يكـن يدري أن مصيره قد وطأ العتبة للتوّ!.

لم يأت قيصر لكي يشتغل في النحو. كل ما في الأمـر أنـه كـان يبحـث عن إنسان يستطيع الوثوق به، إذن عن إنسان يصعب ايجاده في هـذا القصـر. لدى مروره أمام المكتبة خطر على باله سكرتيره الأدبي، شـاب لا علاقـة لـه بالسياسة. فلعله ليس مُفسَداً...

مع أن اثنين من الحرس الشـخصي فتشـا سـكابر وألقيـاه خارجـاً، فقـد خرج مزهـوّاً: إذ لا يبـدو أن صهـره المستقبلي هـو الأخـير في هـذا القصـر. فقيصر العظيم يبحث عنه، وهذا علامة خير.

كذلك جرى تفتيش راروس. إنمـا بعدئـذ كلفـه قيصـر بمهمـة: عليـه أن يتوجه، الأفضل بطريق مواربة، إلى مصرفي اسباني معين ويستفهم منه مصدر المقاومة السرية للوسط التجاري ضد حرب قيصر في الشرق.

في هذه الأثناء كان المحارب القديم ينتظر الشاب أمام القصر. وعندما لم يخرج - في الواقع خـرج مـن بـاب خلفـي - انصـرف سـكابر ليخـبر أسـرته بالتحول الايجابي. في الطريق مر على مكتـب تطـوع: هنـا لا يقبلـون لحمـل السلاح سوى طلبات الشبان الصغار. سيكون مفيـداً أن يكـون للمـرء دعـم ويصبح نقيباً. لقد أصبح فعلاً كبيراً على أن يكون جندياً.

من هناك عرّج على بعض الحانات، وعندما وصل إلى الفندق الصغير في الضاحيـة كـان منتشـياً بعـض الشـيء: بـاين أنـه النقيـب تـيرنتيوس سـكابر،

وانصب غضبه على خطيب لوسيليا الذي لم يظهر حتى الآن: هكذا إذن، ليس لدى السيد السكرتير الصاعد وقت كي يسلم على خطيبته؟ فمن أين ستعيش الأسرة؟ هم في الحال بحاجة ماسة إلى ثلاثمائة درهم على الأقل. فلتتفضل لوسيليا ولتبحث عن صناعي الجلود لتستدين منه النقود. إذ ذاك أجهشت لوسيليا بالبكاء: إنها لا تفهم، لماذا لم يأت راروس بعد. صحيح، السيد بومبيليوس لن يتردد في إعطائها الثلاثمائة درهم، لكنه لن يفعل هذا دون مقابل. هنا غضب أبوها: لم يعد هناك أدنى شك بأن الشاب لم يعد "رغبان". تلزمه نار تحت قفاه كي يتحرك. لا يجوز أن يظهر أن كل الاعتماد عليه. يجب أن يرى أنه ما زال هناك رجال آخرون يعرفون قدر لوسيليا. بعد هذا ذهبت لوسيليا باكية، وهي ما تزال تتلفت مستطلعة راروس.

في هذه اللحظة كان راروس قد عاد ثانية إلى القصر. لقد حصل من المصرفي الاسباني على ملف وسلمه إلى قيصر. ثم راح يحاول الحصول على سلفة من الإدارة. لكنه، بدل أن يحصل على المال، جرى التحقيق معه: أين؟ وما المهمة التي كلفه بها الديكتاتور؟ امتنع عن الإجابة، فأعلموه بأنه مفصول من العمل.

كان نصيب لوسيليا من النجاح أوفر. على أنه في البدء قيل لها إن السيد بومبيليوس معتقل. وكان العبيد المضطربون ما زالوا يتكلمون عن هذا الحدث العجيب، إنما المفهوم حيث أنه خاصة في الفترة الأخيرة قد عبّر مراراً عن عدائه للديكتاتور، عندما دخل السيد بومبيليوس مبتسماً. "طبعاً" لم يستطيعوا إبقاءه هو وبقية سادة الوسط التجاري في السجن. لحسن الحظ ما زال لهم بعض النفوذ لدى الشرطة. فالسيد قيصر لم تعد له تلك السلطة في هذه الأيام...

عندما وصل راروس أخيراً إلى الفندق، لم تكن لوسيليا قد عادت. كان المحارب القديم معكر المزاج، وأبت الأسرة أن تصرح أين لوسيليا. كما أن راروس لم يجلب معه الثلاثمائة درهم. و لم يتجرأ على البوح بإقالته من العمل، بل ادعى بصوت ضعيف أن كل ما في الأمر أنه لم يتيسر له الذهاب إلى الإدارة. ثم أقبلت لوسيليا باكية وارتمت بين ذراعيه. غير أن تيرنتيوس سكابر لم يجد سبباً للمداراة، فسأل لوسيليا دون حياء عن مدى النجاح في تسولها. وبدون أن تنظر في عيني راروس ناولت أباها الثلاث ـ مائة درهم. وقد كان بامكان راروس أن يجيب بنفسه على السؤال عن مصدر النقود: لوسيليا كانت عند صناعي الجلود!.

بلمح البرق انتزع الشاب النقود من يد العجوز: سوف يعيدها في الصباح للسيد بوميليوس. وغداً باكراً، الساعة الثامنة على أبعد حد سوف يجلب للوسيليا ما يكفي من النقود إلى الفندق. وبعدئذ سيذهب مع أبيها إلى قائد حرس القصر ويكلمه في تعيينه بمرتبة نقيب.

متبرماً أبدى المحارب القديم موافقته: على كلٍ لن يصعب على أمين سر حاكم العالم أن يساعد أسرة جندي قديم سابق الفضل كي تقف على قدميها...

في اليوم التالي انتظرت أسرة سكابر على راروس، إنما بدون جدوى.

لقد جرى إحضاره في الصباح الباكر لعند قيصر. في المكتبة فتش مع الديكتاتور عن خطاب قديم، كان قد ألقاه قبل سنوات طويلة وأوضح فيه برنامجه الديمقراطي. بعدئذ توجه السكرتير إلى أطراف المدينة، ليستطلع الرأي لدى مختلف سياسيي [illegible]امة حول إعادة الديمقراطية. وكان الديكتاتور، على

فكرة، قد أمر باستبدال حرس القصر واعتقال رئيسه الذي استجوب راروس قبل يوم.

في هذه الأثناء بدأ تيرنتيوس يفقد أمله. لم يعد يثق بخطيب ابنته. أما هي فقد أمضت الليل بطوله تبكي وانفجرت في وجه أبيها وأمها مصرحة لهم بما أراده منها صناعي الجلود. أمها انحازت إلى صفها. والمحارب القديم قرر أن يذهب ويسجل اسمه في مكتب للتطوع. وبعد تردد طويل اعترف لأسرته بأنه سيظهر عمّيراً في فحص القبول. فتطوعت الأسرة لمساعدته كي يبدو أصغر سناً: لوسيليا أعارته قلم الزينة، وابنه الصغير أخذ يراقب مشيته.

غير أنه عندما وصل إلىمكتب التطوع وجده مغلقاً. كان ثمة شباب أمام المكتب يتحدثون بانفعال عن شائعة تقول إن الحرب في الشرق قد ألغيت. فعاد الجندي الذي خاض عشر حروب مع القيصر محطماً إلى حضن أسرته، ليجد رسالة من راروس إلى لوسيليا تتضمن أنهم مقدمون على أحداث كبيرة، حيث جرت الآن صياغة قانون سيستلم بموجبه المحاربون القدماء مع قيصر أراضي إيجار وسلفاً من الدولة. كانت فرحة لا توصف.

كتب راروس رسالته في الصباح، وعندما قرأها تيرنتيوس سكابر كانت الأحداث قد تجاوزتها. فقد أسفرت مساعي راروس عن أن سياسيي العامة السابقين، وهم الذين لا حقهم قيصر لسنوات، ما عادوا واثقين بحركاته السياسية الشطرنجية.

بحث راروس، الذي وجد نفسه مراقباً، عن سيده في القصر دون جدوى، و لم يصادفه إلا بعد العصر في السيرك عند سباق الكلاب. في الطريق إلى القصر أعلم قيصر بالحقيقة المرعبة. بعد صمت طويل، وقد انكشف له فجأة الخطر الهائل الذي يتربص بالديكتاتور، قدم اقتراحاً يائساً:

على قيصر أن يغادر في هذا الليل المدينة سراً، ويحاول الهرب إلى برونديزيوم كي يصل على سفينة من هناكٍ إلى الاسكندريةِ وجيشه. ووعده أن يجهز له عربة ثيران. ـ كان قيصر مرتمياً في محفته، سانداً ظهره، ولم يرد عليه.

لكن راروس قرر أن يهيء للهروب. كان قد حلّ الشفق على روما الهائلة، المضطربة، العاجّة بالإشاعات، عندما وقف راروس عند البوابة الجنوبية يفاوض حرس البوابة: بعد منتصف الليل سوف تمر عربة ثيران دون تصريح بالمرور. ثم أعطى الحرس المفاوض كل النقود التي بحوزته: ثلاثمائة درهم بالضبط.

عند التاسعة ظهر راروس في الفندق عند آل سكابر. عانق لوسيليا، ثم طلب من الأسرة أن تدعه لوحده مع سكابر. بعدئذ تقدم نحو سكابر وسأله: ـ ماذا كنت تفعل من أجل قيصر لو لزم الأمر؟ فسأله سكابر: ماذا حدث بشأن تأجير الأرض؟ قال راروس: طوي الموضوع. وسأله سكابر: وطوي كذلك موضوع مرتبة النقيب؟ قال راروس: كذلك طوي موضوع مرتبة النقيب. ـ ولكنك ما زلت سكرتيراً عنده؟ ـ أجل. ـ وتلتقي به؟ ـ نعم. ـ ولا تستطيع أن تجعله يفعل شيئاً من أجلي؟ ـ لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً لأحد.. لقد انهار كل شيء، وغداً سيقتل مثل الجردون.. إذن، ماذا تريد أن تفعل من أجله؟

بحلق الرجل العجوز في راروس غير مصدق: قيصر العظيم انتهى؟ انتهى لدرجة أنه يحتاج إلى مساعدة تيرنتيوس سكابر؟ ثم سأله بصوت مبحوح: بماذا أستطيع أن أساعده؟ قال السكرتير بهدوء: لقد وعدته بعربتك.. عليك أن تنتظره منذ منتصف الليل عند البوابة الجنوبية. ـ لن يسمحوا لي أن أمر

بالعربة. ـ سيسمحون لك، لقد دفعت لهم ثلاثمائة درهم من أجل ذلك. ـ ثلاثمائة درهم، نقودنا؟ ـ نعم.

حدّجه العجوز بنظرة غاضبة تقريباً، ثم شاب نظرته الارتباك المتذمر لمن أمضوا نصف عمرهم في التدريب العسكري، وأشاح بوجهه متمتماً: ربما كان هذا تماماً مثل أية صفقة، فحالما يصبح خارجاً، سيستطيع الانتقام لنفسه.

لقد عاد إلى طبيعته: عاد إليه الأمل.

بالنسبة لراروس كان الأمر أصعب مع لوسيليا. فمنذ أن لقيها في روما لم ينفرد بها مطلقاً. و لم يقل لها، لا هو ولا أبوها، ما الذي كان يبعده عنها باستمرار في هذه الأيام. وها هي الآن تطلّع على ذلك. فخطيبها يعمل مع قيصر. هو المؤتمن الوحيد لدى حاكم العالم.

ولكن، ألا يستطيع أن يذهب معها لمدة ربع ساعة إلى الحانة في زقاق النحاسين؟ ألا يستطيع قيصر أن يدبر أموره لوحده مدة ربع ساعة؟

صحبها راروس إلى زقاق النحاسين. لكنهما لم يدخلا الحانة. فقد لاحظ راروس فجأة أنه مراقب من جديد: شخصان غامضان يتعقبانه منذ الصباح، أينما ذهب. وهكذا افترق الحبيبان عن بعضهما أمام الفندق. فذهبت لوسيليا إلى عند أمها تخبرها متهللة كم هو خطيبها قريب من قيصر العظيم، بينما حاول راروس دون جدوى أن يتملص من ملاحقيه.

وقبل منتصف الليل سوف يعلم، ماذا يعني أن يكون المرء قريباً من الجبابرة.

عند الساعة الحادية عشرة كان راروس ثانية في ساحة القصر.فصيلة من الزنوج كانت تحرس القصر. أغلب الجنود سكارى.

في غرفته الصغيرة خلف المكتب أخذ راروس يبحث بشكل محموم عن ذلك الملف الذي كان المصرفي الاسباني قبل يوم قد حمّله إياه إلى قيصر. قيصر لم يقرأه وقتذاك. في هذا الملف توجد أسماء المتآمرين. لقد وجدهم جميعاً: بروتوس، كاسيوس، جميع أولاد الذوات[1] في روما، وكثيرون منهم كان يعتبرهم قيصر أصدقاءه.على قيصر أن يقرأه من كل بد، هذه الليلة. وهذا ما سوف يجعله يقصد عربة تيرنتيوس سكابر.

حمل الملف ومضى. الممرات كانت نصف معتمة، من الأجنحة الأخرى كان ينبعث غناء السكارى. على مدخل الردهة وقف للحراسة إثنان من الزنوج العمالقة. لم يريدا السماح له بالمرور. و لم يفهما ما يقوله لهما.

حاول باتجاه آخر، فالقصر ضخم، لكن هنا أيضاً الحرس من الزنوج ولا يمكن المرور. حاول إلى الممرات والجنينات التي يمكن الوصول إليها من خلال تسلق النوافذ، لكن كل شيء كان مسدوداً في وجهه.

عاد منهكاً إلى غرفته، وقد بدا له أنه قد رأى ظهر رجل في الممر بعيداً تحت. لقد كان أحد ملاحقيه. تملكه الخوف، فاندفع إلى داخل غرفته وأوصد الباب. لم يشعل النور ونظر من النافذة إلى الفناء. كان هناك أمام نافذته ملاحقه الثاني. تصبب منه عرق بارد.

جلس طويلا في الغرفة المظلمة، متنصّتاً. مرة دُقّ الباب. لم يفتح راروس. فلم ير الطارق الذي انصرف بعد قليل من الانتظار أمام بابه: كان قيصر.

---

١) انظر الحاشية السابقة

منذ منتصف الليل أوقف تيرنتيوس سكابر عربته أمام البوابة الجنوبية. لـز يخبر المحارب القديم أسرته سوى بأن عليه أن يقوم بسفرة خــارج روما لمـدة يومين. على لوسيليا وأمها أن يذهبا إلى راروس الذي سوف يرعاهما.

غير أنه في تلك الليلة لم يأت أحد إلى البوابة الجنوبية كـي يستقل عربـة الثيران.

في الصباح الباكر من ١٥ آذار أُعلم الديكتاتور بأن سكرتيره قـد اغتيـل ليلاً في القصر. قائمة أسماء المتآمرين اختفت. وقيصر سوف يلتقي قبل الظهـر بحاملي تلك الأسماء في مجلس الشيوخ وسوف يسقط تحت خناجرهم.

عربة ثيران يقودها جندي قديم وفلاح مُهجّر كـانت تكـرج عـائدة إلى فندق في الضاحية،حيث كانت أسـرة صغـيرة تنتظـر،أسـرة يديـن لهـا قيصـر العظيـم بثلاثمائة درهـم....

* * *

معطف الهرطوق

جيوردانوا برونو(*)، النولاني الأصل، الذي أمرت محكمة التفتيش في عام ١٦٠٠ باعدامه على المحرقة بتهمة الهرطقة، يعتبر على العموم رجلاً عظيماً، ليس فقط بسبب موقفه الشجاع تجاه محكمة التفتيش التي قال لها: "إنكم تنطقون حكمكم ضدي، وخوفكم ربما كان أشد من خوفي وأنا أسمعه". لو قرأ المرء كتاباته، وألقى فوق ذلك نظرة على الاخباريات عن موقفه العلني، فانه لن يرى فعلاً ما ينتقص من كونه رجلاً عظيماً، ومع ذلك فثمة قصة قد تزيد أكثر من تقديرنا له. إنها قصة معطفه.

قبلئذ علينا أن نعرف كيف وقع في أيدي محكمة التفتيش.

(*) جيوردانو برونو: فيلسوف ايطالي نهضوي، ولد عام ١٥٤٨ في نولا وتوفي في ١٦٠٠/٢/١٧ في روما. كان في البدء دومينيكانياً، لكنه ترك بعدئذ هذه الأخوية وأصبح خصماً للمعتقدات السائدة. بسبب اتهامه بالهرطقة، كان مضطراً لأن يعيش حياة التجوال في أوروبا (فرنسا، انكلترا، ألمانيا، بوهيميا، سويسرا). كان من الماديين أصحاب مذهب وحدة الوجود، متأثراً بكوبرنيكوس وفون كووس.

ثري من البندقية، اسمه موسينيغو، دعا العلاّمة إلى منزله كي يعطيه درساً في الفيزياء وفن التذكّر. استضافه مدة شهرين، ونال مقابل ذلك الدروس المتفق عليها. ولكن، بدلاً من أن يتعلم السحر الأسود، الذي كان يرجوه، تلقى تعليماً في الفيزياء فحسب. هكذا ندم على المصاريف التي تحملها من هذا الضيف. وكان قد أنذره عدة مرات بجدية بأن يمده آخر الأمر بالمعارف السرية والمدرّة التي لابد أن رجلاً بهذه الشهرة يملكها. وعندما لم يفده ذلك، وشى به خطياً إلى محكمة التفتيش. كتب لهم، إن هذا الإنسان السيء والجاحد تكلم في حضرته بالسوء عن المسيح، وقال عن الرهبان بأنهم حمير ويجهّلون الشعب، وزعم فوق ذلك أنه يوجد، خلافاً لما جاء في الكتاب المقدس، ليس فقط شمساً واحدة، بل عدد لايحصى من الشموس الخ الخ. ولذلك فانه هو موسينيغو، قد احتجزه في حجرة تحت السطح، والرجاء، أن ترسلوا بأسرع ما يمكن من يحضره إليكم.

وقد جاء الموظفون فعلاً في منتصف ليل الأحد إلى الاثنين، وجلبوا العلاّمة إلى سجن محكمة التفتيش. حدث هذا يوم الاثنين في ٢٥ أيار ١٥٩٢، الساعة ٣ باكراً، ومنذ هذا اليوم إلى اليوم الذي اعتلى فيه كومة الحطب، وذلك في ١٧ شباط ١٦٠٠، لم يخرج العلامة النولاني من السجون.

خلال الثماني سنوات التي استغرقتها هذه القضية الرهيبة، كان يناضل دون كلل أو ملل في سبيل حياته، ولعل النضال الذي خاضه في السنة الأولى في ابندقية ضد تسليمه لروما كان هو الأكثر بأساً.

في ذلك الوقت حدثت قصة المعطف.

ففي شتاء ١٥٩٢، وكان ما يزال يسكن في أحد الفنادق، فصّل عند خياط يُدعى جبرائيل شونتو معطفاً سميكاً. وعندما جرى اعتقاله، لم يكن قد دفع ثمنه بعد.

عندما سمع الخياط بالاعتقال، هرع إلى منزل السيد موسينيغو في منطقة القديس صموئيل ليقدم إليه ورقة الحساب. لكنه جاء متأخراً. أحد خدم السيد موسينيغو طرده:"لقد دفعنا ما فيه الكفاية لهذا المحتال". هكذا صرخ في وجهه وهو على العتبة، بحيث لفت نظر بعض المارة، وقال له:"لعلك تذهب إلى محكمة الإدارة الكنسية وتقول هناك إن لك أية علاقة مع هذا الهرطوق".

وقف الخياط مرعوباً في الشارع. جمع من أولاد الأزقة استمع إلى كل ما جرى. واحد منهم، وهو بلعوص رث الثياب، وجهه مليء بالبثور، رماه بحجر. وخرجت من أحد الأبواب امرأة في ملبس زري وكالت له صفعة. إزاء ذلك شعر شونتو، وهو الرجل العجوز، بأنه من الخطورة أن يكون للمرء "أية علاقة مع هذا الهرطوق". وهكذا انصرف، وهو يتلفت بوجل، وانعطف عند أول زاوية للشارع، وذهب إلى بيته سالكاً أطول طريق. ولم يحدث زوجته بأي شيء عن مصيبته، فبقيت هي طوال اسبوع مستغربة حالة الانقباض التي وقع فيها.

غير أنها في أول حزيران اكتشفت لدى تصفية الفواتير، أن ثمة معطفاً لم تُسدد قيمته، من قبل رجل اسمه على كل شفة، فقد كان النولاني حديث المدينة. كانت تسري أفظع الشائعات عن سوئه. فهو لم يكتف بتمريغ الزواج الشرعي بالوحل، في الكتب كما في الأحاديث، بل حتى أنه رمى المسيح نفسه بالشعوذة، وقال أشياء جنونية عن الشمس. فليس عجباً إذن أن لا يدفع ثمن معطفه. لم يكن لدى المرأة الطيبة أقل رغبة في أن تتحمل هذه

الخسارة. وبعد شجار عنيف مع زوجها ذهبت المرأة ذات السبعين عاماً بثياب الأحد إلى بناء الإدارة الكنسية وطالبت بوجه عابس بالإثنين وثلاثين سكودياً التي يدين لها بها الهرطوق المعتقل.

سجل الموظف الذي كلمته مطلبها ووعدها بأن يتقصّى الأمر.

بعد فترة تلقى شونتو استدعاء للحضور، فحضر إلى البناء المخيف مرتجفاً مرتعد الفرائص. وقد أثار عجبه أنه لم يخضع للاستجواب، بل جرى إبلاغه بأنه لدى تسوية الأمور المالية للمعتقل سوف يؤخذ مطلبه بعين الاعتبار. على أن الموظف ألمح إليه بأنه لن يتأتى عن ذلك الكثير.

كان الرجل العجوز في غاية السعادة بأنه خرج من ذلك سالماً، بحيث أنه انحنى بخضوع شاكراً. لكن زوجته لم تكن راضية. فلتغطية الخسارة لم يكن يكفي أن يتخلى زوجها عن كأسه المسائية وأن يبقى حتى الليل وهو يخيط الملابس. هناك ديون لتاجر القماش، ويجب أن تُدفع. وأخذت تصرخ في المطبخ وفي الفناء، بأنه من العار أن يلقى القبض على مجرم قبل أن يسدد ديونه. وهي ستذهب إن لزم الأمر، إلى الحبر الأعظم في روما، كي تحصل على الاثنين وثلاثين سكودياً، حقها. وصرخت:" لن يحتاج إلى معطف على كومة الحطب".

قصّت على الخوري الذي تعترف عنده ما حدث لها. فنصحها بأن تطالب بأن يُعطى لهما المعطف على الأقل. وإذ رأت في ذلك اعترافاً بحقها من قبل سلطة كنسية، أعلنت بأنها لا تقبل بأي حال بالمعطف، إذ أنه لابد قد جرى استعماله، بالإضافة إلى أنه قد صنع حسب المقاس. يجب أن تحصل على النقود. بانفعالها ارتفع صوتها قليلاً، فألقى بها الكاهن خارجاً. وهذا ما أعادها إلى صوابها بعض الشيء، فبقيت بضعة أسابيع هادئة. ومرت فترة لم

يُسمع فيها من بناء محكمة التفتيش أي شيء حول قضية الهرطوق المعتقل. غير أنه كانت ثمة شوشرات في كل مكان بأن الاستجوابات استدعت ممارسات مخزية إلى أبعد حد. كانت العجوز تتشمّم هذه الجقجقات بنهم. وكان يعذّبها بأن تسمع أن قضية الهرطوق تسير بشكل سيء. عندئذ لن يطلق سراحه أبداً، ولن يستطيع دفع ديونه. فلم تعد تستطيع النوم. وفي آب، وقد أتلف القيظ أعصابها، ابتدأت في المحلات، حيث كانت تتسوّق، وأمام الزبائن الذين كانوا يأتون لتجريب ملابسهم، بعرض ظلامتها بلسان مهذار. وألمحت إلى أن الآباء الروحيين يقترفون خطيئة، عندما يفرغون بهذه اللامبالاة من مطاليب محقة لحرفي صغير. فالضرائب أصبحت مرهقة، والخبز قد عاد سعره مؤخراً إلى الارتفاع.

في أحد الصباحات أحضرها موظف إلى بناء الإدارة الكنسية، وهناك نبهوها بالحاح إلى ضرورة أن تتخلى عن ثرثرتها القبيحة. سألوها، ما إذا كانت لاتخجل من كونها بسبب بضع سكوديات تلوك بلسانها قضية روحية خطيرة. وقد أفهموها بأن لديهم تجاه أمثالها من البشر الوسائل الملائمة.

آتى هذا التحذير ثماره لبعض الوقت، وإن كان تفكيرها بقول ذلك الأخ المنتفخ السمنة "بسبب بضع سكوديات" يجعل في كل مرة حمرة الغضب تصعد إلى وجهها. لكن في أيلول سرى خبر بأن كبير المفتشين في روما طالب بتوريد النولاني. في سيغنوريا كانت تجري مداولات حول ذلك.

ناقش الأهالي بحمية طلب التوريد هذا، وكان المزاج عموماً ضد ذلك. فالأصناف الحرفية لم تكن تريد أن تعطي المحاكم الرومانية سلطة عليها.

استشاطت العجوز غضباً: أحقاً يريدون الآن ترك الهرطوق يذهب إلى روما، دون أن يكون قد سدد ديونه؟! إنها الذروة. وما أن سمعت بهذا الخبر العجيب، حتى هرعت، دون أن تعطي نفسها الوقت لكي تلبس ثوباً أفضل، إلى بناء الإدارة الكنسية.

استقبلها هذه المرة موظف ذو مرتبة أعلى، والغريب أنه كان متجاوباً معها أكثر من الموظفين السابقين. كان في عمرها تقريباً، واستمع بهدوء وانتباه إلى شكواها. وعندما أنهت كلامها سألها بعد استراحة قصيرة، ما إذا كانت ترغب في التحدث إلى برونو.

وافقت فوراً. فحددوا لها موعداً في اليوم التالي.

قبل ظهر اليوم الموعود دخل عليها في غرفة ضئيلة ذات نوافذ مشبوكة بالقضبان الحديدية رجل صغير نحيل بلحية خفيفة سوداء، وسألها بتهذيب عن مرادها. كان قد رأته سابقاً عند أخذ المقاس وحفظت بذاكرتها كل هذا الوقت صورة وجهه، لكنها الآن لم تتعرف إليه مباشرة. لابد أن مضايقات الاستجوابات قد غيّرته.

قالت بعجلة: "المعطف. أنت لم تدفع ثمنه".

نظر إليها بضع ثوان متعجباً. ثم تذكر وبصوت واهن سألها:" بكم أنا مدين لك؟".

قالت له: "باثنين وثلاثين سكودياً. قد استلمت ورقة الحساب".

استدار نحو الموظف البدين الذي كان يشرف على المقابلة وسأله، ما إذا كان يعلم، كم من النقود سلّم مع متاعه في بناء الإدارة الكنسية. لم يكن الرجل يعلم شيئاً عن ذلك، لكنه وعد بالتأكد منه.

بعدئذ التفت السجين إلى العجوز وسألها: كيف حال زوجك؟. وكأن القضية قد سارت في مجراها الآن، بحيث يمكن إقامة علاقات عادية واعتبار الأمر زيارة اعتيادية.

تمتمت العجوز وقد صُدمت بلطافة الرجل الصغير، بأنه في خير، حتى أنها أضافت شيئاً عن معاناته من الروماتيزم.

انتظرت يومين بعد ذلك، حيث بدا لها من اللائق أن تعطي السيد وقتاً من أجل القيام باستعلاماته، ثم ذهبت ثانية إلى بناء الإدارة الكنسية.

بالفعل، فقد سُمح لها أن تتحدث مرة أخرى إليه. وكان عليها أن تنتظر في الغرفة الضئيلة ذات النوافذ المشبوكة بالقضبان الحديدية أكثر من ساعة، لأنه كان وقتئذ في الاستجواب.

قدم اليها، وكان منهكاً. ولما لم تكن هناك كرسي، فقد استند قليلاً إلى الحائط. لكنه دخل فوراً في الموضوع.

قال لها بصوت ضعيف، إنه للأسف ليس في وضع يستطيع فيه أن يدفع ثمن المعطف. فبين متاعه لم تتواجد أية نقود. ومع ذلك لا داع لأن تفقد الأمل. لقد فكر في الأمر وتذكر أن مازال له نقود عند الرجل الذي طبع له كتاباً في مدينة فرانكفورت. سوف يكتب له إذا سُمح له. وسوف يسعى غداً من أجل الحصول على الأذن لذلك. لقد بدا له اليوم في الاستجواب، بأن الأمور ليست على مايرام. لذلك لم يرد أن يعرض طلبه ويفسد ربما كل شيء.

كانت العجوز تنظر إليه بعين ثاقبة وهو يتكلم. هي خبيرة بتحجّجات واستمهالات المديونين المقصّرين. فهم لا يُعيرون التزاماتهم أدنى اهتمام، وإذا مانحرهم المرء، يتظاهرون بأنهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها في سبيل ذلك.

سألته بجفاء: "لأي شيء تحتاج المعطف، إن لم يكن لديك المال لدفع ثمنه؟".

هز المعتقل برأسه، دلالة على أنه قد فهم ما ترمي إليه. أجابها:"كنت على الدوام أكسب المال، من الكتب ومن الدروس. ففكرت أنني سأكسب الآن أيضاً. واعتقدت بأنني سأحتاج إلىالمعطف، لأنني اعتقدت بأنني سأبقى أعيش حراً طليقاً".

قال هذا دون أية مرارة، من الواضح كي يرد عليها بالمثل.

قاسته العجوز بنظرها ثانية من فوق لتحت، وهي مليئة بالغضب، إنما بشعور أنها ليست نداً له. وبدون أن تتفوّه بكلمة، استدارت إلى الخلف وغادرت الغرفة.

"من ذا الذي سيبقى يرسل مالاً لرجل يخضع لمحكمة التفتيش؟". أسرّت العجوز بذلك إلى زوجها حانقة، عندما كانا في ذلك المساء مستلقين على الفراش. أما هو فقد أصبح الآن مطمئناً من موقف السلطة الروحية تجاهه، لكنه مع ذلك استنكر محاولات زوجته الدؤوبة كي تحصّل النقود. همهم قائلاً: " الآن لديه أشياء أخرى يفكر بها". فلم تقل هي شيئاً من بعد.

مضت الشهور التالية دون أن يحدث أي جديد في هذه القضية الثقيلة. أوائل كانون الثاني سرى خبر بأن سيغنوريا تنوي الاستجابة لرغبة البابا وتوريد الهرطوق. وبعدئذ جاء آل شونتو استدعاء للحضور إلى بناء الإدارة الكنسية.

لم تكن ساعة الحضور محددة، فتوجهت السيدة شونتو إلى هناك بعد الظهر. فكان مجيئها في وقت غير مناسب. إذ أن السجين كان ينتظر زيارة من مندوب الجمهورية الذي كان مطالباً من قبل سيغنوريا بأن يعد مطالعة

حول مسألة التوريد. استقبلها الموظف الكبير، الذي سبق أن رتب لها لقاء مع النولاني. قال لها هذا الشيخ، إن السجين يرغب بأن يتحدث إليها، لكن عليها أن تقدِّر، ما إذا كانت قد اختارت الوقت المناسب، نظراً لأن السجين مقبل مباشرة على مؤتمر في غاية الأهمية بالنسبة له.

قالت باقتضاب، ما عليهم سوى أن يسألوه.

فذهب أحد الموظفين وعاد مع السجين. وجرت المقابلة بوجود الموظف الكبير.

قبل أن يستطيع النولاني أن يتكلم بشيء، وكان قد ابتسم لها عند الباب، قذفته العجوز بقولها: " لماذا تسلك هذا السلوك، إذا كنت تريد أن تعيش حراً طليقاً؟".

للحظة بدا الرجل الصغير مندهشاً. فخلال هذه الربع سنة أجاب على أسئلة كثيرة جداً، وما كانت لتبقى في ذاكرته خاتمة مقابلته الأخيرة مع زوجة الخياط. قال أخيراً: "لم تردني نقود. كتبت مرتين من أجل ذلك، لكن لم يأت شيء. فكرت في نفسي، ماذا لو استرجعتم المعطف". قالت بازدراء:" كنت أعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. وهو مفصّل على المقاس، وصغير بالنسبة لأكثر الرجال".

نظر النولاني بألم إلى المرأة العجوز وقال:"هذا ما لم أفكر به". ثم التفت إلى الكاهن:"أليس من الممكن بيع كل متاعي واعطاء النقود لهؤلاء الناس؟".

تدخل الموظف الذي أحضره، وهو البدين، في الحديث قائلاً:"لن يكون هذا ممكناً. وسوف يعترض عليه السيد موسينيغو. فقد عشت طويلاً على حسابه".

رد النولاني متعباً: "هو الذي دعاني".

فرفع الشيخ يده: "هذا موضوع آخر. أظن أنــه مـن الضـروري ارجـاع المعطف".

قالت المرأة العجوز معاندة: "وماذا سنفعل به؟".

احمر وجه الشيخ قليلاً. وقال بتـؤدة:" أيتهـا السـيدة العزيـزة، قليـل مـن المسامحة المسيحية سيكون لائقاً بك. فالمتهم مقبـل على مقابلـة قـد تعـني لـه الحياة أو الموت. فلا يمكنك أن تطالبيه بأن يبذل كل هذا الاهتمام بمعطفك".

نظرت إليه العجوز مرتبكة. فقد تذكرت فجأة أين هـي الآن. ووازنت في نفسها، ما إذا كان عليها أن تنصرف. إذ ذاك سمعت السجين مـن ورائهـا بقول بصوت خافت: "إنها تستطيع، برأيي، أن تطالب بذلك".

وعندما التفتت إليـه أضـاف:" عليـك أن تعذريـني عـن كـل ذلـك. ولا تفكري بأي حال بأنني غير مبـال بخسـارتك. سـوف أكتـب معروضـاً بهـذا الشأن".

بإيماءة من الشيخ غادر البدين الغرفة. ثم عاد بعـد قليـل وبسـط ذراعيـه قائلاً: "المعطف لم يُسلّم أصلاً. لابد أن موسينيغو قد احتفظ به".

ارتاع النولاني بشكل ملحوظ ثم قال بحزم: "هـذا ليـس حقـاً. سـوف أشكوه".

هز الشيخ رأسه: "الأفضل لو أشغلت نفسك بـالحديث الـذي ستفضي بـه بعـد دقـائق. لايمكنـني أن أسمح أكـثر مـن ذلـك بشـجار حـول بضـع سكوديات".

صعد الدم إلى رأس العجوز. كانت صامتة أثناء حديث النولاني وتنظـر مبوزمة في زاوية من الغرفة. أما الآن فقد نفذ صبرها ثانية.

فصرخت: "بضع سكوديات! هذا دخل شهر كامل! سهل عليك أن تعظ بالمسامحة فأنت لن تخسر شيئاً".

في هذه اللحظة دلف من الباب راهب طويل القامة وقال بصوت نصف عال وهو ينظر مستغرباً إلى المرأة المجعجعة: "لقد وصل المندوب".

أمسك البدين بالنولاني من كمّه وقاده إلى الخارج. ونظر السجين من فوق كتفه الضيقة إلى المرأة، وبقي ينظر إليها أن تخطى العتبة. كان وجهه النحيف شديد الشحوب.

نزلت العجوز مشوشة الفكر على الدرج الحجري للبناء. لم تدر كيف تحكم على الرجل. على كل فعل استطاعته.

بعد اسبوع، عندما أحضر البدين المعطف، لم تكن هي في المشغل. لكنها استرقت السمع من الباب، فسمعت الموظف يقول: "لقد بقي فعلا كامل الأيام الأخيرة مهتماً بالمعطف. أعدّ معروضين، في الزمن ما بين الاستجوابات والمقابلات مع سلطة المدينة، وعدة مرات طلب مقابلة من أجل هذه القضية مع السفير البابوي. وقد حقق مايريد. فتوجب على موسينيغو أن يسلّم المعطف. علماً أنه في أمسّ الحاجة إليه، إذ سيجري توريده ويجب أن يغادر خلال هذا الاسبوع إلى روما".

وهذا ماحدث، وكان ذلك في نهاية كانون الثاني.

* * *

الاختبار

انتهت الحياة الوظيفية لفرانسيس بيكون(*) العظيم كأمثولة رخيصة للقول الخادع: "مال الحرام لايدوم". فقد ثبتت إدانته بالرشوة وهو في منصب كبير قضاة المملكة. ورمي به في السجن. وتعد سنوات تسنمه لمستشارية اللوردات، بما حفلت من أحكام بترخيص احتكارات ضارة وأوامر باعتقالات غير قانونية وفرض أحكام جائرة، من أكثر سنوات التاريخ البريطاني ظلاماً وعاراً. بعد انكشافه واعترافه كان لشهرته العالمية كانسانوي وفيلسوف أثر في انتشار أخبار جرائمه حتى خارج حدود المملكة.

(*) **Francis Bacon** فيلسوف ورجل دولة وحقوقي انكليزي، ولد عام ١٥٦١ وتوفي عام ١٦٢٦ في لندن. وقد بدأ هذا التحول الذي يتحدث عنه برشت في عام ١٦٢١. اعتبره ماركس الأب الحقيقي للمادية الانكليزية ولكافة العلوم التجريبية الحديثة. سياسياً كان من الأنصار المتشددين للحكم المطلق، ودينياً تبنى مذهب الحقيقة المزدوجة، تجنباً للاصطدام مع الكنيسة. انظر موسوعة ماير الجديدة، المجلد الأول، لايبزيغ ١٩٧٢، ص ٧٠٠.

كان قد أصبح شيخاً، عندما سمح له بمغادرة السجن والعودة الى عزبته. وهن جسمه من الجهد الذي بذله للايقاع بالآخرين، ومن المعاناة التي ألحقها به الآخرون عندما أوقعوا به. إلا أنه ما كاد يصل منزله، حتى انكبّ بهمّة على دراسة العلوم الطبيعية. لقد فشل في السيطرة على الناس، والآن يكرس ماتبقى لديه من قوة للكشف عن أفضل الطرق لسيطرة البشرية على قوى الطبيعة.

وقد ساقته أبحاثه، التي كرّسها للأشياء المفيدة، دائماً من جديد خارج حجرة الدراسة إلى الحقول والبساتين واسطبلات العزبة. فكان يتحدث الساعات الطوال مع البستانيين حول امكانيات تطعيم أشجار التفاح، أو يعطي الخادمات تعليمات عن كيفية قياس ما يُحلب من كل بقرة. إذ ذاك لفت نظره صبي الاسطبل. كان ثمة حصان أُصيب بمرض، فجعل الصبي يقدم للفيلسوف كل يوم تقريرين عن حالة الحصان. وذلك بدأب وقوة ملاحظة أبهجتا الشيخ.

غير أنه في أحد المساءات، عندما جاء إلى الاسطبل، رأى امرأة عجوزاً تقف إلى جانب الصبي وسمعها تقول له:" هو رجل سيء، فاحذره. ولو كان سيداً كبيراً ويملك نقوداً كالتبن، فهو يبقى سيئاً. هو معيلك، إذن أنجز عملك بدقة. لكن اعلم دائماً أنه سيء". لم يسمع الفيلسوف جواب الصبي، إذ استدار وعاد إلى المنزل. لكنه في اليوم التالي لم يلحظ عند الصبي أي تغيّر تجاهه.

عندما عادت للحصان صحته، سمح للصبي بمرافقته في كثير من مشاويره، وعهد إليه ببعض المهمات الصغيرة. ثم شيئاً فشيئاً اعتاد أن يتحدث معه حول بعض الاختبارات. إذ ذاك لم يختر بأي حال عبارات

يعتقد الكبار عموماً أنها مناسبة لادراك الأطفال، بل كان يتحدث إليـه كمـا يفعل مـع ذوي العلـم. كـان طـوال حياتـه يهتـم بصحبـة أصحـاب العقـول الكبيرة. ونادراً ما كـانوا يفهمونـه، ليـس لأنـه غـير واضـح، بـل لأنـه كـان واضحاً أكثر من المعتاد. لذلك لم يلـق بـالاً لمـا يمكـن أنـي سـببّه للصـبي مـن جهد، إنما كان يصحّح لـه بأنـاة، إذا مـا حـاول الصـبي بـدوره أن يسـتخدم العبارات الأجنبية.

كـان التمريـن الرئيسـي للصـبي يقـوم علـى وصـف الأشـياء الـتي يراهـا والعمليات التي يعايشها. وقد بيّن له الفيلسوف كم يوجد منها عبـارات وكـم منها ضروري كي يستطع المرء وصف الوضع لشيء من الأشياء بالشكل الذي يمكنه من إداركه نصف إدراك، وخاصة أن يتمكـن مـن معالجتـه بحسـب هـذا الوصف. كما بيّن له أنه توجد عبارات يُفضّـل أن لا يسـتخدمها المـرء، لأنهـا بالأساس لا تقول شيئاً، مثال ذلك: "جيد"، "سيء"، "جميل" وهلم جرا.

وسرعان ما أدرك الصبي، أنه ليـس ثمـة معنـى في أن يصـف الجعـل بأنـه "بشع". حتى وصفه بـ"السريع" ليس كافياً، بل على المرء أن يحدد، كم تبلـغ سرعة تحركه، بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى من حجمه، ومـا الـذي يمكّنـه من هذه السرعة. على المرء أن يضعه على سطحٍ مـائل وأملـس، وأن يحـدث ضجيجاً يدفعه إلى الهرب، أو أن يضع له طعماً صغيراً يمكـن أن يتوجـه إليـه. فإذا انشغل المرء به مـدة كافيـة، فانـه"سـرعان مـا يفقـد بشـاعته. في إحـدى المرات كان على الصـبي أن يصـف قطعـة خـبز كـان يمسـكها بيـده، عندمـا صادفه الفيلسوف. قال له:" هنا تستطيع وأنـت مطمئـن أن تسـتخدم كلمـة "جيد"، لأن الخبز مصنوع مـن أجـل أن يأكلـه الأنسـان، ويمكـن أن يكـون بالنسبة له جيداً أو سيئاً. أما تجاه الأشياء الأكبر، التي خلقتها الطبيعة، والتي لم

تخلق لغايات محددة سلفاً، بصورة خاصة ليس كي تستخدم من قبل البشر، فإنه من الحماقة أن يكتفي المرء بتلك العبارات". هنا فكر الصبي في كلمات جدّته عن سيده اللورد.

وحيث أن ما يجب إدراكه كان يصبّ دائماً في النهاية في أشياء محسوسة تماماً، فقد تقدم الصبي بخطوات سريعة في فهم أن الحصان تعافى من خلال الوسائل المستخدمة، وأن الشجرة تهلك بهذه الوسائل. وأدرك أيضاً، أنه يجب أن يبقى دائماً شيء من الشك المنطقي، في أن تكون الطرق المستخدمة هي فعلاً السبب في التغيّرات التي رصدها المرء. و لم يستوعب الصبي الأهمية العلمية لطريقة تفكير بيكون العظيم، إنما حفزّته النفعية الواضحة لكل تلك العمليات.

هكذا كان فهم الصبي للفيلسوف: زمن جديد قد أشرق. البشرية تزيد من معارفها. وكل معرفة تخدم زيادة الرخاء والسعادة الأرضية. يقود ذلك: العلم. فالعلم يدرس الكون، يدرس كل ما هو على الكرة الأرضية، من نباتات وحيوانات وتربة ومياه وهواء، كي يتمكن الانسان من الحصول على منافع أكثر منها. وليس ما يؤمن به المرء هو المهم، بل ما يعرفه. فقد كان الانسان يؤمن بأكثر من الكثير، ويعلم أقل من القليل. لذلك على المرء أن يختبر كل شيء، بيديه، وأن لايتحدث إلا بما رأته عيناه وبما يمكن أن يقدم منفعة.

ذلك كان المذهب الجديد الذي انضم اليه الناس أكثر فأكثر، وهم مستعدون ومتحفزون لأن يقوموا بالأعمال الجديدة. إذ ذاك لعبت الكتب دوراً كبيراً، رغم أنه وُجد الكثير من الكتب السيئة. وقد كان واضحاً للصبي، أن عليه أن يندفع نحو الكتب، إن أراد هو أن يكون من بين الناس الذين يقومون بالأعمال الجديدة.

بالطبع لم يصل الصبي أبداً إلى مكتبة المنزل. كان عليه أن ينتظر سيده اللورد أمام الاسطبلات. في الحالة القصوى أمكنه، إن مرت الأيام و لم يأت الشيخ، أن يلقاه مرة في الحديقة. غير أن حجرة الدراسة، التي كان مصباحها يشتعل ليلياً تلك الفترة الطويلة، كانت تثير فضوله بصورة متزايدة. و كان ثمة سياج في مقابل تلك الحجرة يستطيع منها الصبي أن يلقي نظرة على رفوف الكتب.

أخيراً قرر أن يتعلم القراءة. بالطبع لم يكن الأمر سهلاً. فعندما ذهب برغبته هذه إلى الواعظ، نظر إليه نظرته إلى عنكبوت على مائدة الفطور. سأله متأففاً: "أتريد أن تتلو الأنجيل على مسامع البقرات؟". وقد كان الصبي سعيداً أنه غادر دون لطمة على بوزه. كان عليه أن يختار طريقاً أخرى.

في موهف(*) كنيسة القرية كان يوجد كتاب الصلاة. و كان المرء يستطيع الوصول اليه بأن يتبرع بشدّ حبل جرس الكنيسة. فإذا أمكن معرفة الموضع الذي يترنم به الواعظ في الصلاة، فلا بدّ أن يكون ممكناً اكتشاف صلة بين الألفاظ والحروف. على أية حال بدأ الصبي يحفظ عن ظهر غيب الكلمات اللاتينية التي ينشدها الواعظ في الصلاة، بعضها على الأقل. بالطبع كان الواعظ ينطق الكلمات بشكل غير واضح، وكثيراً ما كان لايقرأ الصلاة. مع ذلك أصبح الصبي بعد زمن قادراً على أن يقلد الواعظ في ترنيم بضع بدايات صلواتية. في إحدى هذه التمارين فاجأه معلم الاسطبل وراء المخزن وأشبعه ضرباً، لأنه ظنه يتمسخر الواعظ. وهكذا أدركته الصفعات التي فاتته من قبل الواعظ.

---

*) غرفة المقدسات وملابس الكهنة في الكنيسة.

لم يكن الصبي قد تمكّن بعد من أن يحدد في كتاب الصلاة المواضع التي ينشدها الواعظ، عندما طرأت كارثة كبيرة هددت بتوقف مساعيه لتعلّم القراءة: لقد أصيب سيده اللورد بمرض مميت.

كانت صحته قد توعكت طيلة الخريف، و لم يكن قد تعافى في الشتاء، عندما قام بسفره على زلاجة مكشوفة إلى أرض له تبعد عدة أميال. وقتها سمح للصبي بأن يرافقها، فوقف هذا في الخلف على حافة الزلاجة إلى جانب مقعد الحوذي. كانت الزيارة قد انتهت، وتقدم الشيخ يرافقه المضيف ليركب الزلاجة، وإذ به يرى عصفوراً دورياً ملقى على الطريق وهو متجمّد. توقف في مكانه وقلب العصفور بعصاه. وسمعه الصبي الذي كان يهكع وراءه بكيس الماء الدافئ يسأل المضيف: ـ " منذ متى تظنه راقداً هنا؟". فكان الجواب:" من ساعة إلى أسبوع أو اكثر". وتابع الشيخ طريقه متفكراً، وودع مضيفه توديعة ساهية. وعندما انطلقت الزلاجة قال ملتفتاً نحو الصبي: مازال اللحم طرياً تماماً، ياديك.

قطعا مسافة من الطريق، بسرعة إلى حد ما؛ فالمساء كان قد أرخى بظلاله على الحقول المغطاة بالثلوج وأخذ البرد يزداد بسرعة. وهكذا حدث، عند المنعطف نحو بوابة القصر، أن دُهست دجاجة هاربة من الزريبة. كان الشيخ يراقب جهود الحوذي لتفادي الدجاجة المرفرفة، وعندما أخفقت المناورة، أمر بالتوقف، وانتزع نفسه من بين الأغطية والجلود ونزل عن الزلاجة. ورجع ـ رغم تحذيرات الحوذي من البرودة ـ مستنداً إلى ذراع الصبي إلى حيث ارتمت الدجاجة. كانت ميتة.

أوعز الشيخ للصبي بأن يشيل الدجاجة، وقال له آمراً:" انتزع منها الأحشاء!". فسأل الحوذي، وهو يتأمل سيده كيف يقف واهناً في مهبّ

الريح الباردة: " ألا يمكن القيام بذلك في المطبخ؟". أجاب: "لا، الأفضل هنا. بالتأكيد لدى ديك سكين، ونحن بحاجة إلى الثلج". فنفذ الصبي بما أُمر به. أما الشيخ، الذي يبدو أنه نسي المرض والبرد، فقد قرفص وتناول باجهاد ملء يده ثلجاً. وبعناية فائقة حشا جوف الدجاجة بالثلج.

أدرك الصبي المقصود، فأخذ يشيل الثلج ويناوله لأستاذه كي تمتلئ الدجاجة تماما. "بذلك يجب أن تبقى لأسابيع غير فاسدة. ضعوها على بلاطات باردة في القبو!" قالها الشيخ بحيوية، وعاد ماشياً إلى الباب، فقطع المسافة القصيرة منهكاً بعض الشيء، وقد استند بتثاقل على الصبي الذي حمل الدجاجة المحشوة بالثلج تحت ابطه. وعندما دخل البهو، اهتزّ من الصقيع. وفي صباح اليوم التالي أصيب بحمّى شديدة.

أخذ الصبي يحوص مهموماً يتنشق حيثما كان أي خبر عن حالة أستاذه. لم يعرف سوى القليل، بينما كانت الحياة في القصر تتابع سيرها كالمعتاد. إنما في اليوم الثالث حدث انعطاف. فقد طلبوه إلى غرفة العمل.

كان الشيخ متمدداً على لوح خشب ضيق، يعلوه الكثير من الأغطية، في حين كانت النوافذ مفتوحة، بحيث كان الجو بارداً. وبالرغم من ذلك بدا المريض مثل الجمرة. وبصوت متهدج استعلم عن حالة الدجاجة المحشوة بالثلج. أعلمه الصبي أنها تبدو كما كانت، غير فاسدة. فقال الشيخ مغتبطاً:" هذا جيد. عد لي بالأخبار بعد يومين!". بعد أن غادر الصبي، أحسّ بالندم لأنه ما حمل الدجاجة معه. وقد بدا له الشيخ أقل مرضاً مما كان الخدم يتناقلون.

كان قد بدل الثلج للدجاجة مرتين في اليوم كي تبقى غير فاسدة، عندما توجه من جديد إلى غرفة المريض. غير أن معيقات غير اعتيادية اعترضته. فقد قدم أطباء من العاصمة. وطنّ الممر بالأصوات الهامسة، الآمرة والمطيعة؛ وفي

كل مكان كان ثمة وجوه غريبة. أحد الخدم، وقد حمل وعاء مغطى بمنديل كبير إلى غرفة المريض، طرده بفظاظة. مرات عديدة، طيلة ما قبل الظهر وما بعده، قام بمحاولات غير مجدية للوصول إلى غرفة المريض. بدا له أن الأطباء الغرباء أرادوا الاقامة الدائمة في القصر، تخيّلهم طيوراً سوداء هائلة حطت على رجل مريض أصبح بلا مقاومة. عند المساء اختبأ في حجرة على الممر، حيث كان البرد شديداً. كان يرتجف باستمرار من الصقيع، لكنه رأى ذلك مناسباً، لأن الدجاجة (التي يحملها) يجب أن تبقى من كل بدّ باردة.

أثناء طعام العشاء انحسر المد الأسود بعض الشيء، وتمكن الصبي من الانسلال إلى غرفة المريض. كان المريض وحيداً، الجميع على مائدة الطعام. إلى جانب السرير الصغير كان هناك مصباح قراءة بمظلة خضراء. كان وجه الشيخ منقبضاً بشكل غريب ويظهر عليه شحوب شمعي. عيناه مغلقتان، لكن يديه تتحركان بقلق على الغطاء القاسي. في الغرفة كانت الحرارة مرتفعة، والنوافذ مغلقة.

تقدم الصبي بضع خطوات نحو السرير، وقال بضع مرات بصوت خافت:"سيدي اللورد". لم يتلق جواباً. إنما بدا أن المريض لم يكن نائماً، فشفتاه كانتا تتحركان نحو الأسفل، كما لو كان يتكلم. قرر أن يثير انتباهه، لاقتناعه بأهمية تعليماته التالية بخصوص الاختبار. غير أنه أحسّ، قبل أن يلمس الغطاء ـ وكان قد وضع العلبة التي حمل فيها الدجاجة على إحدى الأرائك ـ ، بأحد قبض عليه من الخلف وسحبه إلى الوراء. كان ثمة رجل سمين بوجه مكفهرّ ينظره كما لو كان مجرماً. وبكل وعي انتزع الصبي نفسه من بين يديه، وتناول بحركة خاطفة العلبة، واندغر نحو الباب خارجاً.

في الممر بدا له أن رئيس الخدم قد رآه فيما كـان يصعد الـدرج. شـيء سيء. فكيف سيبرهن له انه جاء بناء على أمر سيده اللورد، من أجل إتمام اختبار هام؟ هذا، بينما الشيخ واقع تماماً تحت سلطة الأطباء. إلى ذلـك تشـير النوافـذ المغلقـة في غرفتـه. وبـالفعل، رأى خادمـاً يقطـع الحـوش متجهـاً نحـو الاسطبل. لذلك تخلى عن عشائه وانحشر مختبئاً بين الأعلاف، بعـد أن وضـع الدجاجة في القبو.

شعوره بأنهم يبحثون عنه، جعـل نومـه قلقـاً. ومـا خـرج مـن مخبئـه في صباح اليوم التالي إلا بعد تردد طويل. لكـن، لا أحـد أعـاره اهتمامـاً. رغلـة مخيفة كانت تسود في المزرعة. لقد توفي سيده اللورد عند الفجر.

قضى الصبي كل نهـاره وهـو يحوص، كمـا لـو أن ضربـة علـى الـرأس دوخته، شعر أنه لن يستطيع أبداً التغلب علـى ألمـه بفقـدان أستاذه. وعندمـا نزل العصر إلى القبو بطشت مليء بالثلج، تحول غمّـه لمـوت أسـتاذه إلى غـم على الاختبار الذي لم ينته، وسكب الدموع فـوق العلبـة. إلام سيؤول هـذا الاكتشاف العظيم؟. وفيما هو متوجـه إلى القصـر ـ أحـسّ بقدميـه ثقيلتـين لدرجة أنه التفت ينظر مواطن قدميه في الثلج ما إذا كانت أعمق من العادة ـ، تبين له أن الأطباء اللندنيين لم يغادروا بعد. زلاجاتهم كانت ما تزال هنا.

بالرغم من نفوره من هؤلاء الأطبـاء، قـرر الصـبي أن يكشـف لهـم سـر الاكتشاف. فهم رجال علم، ويجب أن يدركـوا أهميـة الاختبـار. فجلـب العلبة الصغيرة وفيها الدجاجة المثلجة ووقف وراء البئر، مختبئاً، إلى أن مر أحد السادة، وكان ذا قامة قصيرة لا يزرع في النفس الكثير من الرعب. تقدم إليـه مبرزاً العلبة. في البدء لم تخرج الكلمات من حلقـه، إنمـا بعدئـذ تمكـن مـن أن يعبّر له بجمل غير مترابطة عن مراده:"سـيدي اللـورد وجدهـا قبـل سـتة أيـام

ميتة. حشوناها بالثلج. قال سيدي اللورد أنها يمكن أن تبقى غير فاسدة. انظروا بأنفسكم! إنها ما تزال غير فاسدة".

بحلق قصير القامة متعجباً في العلبة، ثم سأله: "وماذا بعد؟". — "إنها لم تفسد"، قال له الصبي. - "كذا!"، قال قصير القامة. - "انظروا بأنفسكم!"، قال الصبي بالحاح. - "إني أنظر"، قال قصير القامة وهو يهز رأسه. وتابع سيره وهو يهز الرأس. أتبعه الصبي بنظرة إحباط. لم يستطع أن يفهم هذا القصير القامة. ألم يجلب الشيخ الموت لنفسه بنزوله في البرد وقيامه بالاختبار؟ بذات يده تناول الثلج من على الأرض. هذه حقيقة.

رجع الصبي ببطء إلى باب القبو، لكنه مكث مدة قصيرة أمامه واقفاً، ثم تحول عنه بسرعة وركض إلى المطبخ. وجد الطباخ مشغولاً جداً، فقد كان يعد طعام العشاء للمعزّين القادمين من الجوار. "ماذا تريد بهذا الطير؟"، زمجر الطباخ مزعوجاً، "إنه متجمّد تماماً!". قال الصبي: "هذا لا يهمّ، سيدي اللورد قال، هذا لايهم". بحلق الطباخ فيه لحظة وهو سارح الذهن، ثم ذهب بوقار نحو الباب وفي يده مقلاة كبيرة، لاشك كي يرمي بشيء. لحق به الصبي بلهفة ومعه العلبة. وسأل الطباخ راجياً: " ألا يمكن أن نجرّب؟". إذ ذاك نفذ صبر الطباخ. فقبض بيديه القويتين على الدجاجة ورمى بها إلى الحوش. وصرخ غاضباً: "أما في رأسك شيء آخر؟! وسيادة اللورد ميت!". بغضب تناول الصبي الدجاجة من على الأرض وانسلّ بها مبتعداً.

كان اليومان التاليان مشغولين بمراسم الدفن. وكثر الطلب على الصبي لربط العربات بالأحصنة وفكها عنها. وكان يكاد أن ينام بعينين مفتوحتين، عندما كان فوق ذلك يضع في الليل ثلجاً جديداً في العلبة. بدا له كل شيء بلا جدوى. لقد انتهى العصر الحديث.

لكن في اليوم الثالث، يوم الدفن، وقد تنشط بالاغتسال وارتدى أفضل ما عنده، شعر بتحول في مزاجه. كان الطقس شتائياً منعشاً جميلاً، والأجراس تقرع من القرية. امتلأ بأمل جديد، فذهب إلى القبو وتأمل طويلاً وباهتمام الدجاجة الميتة. لم يستطع أن يرى أي أثر للفساد عليها. وبرفق وضع الحيوان في العلبة ملأها بثلج أبيض نقي، وحملها تحت ذراعه يمم وجهه شطر القرية.

دخل الصبي وهو يصفّر مبتهجاً إلى عند جدته في المطبخ الواطئ. كانت هي التي ربّته، إذ مات أبواه باكراً، فكانت موضع ثقته. وجعل، قبل أن يريها ما في العلبة، يحدثها عن اختبار سيده اللورد، الذي كانت العجوز للتو قد لبست لحضور دفنه. استمعت إليه بصبر، ثم قالت: "لكن هذا معروف. فهم يتجمدون في البرودة ويحافظون على انفسهم زمناً. مالغريب في الأمر؟". أجابها الصبي وهو يحاول جهده أن يظهر بمظهر اللامبالي: " أظن أنه يمكن أكلها". ـ "أكل دجاجة ميتة منذ أسبوع؟ لكنها سامة!". ـ "لماذا؟ لم تتغيّر منذ موتها؟ ثم إن زلاجة سيدي اللورد هي التي قتلتها، إذن كانت سليمة". قالت العجوز وقد قلّ صبرها قليلاً: "ولكنها في الباطن سامة، في الباطن". قال الصبي باصرار، وعيناه على الدجاجة: "لاأعتقد، في الباطن كان هناك ثلج طيلة الوقت. أظن أني أستطيع طبخها".

انزعجت العجوز، وقالت له حاسمة الأمر: "أنت تأتي معي إلى الدفن. أعتقد أن سيادة اللورد قد فعل ما يكفي من أجلك كي تسير باحترام وراء نعشه". لم يجبها الصبي. وفيما كانت تعقد المنديل الصوفي الأسود حول عنقها، تناول الدجاجة من بين الثلج، ونفخ الآثار الأخيرة منه عليها، ووضعها على قطعتي حطب أمام الموقد. كان يجب أن يذوب الثلج الباقي.

و لم تعد العجوز تنظر إليه. وعندما أصبحت جاهزة، أمسكت بيده، وجرّته معها نحو الباب إلى الخارج.

سار معها بعض المسافة طائعاً. كان هناك المزيد من الناس في طريقهم إلى المقبرة، رجال ونساء. فجأة أطلق صرخة ألم. لقد انغرزت قدمه في قطعة جليد. فسحبها بوجه منقبض، وعرج إلى حجر وجلس عليها وهو يدلّك قدمه. قال: "التوت قدمي". نظرت إليه العجوز مرتابة وقالت له: "تستطيع أن تجري جيداً". قال متكدراً: "لا، وإذا كنت لاتصدقيني، بامكانك أن تجلسي إلى جانبي، إلى أن تتحسن".

جلست العجوز إلى جانبه دون أن تتفوّه بكلمة. ومضت ربع ساعة، وأهالي من القرية يمرون بهما، إنما بالطبع دائماً أقلّ. وقبع الإثنان متعاندين على حافة الطريق. قالت العجوز بعدئذ بجديّة: "ألم يعلمك بأن لاتكذب؟". لم يجبها الصبي. فانتصبت العجوز وهي تتنهد. لم تعد تحتمل البرد. ثم قالت له:"إذا لم تتبعني خلال عشر دقائق، فسوف اخبر أخاك، وسوف يشبع قفاك ضرباً". وتابعت مشيتها المترجرجة بعجلة كي لا تفوتها خطبة الدفن.

انتظر الصبي حتى أصبحت بعيدة كفاية، ونهض ببطء. ثم عاد أدراجه، إنما وهو يتلفت مراراً إلى الوراء ويعرج كذلك لمسافة. وعندما حجبه سياج عن العجوز، عاود المشي كالمعتاد.

في الكوخ قعد إلى جانب الدجاجة وهو يتطلع إليها بشوق. سوف يسلقها في قدر ويأكل جانحاً منها. عندئذٍ سيرى ما إذا كانت سامة أم لا.

وكان ما يزال قاعداً عندما سمع من بعيد ثلاث طلقات مدفعية. لقد أُطلقت تكريماً لفرنسيس بيكون، بارون فيرولام، فيكونت سانت ألبن،

مستشار لوردية انكلترا سابقاً، الذي أثار الاشمئزاز في الكثيرين من معاصريـه، إنما أثار في الكثيرين أيضاً الحماس للعلوم النفعية.

* * *

دائرة الطباشير الأوغسبورغية

في زمن حرب الثلاثين(*) كان هناك بروتستانتي سويسري اسمه تسينغلي يملك مدبغة كبيرة مع متجر للجلود في المدينة الملكية الحرة أوغسبورغ على نهر الليش. كان متزوجاً بامرأة أوغسبورغية، وله طفل منها. وعندما زحف الكاثوليك على المدينة نصحه أصدقاؤه وألحوا عليه بالهروب. لكنه، ربما أعاقته أسرته الصغيرة، ربما لم يرد التخلي عن مدبغته، على كل لم يحسم أمره بالرحيل في الوقت المناسب.

وهكذا، عندما اقتحمت القوات القيصرية المدينة، كان هو مايزال فيها، فلما جرى السلب والنهب مساء، اختبأ في حفرة في الحوش، حيث تحفظ الأصباغ. وكان علي زوجته أن ترحل مع طفلها إلى أقربائها في الضاحية، لكنها استغرقت وقتاً طويلاً في ضبّ أشيائها وملابسها وزينتها وفرشها. وهكذا رأت فجأة من نافذة الطابق الأول فصيلاً من الجنود القيصريين

---

*) بدأت في عام ١٦١٨ وانتهت في عام ١٦٤٨ وأوغسبورغ هي مدينة الأديب.

يقتحمون الحوش. فتركت من ذعرها كل شيء في موضعه وهرعت هاربة عبر الباب الخلفي.

وهكذا خلّفت الطفل وراءها في البيت. وكان في مهده في البهو يلعب بكرة خشبية معلّقة بخيط من السقف.

لم يكن قد بقي في المنزل سوى خادمة صبية. كانت في المطبخ تتعاطى مع النحاسيات، عندما سمعت ضجّة قادمة من الزقاق. اندغرت إلى النافذة، فرأت كيف يرمي الجنود بالغنائم من الطابق الأول للمنزل قبالتها إلى الزقاق. ركضت إلى البهو تريد أن تتناول الطفل من مهده، لكنها سمعت ضجيج ضربات عنيفة على الباب السندياني. تملكها الذعر، فصعدت بسرعة على الدرج.

امتلأ البهو بالجنود السكارى الذين كانوا يحطمون كل ما يصادفونه. كانوا يعلمون أنهم موجودون في بيت بروتستانتيّ. وبما يشبه المعجزة بقيت الخادمة أنّا أثناء التفتيش والنهب غير مكتشفة، وانسحب الفصيل، فنبقت أنّا من الخزانة، حيث كانت مختبئة. إذ ذاك وجدت الطفل في البهو لم يمسّه أحد. وبعجلة تناولت الطفل وانسلّت خارجة عبر الحوش. في هذه الأثناء كان الليل قد حلّ، لكن الضوء الأحمر لبيت يحترق بالقرب، أنار الحوش، فلمحت مذعورة الجثة المشوهة لصاحب البيت. لقد سحبه الجنود من حفرته وقتلوه.

في تلك اللحظة أدركت الخادمة الخطر الذي ستلاقيه، إن قُبض عليها في الطريق مع الطفل البروتستانتي. فأعادته بقلب محزون إلى مهده، وأعطته شيئاً من الحليب ليشربه، هدهدته حتى نام ومضت في طريقها إلى الحي الذي تقطنه أختها المتزوجة. في الساعة العاشرة ليلاً تسلّلت مصحوبة من زوج

أختها، عبر حومة الجنود المحتفلين بالنصر، كي تبحث في الضاحية عن السيدة تسينغلي، أم الطفل. طرقا على باب بيت ضخم، فانفتح قليلاً بعد طول وقت. ومدّ رأسه رجل عجوز صغير، هو عم السيدة تسنغلي. فأخبرته أنّا وهي تلهث، بأن السيد تسينغلي مات، إلا أن الطفل ما زال سليماً معافى في البيت. نظر العجوز إليها بعينيه السمكيتين ببرود وقال إن ابنة أخيه لم تعد هنا، وإنه شخصياً لا علاقة له بالبروتستانتي ابن الحرام. ثم أغلق الباب ثانية. عند الانصراف رأى صهر أنّا، كيف تحركت ستارة إحدى النوافذ، وتوصل للقناعة بأن السيدة تسينغلي كانت موجودة. يبدو أنها لم تخجل من إنكار طفلها.

لبعض الوقت سارت أنّا وصهرها جنباً إلى جنب صامتين. ثم صرّحت له بأنها تريد الرجوع إلى المدبغة وإحضار الطفل. ارتعب الصهر لسماع ذلك، هوالرجل الهادئ المستقيم، وحاول أن يصرفها عن الفكرة الخطيرة: ماعلاقتها بهؤلاء الناس؟ حتى أنهم ما كانوا يعاملونها بطيبة. استمعت أنّا إليه بهدوء ووعدته بأن لاتقوم بعمل طائش. إنما تريد فقط ومن كل بدّ أن تلقي نظرة سريعة في المدبغة، ما إذا كان ينقص الطفل شيء. ثم إنها تريد الذهاب وحدها.

ونفذت أنّا مرادها. في وسط الصالة المخربة استلقى الطفل في مهده نائماً بهدوء. فجلست متعبة إلى جانبه وجعلت تتأمله، ولم تجرأ على إشعال النور. غير أن البيت في القرب كان مايزال مشتعلاً. وبهذا الضوء أمكن لها أن ترى الطفل جيداً. كانت له شامة صغيرة على العنق.

مرّ بعض الوقت، ربما ساعة، والخادمة تتأمل الطفل، كيف يتنفس ويمص قبضته الصغيرة، ثم أدركت أن هذا الجلوس الطويل والفرجة الزائدة لا

يدلّ على أنها تستطيع الانصراف دون الطفل. فوقفت بتثاقل، وبحركات بطيئة لفته بحرام كتاني، وشالته على ذراعها، وغادرت معه الحوش، وهي تتلفت متخوفة، مثل شخص يشعر بالذنب، مثل لصة.

بعد ذلك باسبوعين، نتيجة مشاورات طويلة مع أختها وصهرها، أخذت الخادمة الطفل إلى الريف، إلى قرية غروس ـ أيتنغن، حيث يعيش كفلاح أخوها الأكبر منها. فالمزرعة تخص زوجته، وهو مجرد زوج. فكان الاتفاق أنه ربما من الأفضل أن لاتقول إلا لأخيها من هو الطفل، فهم لم يلتقوا أبداً بزوجته الفلاحة الشابة وما كانوا يعلمون كيف ستستقبل ضيفاً صغيراً خطيراً بهذا الشكل.

وصلت أنّا ظهراً إلى القرية، فيما كان أخوها وزوجته والأجراء يجلسون إلى طعام الغداء. لم يكن الاستقبال سيئاً، لكن نظرة منها على زوجة أخيها جعلتها مباشرة تقدم الطفل على أنه طفلها. وبعد أن روت بأن زوجها يعمل في طاحونة في قرية بعيدة وأنه ينتظرها هناك مع الطفل خلال أسبوعين، عندئذ فقط انبسطت أسارير الفلاحة وجرى كالعادة التعبير عن الإعجاب بالطفل.

بعد الظهر رافقت أخاها إلى الغابة لجلب الحطب. جلسا على قرمتي شجر، وأفضت أنّا بسرّها. كان واضحاً لها انه لم يشعر بالسرور. مكانته في المزرعة لم تكن قد رسخت بعد، فأثنى على أنا لأنها كتمت الخبر عن زوجته. من الواضح أنه لم يكن يتوقع من زوجته الشابة موقفاً أريحياً تجاه الطفل البروتستانتي. لذلك أراد أن يبقي السر محجوباً عنها.

غير أن هذا لم يكن سهلاً مع الزمن. كانت أنّا تشارك في العمل الزراعي، وترى "طفلها" خلال ذلك، بأن تجري من الحقل إلى البيت في

الوقت الذي يستريح فيه الآخرون. وترعرع الصغير، حتى أنه سمن، وكان يضحك كلما رأى أنّا، ويحاول جاهداً أن يرفع رأسه.

لكن، من ثم جاء الشتاء، وبدأت زوجة الأخ تستعلم عن زوج أنّا: لم يكن هناك مانع في ان تبقى أنّا في المزرعة، فهي تستطيع أن تكون مفيدة. المشكلة في الأمر هي أن الجيران سوف يستغربون من والد طفل أنّا أنه لا يأتي أبداً لرؤيته. فإذا لم تستطع أن تقدم علناً أباً لطفلها، فإن المزرعة ستتناولها ألسنة الناس قريباً.

وفي صباح يوم من الآحاد جهزّ الفلاح العربة وأمر أنّا أن ترافقه لاحضار عجل من القرية المجاورة. مع قرقعة العربة على الطريق اعلمها أنه بحث لها عن زوج وأنه وجده. كان مزارعاً صغيراً، شديد المرض؛ عندما دخل الاثنان كوخه الواطئ، لم يستطع أن يرفع رأسه النحيل عن الملاءة القذرة. لقد رضي أن يتزوج أنا. في صدر الكوخ وقفت عجوز صفراء اللون، هي أمه. لقد وعدوها بتعويض عن الخدمة التي تقدمها لأنّا.

تمت الصفقة خلال عشر دقائق، وأمكن لأنّا وأخيها أن يتابعا المسير ويزاودا على شراء العجل. في نهاية الأسبوع نفسه تم الزفاف. وفيما كان الكاهن يتمتم بعبارات عقد القران، لم يلق المريض مرة واحدة نظرة من نظراته الزجاجية على أنّا. فلم يشك أخوها بانها ستحصل خلال أيم قليلة على شهادة الوفاة. عندئذ سيقال بأن زوج أنّا ووالد طفلها قد توفي في طريقه إليها، في مكان ما من قرية قرب أوغسبورغ. بالتالي لن يستغرب أحد إذا ما بقيت الأرملة في بيت أخيها.

عادت أنّا سعيدة من عرسها الغريب، الذي لم يكن فيه لاقرع أجراس ولا موسيقى، لاصبايا ولاضيوف. واقتصرت وليمة زواجها على تناول قطعة

خبز مع شريحة لحم في حجرة الطعام. ثم وقفت مع أخيها أمام الصندوقة حيث يرقد الطفل، الذي أصبح له الآن اسم. وضبّت اللحاف جيداً، وضحكت لأخيها.

غير أن شهادة الوفاة تأخرت. فلم يأت خبر من الأم العجوز بالوفاة، لا في الاسبوع الأول ولا الذي بعده. في المزرعة كانت أنّا تقول، إن زوجها في طريقه إليها. ثم صارت تقول، إذا سألها أحد عن سبب تأخره، إن تراكم الثلوج قد أعاق سفره. لكن بعد انقضاء ثلاثة أسابيع سافر أخوها، وقد أقلقه الأمر جدياً، إلى تلك القرية قرب أوغسبورغ.

عاد الأخ متأخراً في الليل. كانت أنا ما تزال صاحية، فهرعت إلى الباب، عندم سمعت صرير العربة في الحوش. رأت أخاها يقوم ببطء بفكّ الخيل عن العربة، فانقبض قلبها. لقد حمل أخباراً سيئة: فعندما دخل الكوخ وجد الميت المنتظر جالساً إلى الطاولة يتعشى، بالقميص، ويمضغ على الجانبين. لقد استعاد صحته تماماً. وتابع الأخ إخباريته دون أن ينظر في عيني أنّا. فالمزارع الصغير ـ اسمه بالمناسبة اوتيرر ـ وأمه بديا كذلك مفاجئين بذلك التحول، وما كانا قد وصلا بعد إلى قرار حول ما سيجري بعدئذ. لم يتكلم هو إلا القليل، تحديداً بأن طلب من أمه السكوت، عندما أرادت أن ترثي لزواجه من امرأة غير مرغوبة ولتبنيه طفلاً غريباً. طيلة الوقت كان يأكل الجبن متفكراً، وكان ما يزال يأكل عندما غادره الفلاح.

في الأيام التالية كانت أنّا طبعاً مهمومة جداً. أثناء عملها المنزلي كانت تعلّم الصبي المشي. عندما كان يفلت من سترتها ويتدهبل نحوها مادّاً ذراعيه، كانت تتلقاه وتحتضنه بقوة وهي تكتم إجهاشة بالبكاء.

مرة سألت أخاها: أي نوع من الرجال هـو؟ فهي لم تـره سوى على فراش الموت وفي المساء على ضـوء شمعة ضعيفـة. الآن علمـت، أن زوجهـا خمسيني مستهلك، مثل أي مزارع صغير.

بعد ذلك بفترة وجيزة رأته. فقد نقـل إليها بـائع جـوال ببـالغ السـرية، بأن"أحد معارفها" يريد أن يقابلها في اليـوم الفلانـي في السـاعة الفلانيـة عنـد القرية الفلانية، على مفرق الطريق الواصلـة إلى جبـل المنطقـة. وهكـذا التقـى المتزوجان ما بين قريتيهما، كمـا كـان قـادة الجيـوش يلتقـون مـا بـين صفـي مقاتليهم، في العراء المغطّي بالثلج.

و لم يعجب الرجل أنّا. كانت له أسنان صغيرة رمادية. تأملها مـن فـوق لتحت، مع أنها كانت محشورة في معطف سميك من صوف الغنم، فلا يظهر منهـا الكثـير، وجعـل يستخدم عبـارة "الربـاط المقـدس لـلزواج". قـالت لـه باقتضاب، إنه عليها أن تعيد النظر بالأمر من أصله، والمرجـو منـه أن يبلّغهـا، بحضور زوجة أخيها، عن طريق أي تاجر أو قصاب يمر بغـروس أيتنغـن، أنـه قد مرض على الطريق وأنه سيأتي الآن قريباً. قزّح أوتـير برأسـه وهـو بهيئتـه المتفكرة. كان أطول منها بمقدار الرأس، وكان أثنـاء الحديـث ينظرهـا دائمـاً على الجهة اليسرى من عنقها، الأمر الذي كان يثير حنقها.

لكن الرسالة لم تصل. ورازت أنّا في ذهنها أن تغادر فجـأة المزرعـة مـع الطفل، متابعة نحو الجنوب لتبحث في كيمبتن أو زونتهوفـن، عـن عمـل. إلا أن انعدام الأمن على الطرق الريفية، كما كان يقـال، وكـون الفصـل شـتاء، منعاها مـن الإقـدام على ذلـك. كذلـك، الإقامـة في المزرعـة أصبحـت الآن صعبة. فزوجة أخيها توجه إليها على مائدة الغداء أمـام الجميـع أسئلة مرتابـة عن زوجها. وعندما وصل الأمـر إلى أن قـالت مـرة، وهـي تنظـر إلى الطفـل

بشفقة كاذبة،"الدودة المسكينة"، قررت أنّا أن ترحل رغم كل شيء. وهنا مرض الطفل.

انطرح الطفل في صندوقته مضطرباً ووجهه شديد الحمرة وعيناه خابيتان. فسهرت أنّا عليه ليال وهي مابين الخوف والرجاء. وعندما بدأ يستعيد صحته ووجدت البسمة إلى وجهه سبيلاً، عندئذ وقبل ظهر أحد الأيام قُرع الباب ودخل أوتيرر. لم يكن في البيت أحد سوى أنّا والطفل، وبالتالي لم تكن مضطرة للتمثيل، وهذا ما كان بالطبع مستحيلاً عليها وهي مذعورة بالمفاجأة. وقفا ملياً دون كلام، ثم تحدث اوتيرر بأنه هو الآخر قد فكر بالأمر وأنه جاء ليأخذها معه. ثم نوّه ثانية بالرباط المقدس للزواج. فغضبت أنّا، وقالت للرجل بصوت واثق وإن كان مكبوتاً، بأنها لا تفكر بالحياة معه، وأنها لم تعقد الزواج إلا من أجل طفلها، وأن كل ما تريده منه هو أن يعطيها وطفلها اسمه.

عندما ذكرت أنّا الطفل، نظر أوتيرر عرضاً باتجاه الصندوقة التي احتوت الطفل وبروت، لكنه لم يتجه نحوه. وهذا ما جعل أنّا تزداد حنقاً عليه. ثم دجّ بضع أقوال: أنه عليها أن تعيد النظر بكل شيء، وأنه يعيش على قدّ حاله، وأن أمه يمكن أن تنام في المطبخ.

في هذه اللحظة دخلت الفلاحة، فحيته بفضول ودعته إلى طعام الغداء. وعند الجلوس إلى الطعام حيّى أوتيرر الفلاح بانحناءة من رأسه، دون أن يتظاهر بأنه لايعرفه، ودون أن يكشف عن أنه يعرفه. وجعل يجيب على أسئلة الفلاحة باقتضاب شديد، دون أن يرفع نظره عن الصحن: لقد وجد فرصة عمل في ميرنغ، وأنّا تستطيع أن تنتقل إليه. لكنه لم يعد إلى القول بأنه عليها أن تفعل ذلك حالاً. بعد الظهر تجنّب الاجتماع بالفلاح وجعل يكسر

الحطب خلف المنزل، مع أنه لم يطلب أحد منه ذلك. بعد طعام العشاء الذي شارك فيه وهو صامت أيضاً، أخذت الفلاحة من تلقاء نفسها فراشاً إلى حجرة أنّا، كي يستطيع هو أن يبيت هناك. وللغرابة فقد نهض عندئذ بتثاقل، وتمتم بأنه يجب أن يعود في نفس المساء. وقبل أن يذهب، حملق بنظرة ساهية في صندوق الطفل، لكنه لم يقل شيئاً و لم يلمسه.

في الليل مرضت أنّا وأصيبت بالحمى لمدة أسابيع. أمضت أغلب الوقت لا تحسّ بما حولها. بضع مرات فقط عند الظهيرة، عندما كانت الحمى تتراجع قليلاً، كانت تزحف إلى الصندوقة وتوضّب اللحاف. وفي الأسبوع الرابع من مرضها قدم أوتيرر إلى المزرعة بعربة نقل وأخذها مع الطفل. وقد تركت ذلك يحدث دون أن تنبس بكلمة.

واستعادت أنّا صحتها، إنما ببطء شديد، ولاعجب مع الحساء المريق في كوخ المزارع الصغير. لكنها في أحد الصباحات رأت القذارة التي ترك فيها الطفل، فقررت النهوض. استقبلها الصغير بابتسامته اللطيفة، التي كان أخوها يزعم دائماً أنه اكتسبها منها. كان قد نما. وأخذ يزحف بسرعة عجيبة في أرجاء الحجرة، وهو يخبط بيديه ويصدر صرخات صغيرة عندما يقع على وجهه. حمّمته جيداً في طشت خشبي واستعادت بذلك طمأنينتها.

بعد بضعة أيام لم تعد بالطبع تحتمل الحياة في الكوخ. فقمّطت الصغير ببضع أغطية، وضبّت خبزة وشيئاً من الجبن وولت. كان في ذهنها أن تذهب إلى زونتهوفن، لكنها لم تبعد كثيراً. كانت ركبتاها بالكاد تقويان على حملها، والناس أصبحوا بسبب الحرب كثيري الشك والبخل. في اليوم الثالث من ارتحالها التوت قدمها بحفرة في الطريق. وبعد ساعات طويلة، قلقت فيها على الطفل، نُقلت إلى إحدى المزارع، حيث وجب عليها أن

تستلقي في الاسطبل. فكان الصغير يتنقل زاحفاً بين قوائـم البقـر، ويضحـك عندما تصرخ من خوفها عليه. بالأخـير اضطـرت أن تذكـر لجماعـة المزرعـة اسم زوجها. فجاء هذا وأعادها إلى ميرنغ.

بعد ذلك لم تحاول الهرب وقبلت بنصيبها. وصارت تعمـل بكـدّ. كـان من الصعب أن يستخرج المرء شيئاً من هذه الأرض الصغيرة، وأن يدبّر حياته المعيشية. غير أن الرجل لم يكن غير لطيف تجاهها، والصغـير أصبـح شبعان. كذلك كان أخوها يمرّ ويجلب لها معه من هذا وذاك على سبيل الهدية، حتـى أنها استطاعت مـرة أن تصبـغ للصغير ثوبـاً بـالأحمر. فقـد فكـرت، إن هـذا يناسب ولابدّ طفل الصباغ. مع الزمن أصبحت راضية تماماً وعاشـت الكثـير من السعادة بتربية الصغير. وهكذا مرت سنة.

لكن، في أحد الأيام ذهبت إلى القريـة لتجلـب عسـل السـكر، وعندمـا عادت لم تجد الطفل في الكوخ، فاخبرها زوجها بأن امرأة أنيقة مـرت بعربـة وأخذت الطفل. إذ ذاك استندت إلى الحائط مدووخة من الذعـر. وفي نفـس المساء توجهت إلى أوغسبورغ وهي لا تحمل سوى صرة ببعـض مـا يؤكـل. في المدينة القيصرية قصـدت أولاً المدبغـة، لكـن لم يُسـمح لها بـالدخول و لم تتمكن من رؤية الطفل.

حـاولت أختهـا وصهرهـا أن يعزياهـا، لكـن دون جـدوى. ذهبـت إلى الإدارة المحلية وصرخت بعصبية، أن طفلها قد سـرق. ووصـل الأمـر بهـا إلى التلميح بأن بروتستانتيين قد سرقوا طفلها. فأعلموها أن ظروفاً أخرى تسـود الآن، وأن صلحاً قد عقـد الآن بـين الكـاثوليك والبروتسـتانت. ومـا كـانت لتفوز بطائلٍ، لولا أن ظرفاً خاصاً سـعيداً خدمهـا. فقـد حُولـت دعواهـا إلى قاض من نوعية مميزة جداً. إنـه القـاضي اغنـاتس دولينغـر، المشـهور في كـل

منطقة شفابيا، بسبب فظاظته ومفهوميته، والذي عمدّه أمير بافاريا باسم "هذا الفلاح الزبل اللاتيني"، على أثر خصومة قضائية حول المدينة القيصرية الحرة، في حين كان الشعب البسيط يتغنى بسيرته الحميدة.

ذهبت أنّا برفقة أختها وصهرها إلى المحكمة ووقفت أمام القاضي. كان قصير القامة، بديناً، متقدماً في السن. يجلس في حجرة ضئيلة عارية بين أكداس من رقوق الكتابة. لم يستمع إليها إلا قليلاً، ثم كتب شيئاً على ورقة، وهمهم:"تقدمي إلى هناك، إنما بسرعة!"، وهو يوجهها بيد صغيرة غليظة إلى موضع من الحجرة يضيئه نور قادم عبر النافذة الضيقة. تملّى وجهها لبضع دقائق، ثم أومى إليها مع تنهيدة عميقة بالانصراف.

في اليوم التالي أرسل خادم المحكمة يستدعيها. عند العتبة صرخ قائلاً لها:"لماذا لم تذكري أن الأمر يتعلق بمدبغة مع مزرعة رائعة؟!" قالت أنّا بصوت مخنوق، إن الأمر بالنسبة لها يتعلق بطفل. فصرخ القاضي: "لاتتوهمي بأنك تستطيعين لهط المدبغة. إذا كان ابن الحرام لك فعلا، فإن المزرعة تؤول إلى أقرباء التسينغلي". هزّت أنّا برأسها موافقة، دون أن تنظر إليه، ثم قالت: "هو لا يحتاج إلى المدبغة". وزمجر القاضي: "أهو لك؟". أجابت بصوت منخفض: "نعم. لو يُسمح لي أن أحتفظ به إلى أن يتمكن من كل الكلمات فقط. فهو لا يعرف الآن سوى سبعة". سعل القاضي ورتّب الرقوق على مكتبه. ثم قال بهدوء أكثر، إنما بنبرة مازالت مغتاظة: "أنت تريدين القزم، والعنزة هناك بفساتينها الحريرية الخمس تريده. أما هو فيحتاج إلى الأم الحقيقية". ـ "نعم"، قالت أنّا ونظرت إلى القاضي. فهمهم:"انقلعي، إلى الجلسة يوم السبت!".

في يوم السبت الموعود كان الشارع الرئيسي والساحة أمام القصر البلدي سوداوين من كثرة البشر الذين أرادوا حضور قضية "طفل البروتستانت". فهذا الحدث النادر كان منذ البداية محطّ الاهتمام العام، وفي المساكن والمحلات العامة ثار جدل حول تحديد الأم الحقيقية والأم المزيفة. كما أن دولينغز العجوز كان مشهوراً في طول البلاد وعرضها بمماحكاته الشعبوية المليئة بالحكم والأقوال اللاذعة. كانت جلساته محبوبة أكثر من أعياد الكنيسة. وهكذا احتشد أمام القصر البلدي ليس فقط الكثير من الأوغسبورغيين، بل كذلك لم يكن هناك القليل من فلاحي الجوار. ففي يوم الجمعة كان ثمة سوق، وقد باتوا في المدينة بانتظار المحاكمة.

جرت المحاكمة في القاعة المسماة القاعة الذهبية. وكانت مشهورة بأنها القاعة الوحيدة في كامل ألمانيا التي بهذا الحجم دون أعمدة، سقفها كان معلقاً بسلاسل في قمة القاعة. جلس القاضي دولينغر، كجبل صغير مدور من اللحم، أمام البوابة الرئيسية لأحد الجدران الطولانية. حبل عادي كان يفصل المشاهدين. أما القاضي فجلس على الأرض المستوية دون طاولة أمامه. كان هو الذي رتّب ذلك قبل سنوات، فقد كان يهتم كثيراً بالمظهر.

ضمن البقعة المحصورة بالحبل تواجدت السيدة تسينغلي مع أهلها، وقريبان للمتوفي السيد تسينغلي الذين قدموا من سويسرا، وهما رجلان وقوران حسنا الهندام، يبدوان كتاجرين مرموقين، وأنّا أوتيرر وأختها. إلى جانب السيدة تسينغلي كان يرى المرء مرضعة الطفل. الجميع، من متخاصمين وشهود، كانوا واقفين. فقد كان القاضي دولينغر يردّد بأن المحاكمات تجري بسرعة إذا توجب على أصحابها الوقوف. وربما كان لا

يأمر بوقوفهم إلا لكي يحجبوه عن الجمهور، بحيث لا يراه المرء إلا إذا وقف على رؤس قدميه ومد عنقه.

في بدء الجلسة وقعت حادثة. فعندما نظرت أنّا الطفل، أصدرت صرخة وتقدمت إليه، والطفل أراد الذهاب إليها، خبط بقوة بين ذراعي المرضعة وأخذ يجعر. فأمر القاضي بإخراجه من القاعة.

ثم نادى القاضي على السيدة تسينغلي. تقدمت متبخترة وسردت، وهي من وقت لآخر تهوّي العينين بمنديل جيب، كيف اختطف منها طفلها أثناء نهب الجنود القيصريين. وأن الخادمة جاءت في المساء ذاته إلى والدها وأخبرتهم أن الطفل مازال في البيت، ربما كي تنال حلواناً. غير أن طباخة أبيها التي أرسلت إلى المدبغة لم تجد الطفل، وهي تظن بأن هذه (تقصد أنّا) استولت عليه كي تبتزّ المال بطريقة ما. وهي كانت بالتأكيد عاجلاً أم آجلاً ستتقدم بمطلب كهذا، لو لم يجر قبلئذ انتزاع الطفل منها.

ونادى القاضي على قريبي السيد تسينغلي وسألهما عما إذا كانا قد استعلما وقتذاك عن السيد تسنغلي وبماذا حدثتهما عنه السيدة تسينغلي. قالا، إن السيدة تسينغلي أعلمتهما أن زوجها قد قتل وأنها تركت طفلها أمانة عند خادمة وأنه في الحفظ والصون عندها. تحدثا بلهجة غير لطيفة عنها، وهذا ليس مستغرباً، إذ أن المزرعة ستؤول إليهما، إذا ما خسرت السيدة تسينغلي القضية.

بعد أن أدليا بشهادتهما التفت القاضي ثانية إلى السيدة تسينغلي وأراد أن يعلم منها، ما إذا كانت أثناء المداهمة قد فقدت صوابها وتركت الطفل لمصيره. نظرت إليه السيدة تسينغلي بعينيها الزرقاوين الفاتحتين كالمتعجبة وقالت ممتعضة، بأنها لم تترك طفلها لمصيره. تنحنح القاضي وسألها باهتمام،

عما إذا كانت تعتقد بأنه لا يمكن لأي أمٍ أن تتخلى عن طفلها. قالت بثقة، نعم، هي تعتقد ذلك. فتابع القاضي سائلاً، ما إذا كانت الأم التي تفعل ذلك تستحق أن تضرب على قفاها، مهما كثرت الفساتين التي تلبسها؟.

لم تجب السيدة تسينغلي، فنادى القاضي على الخادمة السابقة أنّا. تقدمت بسرعة وردّدت بصوت منخفض ما سبق قالته في التحقيق الأولي. لكنها كانت تتكلم وكأنها تستمع في نفس الوقت، ومن لحظة لأخرى تنظر إلى الباب الكبير، الذي إلى خلفه أخذ الطفل، وكأنها كانت تخشى أن يكون مازال يصرخ. صرّحت بأنها ذهبت فعلاً في ذلك الليل إلى بيت عم السيدة تسينغلي، لكنها لم تعد إلى المدبغة خوفاً من القيصريين ولأن بالها كان مشغولاً على طفلها الخاص والوحيد الذي أودعته أناساً طيبين في قرية ليشهاوزن المجاورة.

قاطعها دولينغر العجوز بفظاظة وتلقف الحديث قائلاً، إنه هناك إذن على الأقل شخص واحد بالمدينة يشعر بشيءٍ مثل الخوف. ويسره أن يلمس ذلك، لأن ذلك يبرهن على أنه ليس جميلاً من الشاهدة أن تهتم فقط بطفلها الخاص، إنما كما يقال في لغة الشعب "الدم لايصير ماءً"، والأم الحقيقية تسرق من أجل طفلها، غير أن هذا محظور في القانون أيضاً. ثم أعطى بعد ذلك أحد دروسه الحكيمة والفجة عن احتيال الناس الذين يضللون المحكمة، حتى تزرقّ وجوههم. وبعد شطحة قصيرة تحدث فيها عن الفلاحين الذين يخلطون بالماء حليب البقرات البريئات، وعن المجلس البلدي، الذي ينال من الفلاحين ضريبة سوق عالية، والذي لم تكن له علاقة بالقضية على الاطلاق، أعلن بأن الاستماع إلى الشهود انتهى وأنه لم يُسفر عن شيء.

بعد ذلك أمضى استراحة طويلة، بدت عليه أثناءها كل امارات الحيرة، فكان يتلفت حوله كما لوكان ينتظر من جهة ما اقتراحاً يصل به إلى نتيجة نهائية. نظر الناس إلى بعضهم مدهوشين، وبعضهم اشرأب بعنقه، كي يرى القاضي في حيرته. لكن الهدوء بقي سائداً في القاعة، إنما كان المرء يستطيع أن يسمع صوت الجمهور في الشارع.

ثم عاد القاضي واستلم الحديث ثانية وهو يتنهد. قال:" لم يتبين من هي الأم الحقيقية. الأسف على الطفل، يسمع المرء كثيراً عن آباء يتملصون ولا يريدون أن يكونوا آباء، هؤلاء الأنذال، إنما هنا عندنا أمّان دفعة واحدة. وقد استمعت إليهما المحكمة بالقدر الذي تستحقانه، بالضبط خمس دقائق لكل منهما، وقد وصلت المحكمة إلى القناعة بأن كلاهما تكذبان. على أنه يجب التفكير بالطفل، فهو يحتاج ولا بدّ إلى أم. يجب إذن، دون كثرة ثرثرة، إثبات من هي الأم الحقيقة للطفل".

وبصوت ممتعض نادى خادم المحكمة وأمره أن يجلب طبشوراً. فذهب خادم المحكمة وجلب قطعة طباشير. فوجهه القاضي قائلاً: "ارسم بالطبشور هناك على الأرض دائرة تتسع لوقوف ثلاثة أشخاص!" فانحنى الخادم ورسم بالطبشور الدائرة المطلوبة. ثم أمره القاضي: "الآن أحضر الطفل!".

أُحضر الطفل. ومن جديد عاد إلى العويل يريد أنّا. لكن دولينغر العجوز لم يهتم لهذا الجعير، إنما أعطى تعليماته بنبرة أعلى. أعلن قائلاً: "هذا الاختبار الذي سنجريه الآن قرأته في كتاب قديم، ويعتبر جيداً بحق. الفكرة الأساسية البسيطة للاختبار بدائرة الطباشير هي أن الأم الحقيقية تُعرف بمحبتها للطفل. إذن سيجري اختبار قوة هذه المحبة. يا خادم المحكمة، ضع الطفل ضمن دائرة الطباشير!".

أخذ خادم المحكمة الطفل وهو يجعر من يد الممرضة واقتاده إلى داخل الدائرة. وتابع القاضي موجهاً كلامه إلى السيدة تسينغلي وإلى أنّا: "قفا أنتما أيضاً ضمن الدائرة، ولتمسك كل واحدة منكما بإحدى يدي الطفل، وعندما أقول "ابتدي"، عندئذ حاولا أن تسحبا الطفل إلى خارج الدائرة. والتي تملك من بينكما محبة أقوى، سوف تسحب بقوة أكبر وتجذبه إلى ناحيتها".

في القاعة حدث ضجيج. وقف المتفرجون على رؤوس أقدامهم وأخذوا يتشاجرون مع الذين أمامهم. وعندما دخلت المرأتان ضمن الدائرة وأمسكت كل واحدة منهما بإحدى يدي الطفل، عاد الهدوء المطبق. كذلك خرس الطفل، كما لو أنه أدرك حقيقة الأمر، فأدار وجهه المليء بالدموع المنسابة متطلعاً نحو أنّا. ثم جاء أمر القاضي:"ابتدي!".

بسحبة قوية واحدة انتزعت السيدة تسينغلي الطفل خارج الدائرة. وتطلعت أنّا إليه متكدرة وغير مصدّقة. فمن خوفها أن يتأذى من سحبه بذراعيه إلى اتجاهين متعاكسين في نفس الوقت، أفلتته مباشرة. هنا وقف دولينغر العجوز، وقال بصوت عال: "بذلك نعلم من هي الأم الحقيقية. خذوا الطفل من هذه الشخنة. ستمزقه بكل برودة قلب". وأومى لأنّا وخرج مسرعاً من القاعة إلى فطوره.

في الأسابيع التالية تناقل فلاحو الضواحي، الذين لم ينخدعوا بما جرى، بأن القاضي، عندما حكم للمرأة الميرنغية بالطفل، قد غمزها بعينيه.

* * *

جندي لاسيوتا(•)

بعد الحرب العالمية الأولى رأينا في الساحة العامة للمدينة الساحلية الصغيرةلاسيوتا La Ciotat، الواقعة جنوب فرنسا، وذلك أثناء المهرجان السنوي لتدشين السفن، تمثالاً برونزياً لجندي من الجيش الفرنسي، تتزاحم حوله الجموع. اقتربنا منه، فاكتشفنا أنه إنسان من لحمٍ ودم، يقف في شمس حزيران اللاهبة، على قاعدة حجرية بلا حراك، مرتدياً معطفاً رمادياً بلون الأرض، الخوذة على الرأس، والحربة في يده، وقد طلى وجهه ويديه بلون برونزي. لا يحرك أية عضلة فيه، حتى أنه لا يرمش له جفن.

عند قدميه، على القاعدة الحجرية تستند قطعة من الورق المقوى، يمكن قراءة النص التالي عليها:

الإنسان التمثال Homme Statue

أنا شارل لوي فرانشار، جندي في الكتيبة الكذا، اكتسبت نتيجة وأد بالقرب من فردان المقدرة الخارقة على أن ألبث جامداً تماماً بلا حراك ولفترة

•) ترجمة عبدو زغبور، مراجعة بو علي ياسين.

زمنية غير محدودة كتمثال. فنّي هذا اختُبر من قِبَل أساتذة كثر، ووصفوه بأنه مرض لا يُدرى كنهه. تبرعوا، رجاءً، إلى ربّ عائلة بلا وظيفة، بصدقة صغيرة!.

رمينا بقطعة نقود في الصحن الموضوع إلى جانب اللوحة، وتابعنا السير هازّين رؤوسنا.

هنا إذن، هكذا فكرنا، يقف شاك السلاح، جندي آلاف السنين الصامد، هذا الذي صُنع مع التاريخ، الذي أتاح كل تلك الأعمال العظيمة للاسكندر وقيصر ونابليون، التي نقرأ عنها في الكتب المدرسية. ها هو ذا لا يرمش له جفن. إنه نبّال سيروس، وسائق عربات قمبيز المنجلّية، الذي لم تستطع رمال الصحراء أن تواريه تماماً، وجندي يوليوس قيصر، الفارس الرمّاح لجنكيزخان، والمرتزق السويسري لدى لويس الرابع عشر، وجندي المشاة لدى نابليون الأول. يملك المقدرة التي مع ذلك ليست هكذا غير عادية، بأن لا يُبدي أي أثر، إذا ما جُرّبت عليه كل آلات الفناء التي يمكن تصورها. مثل الحجر، بلا إحساس (يقول هو)، يلوذ بالصمت إذا ما أُرسل إلى الموت. يقف مُثقّباً برماح العصور المختلفة، الحجري والبرونزي والحديدي، ومدهوساً بعربات القتال التابعة لأرتحشَشتا والجنرال لودندورف، وممعوساً بفيلة هانيبال وخيالة أتيّلا، وممزقاً بالشظايا المتطايرة من المدافع المطّردة التطور منذ مئات السنين، كما من الحجارة الطائرة من المنجنيقات القاذفة، وممزقاً برصاص كبير بحجم بيض الحمام وصغير كالنحلة، هكذا يقف صامداً، دائماً من جديد، مأموراً بلغات لا تحصى، إنما على الدوام جاهلاً لماذا ولأجل أي شيء. الأراضي التي يحتلها لا يتملكها هو، كالبنّاء الذي لا يسكن البيت الذي يبنيه. حتى البلاد التي يدافع عنها ليست

له. بل إنه لا يملك سلاحه ولا بزّته. لكنه يقف، وفوقه مطر الموت المتساقط من الطائرات، والقار الحارق لأسوار المدن المحاصرة، وتحته الألغام والفخاخ، وحوله الطاعون والغاز الأصفر القاتل، هو جعبة من لحم للحراب والسهام، وهو الهدف، ووحل الدبابات وموقد الغاز، أمامه العدو وخلفه الجنرال!.

لاتُحصى الأيادي التي حاكت له السترات، والتي طرقت له الدروع، والتي فصّلت له الأحذية! ولاتُعدّ الجيوب التي امتلأت بفضله! ولايُقاس الصراخ المنطلق في كل اللغات لإثارة حماسه! وما من ربّ إلا وباركه! وهو الموصوم بجذام الصبر المريع، المنخور بمرض لا شفاء منه، مرض انعدام الأحاسيس.

ياله من وأد ــ فكرنا نحن ــ ، هذا الذي يجزيه هذا المرض المخيف والمهول والمعدي للغاية!. أليس من اللازم ــ سألنا أنفسنا ــ أن يكون مع ذلك قابلاً للشفاء؟

* * *

الإبنان (*)

في كانون الثاني من عام ١٩٤٥، عندما كانت حرب هتلر تسير إلى نهايتها، حلمت فلاحة من منطقة تورينغن أن ابنها في الحقل يناديها، فخرجت وهي خدرة بالنعاس إلى الحوش، وهيئ لها أنها ترى ابنها عند المضخة يشرب. وعندما تكلمت إليه تبين لها أنه شاب من أسرى الحرب الروس الذين ينفذون أعمال سخرة في المزرعة. بعد عدة أيام من ذلك حدث لها حادث غريب. فقد حملت للأسرى طعامهم، حيث كانوا في غابة صغيرة يقومون بقلع قرم الأشجار. في طريق عودتها نظرت عبر كتفها إلى الوراء، فرأت الشاب أسير الحرب نفسه، وهو بالمناسبة إنسان معلول، يدير وجهه نحو وعاء معدني قدمه له أحدهم بالحساء، وذلك بهيئة خائبة، وفجأة تحول هذا الوجه إلى وجه ابنها. في الأيام التالية حدث لها مراراً أن رأت تحولات سريعة وغائمة لوجه هذا الشاب إلى وجه ابنها. ثم أصبح أسير الحرب هذا مريضاً، وبقي بلا رعاية مطروحاً في مخزن الغلال. استشعرت الفلاحة

---

*) ترجمة عبدو زغبور، مراجعة بو علي ياسين.

ضرورة متزايدة في أن تحضر له شيئاً مقوياً، بيد أن أخاها، وهو معاق حرب، حال بينها وبين ذلك. كان أخوها هو مدير المزرعة، وكان يعامل الأسرى بجلافة، لاسيما الآن، حيث اختلط الحابل بالنابل، وبدأت القرية تخاف من الأسرى. حتى الفلاحة نفسها لم تستطع أن تتجاهل حجج أخيها، فليس من الحق بأية حال مساعدة هذه الحثالة من البشر الذين سمعت عنهم أشياء مرعبة. كانت تعيش في خوف مما يمكن أن يفعله الأعداء بابنها، الذين يحارب في الشرق. وهكذا وقبل أن تنفّذ نصف مرادها في مساعدة هذا الأسير في وحشته، فاجأت في أحد المساءات مجموعة من الأسرى في بستان مغطى بالثلج، مجتمعين في البرد، كي يبقوا الحديث سراً بينهم. كان الشاب واقفاً بينهم وهو يرتعد من الحمى، وربما بسبب السوء الزائد لحالته، كان أكثر من جفل لرؤيتها. في وسط هذا الرعب حدث ثانية ذلك التحول الغريب لوجهه، حيث رأت فيه وجه ابنها وقد تملكه رعب شديد. شغلها هذا من الأعماق، وكما أنها أداءً للواجب قررت إخبار أخيها عن الحديث الذي جرى في البستان، كذلك قررت أن تدفع للشاب بقطعة اللحم المقدد التي كانت قد حضّرتها له. وقد تبين لها أن هذا، ككل الأعمال الطيبة في عهد الرايخ الألماني الثالث، عمل صعب ومحفوف بالمخاطر. فبهذا العمل تجعل من أخيها عدواً لها، كما لا تستطيع أن تكون على ثقة من أسرى الحرب. ومع ذلك تم لها ما أرادت. إلا أنها اكتشفت أن الأسرى ينوون الهرب، إذ كان يزداد يومياً الخطر بأن يجرجروهم معهم في انسحابهم أمام الجيش الأحمر نحو الغرب أو ببساطة أن يقضوا عليهم. لم تستطع الفلاحة في سريرتها أن تصدّ رغبات الشاب الأسير الذي ربطها به حدث التحوّل الغريب، والذي أوضح لها هذه الرغبات بقليل من الكلمات الألمانية المكسّرة

وبإشارات إيمائية. وتركت نفسها هكذا تتورط في خطط الأسرى للهـروب. أحضرت سترة ومقصاً معدنيـاً كبيراً. والمدهش أن التحـول لم يعد يحدث مذّاك، وأن الفلاحة تساعد الآن الإنسان الشاب الغريب فحسب.

وهكـذا هالها أن تسـمع في أحـد صباحـات نهايـة شـباط دقـات علـى النافذة، وأن تلمح عبر النافذة في غبش الفجر وجه ابنها. إنه ابنها هذه المـرة. كان يرتدي بزة ممزقـة لفرقـة الإس إس(**)، فقـد سـحقت قطعتـه، وأخـبر مضطرباً أن الروس لا يبتعدون سوى بضعة كيلـو مـترات فقـط عـن القريـة. ويجب من كل بدّ التكتم على عودته إلى البيت. وكما في مجلس حربي، جمع كلاً من الفلاحة وأخيها وابنها في إحدى زوايا عليّة البيت، قـرروا قبـل كـل شيء القضاء على اسرى الحرب، لأنه من الممكن أن يكونـوا قـد رأوا رجـل الإس إس، وعلى العموم يُتوقع أن يصرّحوا بسوء معاملتهم. في مكان قريـب كان ثمة مقلع. وقـد أصـر رجـل الإس إس علـى أنـه يجـب في الليلـة القادمـة استدراجهم فرداً فرداً مـن مخزن الغـلال والقضـاء عليهـم. بعـد ذلـك يمكـن سحب الجثث إلى المقلع. أما في المساء فيجب أن يحصلوا على بعض الكؤوس من الكونياك، فهذا - كما ارتأى الأخ - يجعلهم لا ينتبهون كثيراً، لأنه كان هو بالاتفاق مع الخدم في الفترة الأخيرة عن قصد لطيفاً تجـاه هـؤلاء الـروس، لكي يجعلهم في اللحظة الأخيرة مرحين بشكل مناسب. عندمـا شـرح رجـل الإس إس خطته هذه، رأى فجأة أمه ترتجف. فقـرر الرجـلان أن لا يتركاهـا من بعد وبأي حال تقترب من مخزن الغـلال. وهكـذا انتظـرت الليـل وهـي مرتاعة. كما يبدو تقبل الروس الكونياك شاكرين، وسمعتهـم الفلاحـة يغنـون

(**) **Schutz - Staffel** فريق الحماية، منظمة إرهابية أسسـها النـازيون بقيـادة هتلـر عـام ١٩٢٥.

أغانيهم الحزينة وهم ثملون. لكن، عندما ذهب أخوها حوالي الساعة الحادية عشرة إلى مخزن الغلال، كان الأسرى قد هربوا. لقد تظاهروا بالثمالة. فهذا اللطف غير الطبيعي من أهل المزرعة هو الذي أقنعهم بأن الجيش الأحمر يجب أن يكون قريباً جداً.

في النصف الثاني من الليل جاء الروس. كان الابن مطروحاً في العليّة ثملاً، بينما تحاول الفلاحة وقد تملكها الفزع أن تحرق بزة الإس إس. كذلك أخوها كان ثملاً؛ فتوجب عليها أن تستقبل بنفسها الجنود الروس وتطعمهم. وقد فعلت ذلك بوجه متحجّر. في الصباح انسحب الروس، فالجيش الأحمر يتابع زحفه. وعاد الابن، وقد ظهرت عليه علائم السكر والسهر، يطلب الكونياك من جديد، معبّراً عن رغبته الأكيدة في أن يشق طريقه إلى فصائل الجيش الألماني المهزوم، لكي يتابع القتال. لم تحاول الفلاحة أن توضح له أن متابعة القتال لا تعني سوى الموت المؤكد. وبصورة يائسة رمت بنفسها في طريقه، محاولة بجسدها أن تثنيه عن عزمه. لكنه دفعها إلى الخلف فارتمت على التبن. وفيما كانت تحاول النهوض تحسّست قطعة حطب في يدها، فضربت بها هذا الأحمق.

في اليوم نفسه، قبل الظهر، كانت ثمة فلاحة تجرّ في أقرب بلدة مجاورة عربة إلى مبنى القيادة الروسية، وتسلّم ابنها وهو موثوق بحبل للثيران كأسير حرب، وذلك ـ كما حاولت أن توضح للمترجم ـ كي يحافظ على حياته.

* * *

العجوز الوضيعة (*)

كانت جدتي تبلغ الثانية والسبعين من العمر عندما توفي جدي. وكان جدي يملك مطبعة حجرية صغيرة في بلدة من منطقة بادن، واستمر يعمل بها مع اثنين أو ثلاثة من المساعدين حتى وفاته. وكانت جدتي تتولى الأعمال المنزلية دون خادمة، تعتني بالبيت القديم المتزعزع وتطبخ للعاملين والأطفال. كانت امرأة صغيرة نحيلة، لها عينا سحلية يقظتان، إنما بطيئة في الكلام. بامكانيات زهيدة ربّت خمسة أطفال حتى كبروا، من أصل سبعة ولدوا لها. لهذا السبب أصبحت مع السنين أكثر صغراً.

من هؤلاء الأولاد ذهبت الفتاتان إلى أميركا، كما رحل عنها اثنان من الأبناء. فقط أصغرهم، وكان ضعيف الصحة، بقي في البلدة، أصبح طبّاعاً وحمّل نفسه عبء أسرة كبيرة. وهكذا كانت وحيدة في البيت، عندما توفي جدي.

---

*) ترجمة عبدو زغبور، مراجعة بوعلي ياسين.

كان الأولاد يكتبون لبعضهم حول مشكلة ما الذي سيحدث لها. أحدهم عرض عليها السكن عنده، والطباع أراد أن ينتقل مع أسرته ليسكن عندها. غير أن العجوز كانت ترفض هذه الاقتراحات، وطلبت ممن يقدر من أولادها أن يقدم لها مساعدات مالية صغيرة. فالمطبعة الحجرية، التي أصبحت جد قديمة، لم تكن لتعطي مردوداً تقريباً عند البيع، وكان ثمة ديون علاوة على ذلك.

كتب لها الأولاد بأنها لاتستطيع العيش هكذا وحيدة تماماً. ولكن عندما لم تتجاوب بتاتاً معهم، أذعنوا للأمر وأرسلوا لها شهرياً قليلاً من النقود. على كل ـ فكروا فيما بينهم ـ مازال الطباع في البلدة. وقد تولى الطباع إخبار أخوته أيضاً بأحوال الأم. من رسائله إلى والدي ومما علمه في إحدى الزيارات وبعد دفن جدي بسنتين، أخذت صورة عما حدث خلال هاتين السنتين.

يبدو أن الطبّاع قد خاب أمله منذ البداية، إذ أن جدتي امتنعت عن قبوله في بيتها الفارغ الآن والكبير نسبياً. كان يسكن مع أربعة أطفال في بيت مؤلف من ثلاث غرف. لكن العجوز حافظت عموماً فقط على صلة جد واهية معه. كانت تدعو الأطفال كل يوم أحد بعد الظهر إلى تناول القهوة عندها. وكان هذا، في الحقيقة، كل شيء. وكانت تزور ابنها مرة أو مرتين كل ربع عام، وتساعد كنتها في صنع المربّيات. وكان مما استقته المرأة الشابة من أحاديثها، أن مسكن الطبّاع ضيق عليهم. فلم يستطع هذا الأخير أن يتمالك نفسه من أن يضع في إخباريته على ذلك علامة تعجب. وعلى سؤال خطي من والدي عما تفعله السيدة العجوز، أجاب بشيء من الاختصار، إنها تذهب إلى السينما.

على المرء أن يعلم أن ذلك لم يكن شيئا عاديا، وفي كل الأحوال ليس في عيون أولادها. لم تكن السينما قبل ثلاثين عاماً مثلما هي عليه اليوم. كان يجري العرض في أمكنة بائسة، ذات تهوية سيئة، في الغالب كانت تقام آلات العرض في المحلات القديمة للعبة الجلل، مع ملصقات صارخة عند المدخل، تصور الإجرام وتراجيديا العواطف. في الواقع لم يكن يذهب إلى هذه الأمكنة إلا المراهقون أوٍ ـ بسبب الظلمة ـ العشاق. فوجود امرأة عجوز وحيدة هناك كان ملفتاً للنظر بالتأكيد. وثمة وجهٍ آخر لزيارات السينما هذه حريّ بالتفكير. كان ثمن بطاقة الدخول بخساً بالطبع، لكن هذه التسلية كات تدرجٍ تقريباً في صنف اللذائذ. هذا يعني "تبذيرنقود". و لم يكن تبذير النقود شيئا يستحق الاحترام.

بالإضافة إلى ذلك لم تكن جدتي لا تحافظ علىٍ اتصال منتظم مع ابنها في البلدة فحسب، بل كذلك لا تزور ولا تدعو أحداً من معارفها. و لم تكنٍ تذهب أبداً إلى جَمْعات تناول القهوة في البلدة. بالمقابل كانت تزور مرارا مشغل اسكافي في زقاق فقير، وحتى أنه سيء السمعة، حيث ـ وبشكل خاص بعد الظهر ـ يجلس ما هبّ ودبّ من كائنات غير محترمة، نادلات وصبيان حرف عاطلين. كان الاسكافي رجلاً متوسط العمر، وكان قد طاف العالم دون أن يحصّل شيئاً. ويقال إنه كان يحتسي الخمر. في كل الأحوال لم يكن الاحتكاك به لائقاً لجدتي.

في إحدى رسائله ألمح الطبّاع إلى أنه نبّه والدته لهذا الأمر، إلا أنه حصل منها على جواب بارد. "لقد رأى شيئاً"، كان جوابها، وانتهى بذلك الحديث. فلم يكن من السهل التحدث إلى جدتي عن أشياء لا تريد الحديث عنها.

بعد نصف عام تقريباً من وفاة جدي، كتب الطبّاع إلى والدي، إن الوالدةتأكل كل ثاني يوم في المطعم. يا له من خبر. الجدة التي كانت طوال عمرها تطبخ لدزينة من البشر، ولا تأكل سوى الفضلات، تأكل الآن في المطعم! ما الذي جرى لها؟.

بعد ذلك بقليل سافر والدي في مهمة إلى مكان في القرب، وزار أمه. لقيها فيما كانت على وشك الخروج. نزعت قبعتها ثانية ثم وضعت له كأساً من النبيذ الأحمر مع بعض الكعك المالح. بدت في مزاج معتدل، لا كثيرة الانبساط ولا كثيرة الصمت. وقد استفسرت منه عن أحوالنا، لكن في الحقيقة ليس بشكل مستفيض، بشكل أساسي أرادت أن تعرف ما إذا كان يتوفر الكرز للأطفال. كانت تماماً كما هي دائماً. الحجرة كانت فائقة النظافة، وبدت هي معافاة.

الشيء الوحيد الذي أنبأ عن حياتها الجديدة، هو أنها لم ترد الذهاب مع والدي إلى المقبرة لزيارة ضريح زوجها. "يمكنك الذهاب وحدك"، قالت عَرَضاً، "إنه الضريح الثالث من اليسار في الصف الحادي عشر. ما زال علي مشوار". فيما بعد أوضح الطبّاع، أنهامن المحتمل أن تكون ذهبت إلى اسكافيها. كان كثير الشكوى. "أقعد هنا في هذه الحفر مع عائلتي وأعمل فقط خمس ساعات بأجر زهيد، علاوة على أن الربو يضايقني ثانية، والبيت في الشارع الرئيسي ينتصب فارغاً".

كان والدي قد حجز غرفة في فندق البلدة، لكنه توقع أن تدعوه أمه للسكن عندها، على الأقل من قبيل الشكليات، إلا أنها لم تتطرق إلى ذلك. في الماضي، حتى عندما كان البيت مزدحماً، كانت تعارض أن لا ينزل عندهم وأن ينفق فوق ذلك النقود على الفندق. لكن يبدو أنها قد انتهت

من حياتها العائلية وتسلك دروباً جديدة، الآن، حيث توشك حياتها على النهاية. وقد وجدها والدي، الذي كان يحمل قدراً لا بأس به من روح الفكاهة، "طريفة جداً"، وقال لعمي أن عليه أن يترك السيدة العجوز تفعل ما تريد. ولكن ماذا تريد؟.

الخبر التالي الذي وصلنا هو أنها استأجرت حنطور بريغ BREGG وسافرت به إلى منتزه في يوم خميس عادي. وBREGG هي عربة كبيرة ذات عجلات مرتفعة تجرها الخيول مع مقاعد تتسع لعائلة بكاملها. بعض المرات القليلة، عندما كنا نحن الأحفاد نأتي بزيارة، كان الجد يستأجرها لنا. وكانت الجدة تبقى دائماً في البيت. بحركة ازدراء من يدها كانت ترفض الذهاب معنا. وبعد البريغ جاءت سفرتها إلى ك، وهي مدينة كبيرة تبعد حوالي ساعتين في القطار. هناك كان يجري سباق للخيول، وإلى سباق الخيل سافرت جدتي.

الآن أحسّ الطبّاع بإنذار الخطر الشديد، فأراد الاستعانة بطبيب. عندما قرأ والدي رسالته، هزّ رأسه، لكنه رفض اللجوء إلى طبيب. ولم تسافر جدتي لوحدها إلى ك. لقد أخذت معها فتاة شابة، نصف معتوهة، كما كتب الطبّاع، تعمل طباخة في الفندق، حيث كانت العجوز تأكل كل ثاني يوم. وهذه المشوهة بدأت تلعب دوراً منذ الآن. يبدو أن جدتي قد مسّها شيء من الجنون. كانت تأخذها معها إلى السينما وإلى الاسكافي، الذي تبين - بالمناسبة - أنه من الديمقراطيين الاجتماعيين، وسرت إشاعة بأنهما تلعبان الورق في المطبخ فيما تشربان كأساً من النبيذ الأحمر.

وكتب الطبّاع يائساً: "اشترت الآن للمشوهة قبعة عليها ورود. وابنتنا أنّا لا تملك ثوب القربان الكنسي!". لقد أصبحت رسائل عمي هستيرية تماماً

وتحكي فقط عن "السلوك المشين لأمنا العزيزة"، ولا تقدم شيئاً أكثر من ذلك. ما تبقى حصلت عليه من والدي. وقد أسرّ له صاحب الفندق غامزا بعينيه: "كما نسمع، فإن السيدة ب تتسلى الآن".

في الحقيقة لم تعش جدتي بأي حال حتى السنتين الأخيرتين مترفة. فإذا لم تأكل في الفندق، كانت غلباً تأكل فقط قليلاً من البيض مع شيء من القهوة وقبل كل شيء كعكها المفضل. مقابل ذلك كانت تشتري نبيذاً أحمر من النوع الرخيص، تحتسي كأساً صغيرة منه عند كل وجبة طعام. أما البيت فكانت تحافظ على نظافته، وليس فقط في حجرة النوم والمطبخ اللذين كانت تستخدمهما. إلا أنها رهنت البيت دون علم أولادها. ولم يُعرف أبداً ما الذي فعلته بهذه النقود. يبدو أنها أعطتها للاسكافي مصلح الأحذية، الذي انتقل بعد موتها إلى مدينة أخرى، ويُقال إنه فتح متجراً أكبر لتفصيل الأحذية هناك.

إذا أمعنا النظر فإنها عاشت حياتين متتاليتين: الأولى إبنة وامرأة وأم، والثانية باعتبارها ببساطة السيدة ب التي تعيش وحيدة دون التزامات وبإمكانيات متواضعة إنما كافية. الحياة الأولى استمرت حوالي ستة عقود من الزمن، والثانية ليس أكثر من سنتين.

وقد وصل إلى علم أبي أنها في نصف السنة الأخيرة سمحت لنفسها ببعض الحريات التي لم يكن يعرفها الناس العاديون. فكانت تستيقظ في الصيف باكراً في الساعة الثالثة صباحاً وتتمشى عبر شوارع البلدة الفارغة، بحيث تكون لوحدها تماماً. وتناقل الناس أنها دعت الخوري، الذي كان يجيء لزيارتها، ليؤنس المرأة العجوز في عزلتها، إلى السينما. غير أنها لم تكن منعزلة إطلاقاً. فقد كان يحتك بالاسكافي، كما يبدو، جملة من الناس

المرحين، ويجري تبادل الكثير من الأحاديث. كانت تحتفظ هناك على الدوام بقنينة من نبيذها الأحمر. فتتناول منه كأساً، بينما يتحدث الآخرون ويتناولون بألسنتهم أكابر المدينة. كان هذا النبيذ الأحمر مخصصاً لها، إلا أنها كانت تحضر معها أحياناً مشروباً أقوى للجماعة.

وبدون أية مقدمات، ماتت، بعد ظهر يوم خريفي في حجرة نومها، إنما ليس على السرير، بل على كرسي خشبي إزاء النافذة. كانت قد دعت "المشوهة" إلى السينما ذلك المساء. وهكذا كانت الفتاة عندها، عندما جاءها الموت. كان عمرها أربعة وسبعين عاماً.

لقد رأيت صورة لها وهي على فراش الموت، أُخذت خصيصاً لأولادها. رأيت وجهها ضئيلاً كثير التجاعيد، بفم ذي شفاه رقيقة إنما هو عريض. صغيرة جداً، إنما ليست من الصغائر. ذاقت السنين الطويلة للعبودية وسنين الحرية القصيرة. واستهلكت خبز الحياة حتى فتاته الأخير.

* * *

قصص عن السيد كوينر

السيد كاف والطبيعة

سئل السيد كاف عن علاقته بالطبيعة فقال: "أتمنى أحياناً وأنا خارج من المنزل أن أرى بعض الأشجار. خصوصاً لأنها تصل بتغيّر مظهرها المتناسب مع أوقات اليوم والفصول إلى درجة فائقة الواقعية. كذلك يشوّشنا في المدن مع الزمن أن لا نرى على الدوام سوى أشياء للاستعمال، كالمنازل والطرق، فهي فارغة إذا لم تُسكن ولا معنى لها إذا لم تستخدم . نظامنا الاجتماعي الخاص يجعلنا نعدّ حتى البشر بين الأشياء الاستعمالية. وهنا تمثّل الأشجار على الأقل بالنسبة لي، أنا الذي لست نجاراً، شيئاً قائماً بذاته يبعث علي الارتياح، شيئاً غير متعلق بي، بل إني لآمل أن تمثّل حتى بالنسبة للنجار شيئا لذاتها مما لا يمكن تقييمه". (كما قال السيد كاف: "من الضروري بالنسبة لنا، أن نستخدم الطبيعة بشكل مقتصد. فالحياة في الطبيعة دون عمل، توقع المرء بسهولة في حالة مرَضية، يصيبه ما يشبه الحمى").

تنظيم

قال السيد كاف مرة: "الإنسان المفكر لا يستعمل ضوءاً أكثر مما يـلزم، ولا قطعة خبز أكثر مما يلزم، ولا فكرة أكثر مما يلزم".

الشكل والمادة

تأمل السيد كاف لوحة أعطت لما فيها من أشياء شكلاً مقصوداً لذاتـه. فقال: يحدث لبعض الفنانين، وهـم يتـأملون العـالم، كمـا يحـدث لكثـير مـن الفلاسفة. لدى اهتمامهم بالشكل تضيع المادة. لقد عملت مرة عند بستاني. ناولني مقصّ حدائق وطلب مني أن أقصقـص شـجرة غـار. كـانت الشـجرة مزروعة في أصيص ومعارة مـن أجـل احتفـالات معينـة. وكـان المطلـوب أن تأخذ الشجرة شكل كرة. فبـدأت مباشـرة بقـصّ الأغصـان الناشـزة. وكـم بذلت من جهد كي أصل إلى شكل الكرة، لكن ذلك بقي طويلاً مسـتعصيا عليّ. مرة أجد نفسي قد أكثرت من القصقصة في هذا الجانب، ومرة في ذاك الجانب. وعندما حصلت أخيراً على شكل كرة، كانت الكرة صغـيرة جـداً. فقال لي البستاني خائباً: "طيب، هذه هي الكرة، فأين شجرة الغار؟".

خدمات الصداقة

كمثال على الطريقة الصحيحة في تقديم خدمة للأصدقـاء سـرد السـيد كاف القصة التالية: جاء ثلاثة شبان إلى شيخ عربي وقالوا لـه: "تـوفي أبونـا، وترك لنا سبعة عشر جملاً. وقـد أوصـى للكبـير النصـف، وللثـاني بـالثلث، وللصغير بالتسع. ها نحن الآن لا نستطيع الاتفاق علـى القسـمة، فتـول أنـت الأمر". فكّر العربي ملياً ثم قال : "كما أرى، فأنتم ينقصكـم جمـل واحـد،

كي تستطيعوا القسمة بشكل صحيح. أنا شخصياً ليس عندي سوى جمل واحد، وهو تحت تصرفكم. خذوه واقتسموا، ثم أحضروا لي ما يزيد". شكروه على خدمة الصداقة هذه، وأخذوا الجمل، ومن ثم قسموا الثمانية عشر جملاً بينهم. فنال الكبير النصف، أي تسعة؛ والثاني الثلث، أي ستة؛ والصغير التسع، أي جملين. ولدهشتهم، فقد بقي، بعد أن أبعدو جمالهم، جمل واحد. فأعادوه إلى صديقهم العجوز، وهم يشكرونه من جديد.

اعتبر السيد كاف خدمة الصداقة هذه صحيحة، لأنها لم تتطلب أية تضحيات.

وفاء

أمضى السيد كاف، الذي كان مؤيداً لتنظيم العلاقات الإنسانية، طيلة حياته مشتبكاً في صراعات. في أحد الأيام تورط مرة أخرى في قضية مزعجة، اضطرته لأن يقصد ليلاً عدة أماكن لقاء في المدينة، بعيدة عن بعضها. ولأنه كان مريضاً، فقد طلب من صديق له معطفه. فوعده الصديق به، مع أنه بذلك سيتوجب عليه الاعتذار عن موعد صغير. في المساء ساءت حالة السيد كاف إلى درجة أن المشاوير لم تعد تفيده، وأصبح محتاجاً إلى شيء آخر تماماً. مع ذلك وبالرغم من ضيق الوقت، فإن السيد كاف أسرع، كي يحافظ هو الآخر على الموعد، وأحضر في الوقت المحدد المعطف الذي لم تعد له حاجة إليه.

الغلام العاجز

تحدث السيد كاف عن سوء السلوك في أن يبلع المرء بصمت ظلماً وقع عليه، وروى القصة التالية: أحد المارين سأل صبياً يبكي عن سبب زعله. قال

الصبي: " كان لدي قرشان من أجل السينما، فجاء صبي وخطف واحداً من يدي". وأشار إلى صبي يظهر للعيان من بعيد. سأله الرجل: "ألم تصرخ طالباً النجدة؟". - "بلى"، قال الصبي وقد ارتفعت حدة بكائه. - "ألم يسمعك أحد؟"، تابع الرجل سؤاله وهو يلمّس على شعره متودداً" - "لا"، قال الصبي وهو يشهق بالبكاء. فسأله الرجل: "أفلا تستطيع أن تصرخ أعلى؟. إذن هات هذا القرش!". وأخذ من يده القرش الأخير وتابع سيره غير مبالٍ.

سؤال عن وجود إله

سأل أحدهم السيد كاف، ما إذا كان يوجد إله. فقال السيد كاف: "أنصحك بأن تفكر، ما إذا كان سلوكك سيتغير بحسب الجواب على سؤالك. فإذا كان لن يتغيّر، عندئذ يمكننا أن نهمل السؤال. وإذا كان سيتغيّر، فإنني أستطيع على الأقل أن أساعدك إلى الحد الذي أقول لك فيه، بأنك قد حسمت أمرك: أنت تحتاج إلى إله.

أحاديث

قال السيد كاف لأحدهم: "نحن لم نعد نستطيع التحدث إلى بعضنا". - "لماذا؟"، قال الرجل مرعوباً. - "بحضورك لا أستطيع التحدث بشيء معقولٍ"، قال السيد كاف متذمراً . - "ولكن هذا لا يهمني"، قال له الرجل مواسياً. فقال له السيد كاف بمرارة: "أعتقد ذلك، لكنه يهمني أنا!".

ضيافة

كان السيد كاف، إذا حل ضيفاً، ترك حجرته كما وجدها، لأنه لم يكن يرى أن يترك الناس بصماتهم على محيطهم. بالعكس كان هو يجهد نفسه لأن يغير طبعه بالشكل المناسب لإقامته؛ إنما على أن لا يسبب له هذا معاناة.

السيد كاف في مسكن غريب

فيما كان السيد كاف يدخل مسكناً غريباً، وقبل أن يستسلم للراحة، نظر إلى مخارج البيت ولا شيء آخر. لدى سؤاله أجاب محرجاً: "هذه عادة غليظة قديمة. فأنا مع العدالة؛ لذا من الجيد أن يكون لمنزلي أكثر من مخرج واحد".

حكيم

جاء بروفيسور فلسفة إلى السيد كاف وحدثه عن حكمته. بعد برهة قال له السيد كاف: "جلستك غير مريحة، حديثك غير مريح، تفكيرك غير مريح". فضب بروفيسور الفلسفة وقال: "لا أريد أن أعرف شيئاً عن نفسي، بل عن مضمون ما قلته". قال السيد كاف: "لا مضمون له. أراك تسير خبط عشواء، وما من هدف رأيتك وصلته طيلة تتبعي لك. أنت تتحدث في الظلام، وما قمت بأية إضاءة في حديثك. عندما أرى موقفك، لا يعود هدفك يهمني".

عندما يحبّ السيد كاف إنساناً

سئل السيد كاف: "ماذا تفعل، إذا أحببت إنساناً؟". فقال: "أصنع عنه رسماً، وأسعى لأن يكون شبيهاً به". ــ "من؟ الرسم؟". قال السيد كاف: "لا، الإنسان".

السيد كاف والتساوق

في أحد الأيام طرح السيد كاف على أحد أصدقائه السؤال التالي: أحتكُّ منذ فترة قصيرة مع رجل يسكن مقابلي. الآن لم يعد لديّ رغبة

بالاحتكاك به؛ غير أنه ينقصني السبب، ليس للاحتكاك به فحسب، بل للانفصال عنه. والآن اكتشفت أنه فور شرائه مؤخراً للبيت، الذي كان حتى الآن يستأجره فقط، قطع شجرة زلاّع أمام نافذته، لأنها تحجب النور عنه، مع أن ثمارها ما زالت نصف ناضجة. هل علي أن أتخذ من ذلك سبباً لقطع صلتي به، على الأقل بالظاهر أو على الأقل بالباطن؟".

بعد بضعة أيام من ذلك روى السيد كاف لصديقه: "لقد قطعت الآن صلتي بالزلمة. تصور أنه كان قبل أشهر قد طلب من المالك السابق للبيت بأن يقطع الشجرة التي تحجب عنه النور. لكن هذا امتنع عن ذلك، لأنه يريد الثمار. والآن، عندما انتقل البيت إلى جاري، فإنه اقتلع الشجرة فعلاً، وهي مليئة بالثمار غير الناضجة! لقد قطعت صلتي به بسبب تصرفه غير المتساوق".

أبوة الفكرة

كان المأخذ على السيد كاف بأنه كثيراً ما يكون عنده التمنّي أب الفكرة. أجاب السيد كاف: "ما من فكرة وجدت إلا وكان التمنّي أباها. إنما الخلاف يمكن أن يكون فقط حول: أي تمنٍ؟. ليس للمرء أن يظن أنه من الممكن أن لا يكون لطفل أي أب، إنما أن يخمن أن تحديد الأبوة صعب".

أصالة

اليوم تذمّرالسيد كاف من أن ثمة كثيرين يتباهون أمام الملأ بأنهم يستطيعون أن يؤلفوا بمفردهم كتباً كبيرة،والناس يقرّونهم على ذلك. لقد ألف الفيلسوف الصيني جوانع دسي، وهو ما زال في سن الكهولة،كتاباً من مئة

ألف كلمة، تسعة أعشارها استشهادات. مثل هذه الكتب لم يعد بالإمكان كتابتها عندنا، لأنه ينقصنا الفكر. تبعاً لذلك أصبحت الأفكار تصنع في الورشة الخاصة فحسب، حيث يرى نفسه كسولاً من لا يصنع العدد الكافي منها. بالطبع لن يكون هناك عندئذ أفكار تقتبس، ولا تعابير عن الأفكار يُستشهد بها. فكم هو قليل ما يحتاجه هؤلاء جميعاً لعملهم! مسكة قلم وبعض الورق، هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيعون عرضه! وبدون أية مساعدة، وبالمواد الضئيلة التي يقدر فرد واحد بقوة زنده أن يؤمنها، يقيمون أكواخهم! لا يعرفون أبنية أكبر من تلك التي بإمكان فرد واحد أن يبنيها!.

نجاح

رأى السيد كاف ممثلة تمرّ به فقال: "إنها جميلة". قال مرافقه: "لقد أحرزت حديثاً نجاحاً، لأنها جميلة". فامتعض السيد كاف وقال: "هي جميلة لأنها أحرزت نجاحاً".

حول تيار "الحاضر من أجل الحاضر"

فيما كان السيد كاف أحد الأيام ضيفاً على أناس غرباء إلى حد ما، اكتشف أن مضيفيه قد وضعوا أواني الفطور على طاولة صغيرة في زاوية من غرفة النوم، تُرى من السرير. فانشغل باله، بعد أن مدح في ذهنه أولاً مضيفيه، بأنهم يتعجلون التخلص منه. وراز في نفسه، ما إذا هو نفسه أيضاً كان سيحضّر الأواني للفطور ليلاً قبل أن يأوي إلى النوم. بعد شيء من التبصّر في الأمر وجد أنه يجد ذاته صحيح في أوقات معينه. كذلك وجد صحيحاً، أن يشغل الآخرون أنفسهم أحياناً لبعض الوقت بهذه المسألة.

السيد كاف والقطط

لم يكن السيد كاف يحب القطط. بدت لـه أنها ليست صديقة للبشر؛ بالتالي هو أيضاً لم يكن صديقاً لها. قال:" لو كـانت لنا نفس المصالح، لكان موقفها العدائي سيان عندي". غير أن السيد كاف لم يطردها من على كرسيه إلا مكرهاً . قال: "الاستلقاء للراحة عمل، ويجب أن ينال نجاحاً". كذلك كان، إذا ماءت قطط أمام بابه، يقوم من مجلسه، حتى في البرد، ويدعهاتدخل إلى الدفء. قال: "حسابها بسيط، عندما تنادي، يفتح المرء لها. وإذا أقلع المرء عن أن يفتح لها، فإنها لا تعود إلى المناداة. النداء، هذا تقدم".

حيوان السيد كاف المفضّل

عندما سئل السيد كاف، أي حيوان يفضّل، ذكر الفيل وعلل ذلك هكذا: الفيل يجمع المكر مع القوة. وهو ليس المكر الذي يكفي لأن يتخلّص من مطاردة أو أن يحظى المرء بطعام، بحيث لا يلفت النظر، بل المكر الذي يتصرف بالقوة للقيام بالمهام الكبيرة. حيث يكون هذا الحيوان، يترك أثراً عريضاً. ومع ذلك فهو طيب القلب، يفهم الدعابة. هو صديق طيب، كما أنه عدو طيب، ضخم جداً وثقيل، إنما أيضاً سريع جداً. خرطومه يُدخل للجسد الهائل أيضاً أصغر المأكولات، حتى الجوز. أذناه قابلتان للتوجيه: لا يسمع إلا ما يروق له. كما أنه يعمّر كثيراً. وهو أيضاً اجتماعي، وهذا ليس فقط تجاه الفيلة. في كل مكان يحبه الناس مثلما يخشونه. بعض الهزل يجعل بالإمكان أن يقوم المرء حتى باحترامه. لديه جلد سميك، تتكسّر عليه السكاكين، لكنه رقيق العاطفة. يمكن أن يحزن. يمكن أن يغضب. وهو

يرقص برغبة. يموت في الأدغال. يحب الأطفال والحيوانات الأخرى الصغيرة. هو رمادي ولا يثير الانتباه إلا بضخامته. لا يؤكل. يستطيع العمل جيداً. يشرب برغبة ويصبح مرحاً. وهو يفعل شيئاً للفن: يقدّم العاج.

العصر القديم

أمام صورة "تكوينية" للرسام لوند شتروم، تعرض بضع أباريق ماء، قال السيد كاف: "صورة من العصر القديم، من عصر بربري! وقتذاك ما كان الناس يميّزون الأشياء، لم يكن المدوّر يظهر لهم مدوّراً، ولاالمدبّب مدبّباً. وكان على الرسامين أن يضعوا الأمور في موضعها وأن يعرضوا للزبائن أشياء معينة، جليّة، ذات أشكال محدّدة؛ كانوا يرون الكثير من الأشياء المبهمة، المتداخلة، غير الموثوقة، لذلك كانوا نهمين إلى النزاهة، بحيث أنهم كانوا يهلّلون للرجل الذي لا يساوم على جنونه. كان العمل موزعاً بين كثيرين، هذا ما يراه المرء من هذه الصورة. أولئك الذين حدّدوا الشكل، لم يهتموا للغاية من الأشياء، فمن هذا الإبريق لا يستطيع المرء أن يصبّ الماء. لا بد أن كثيراً من الناس كانوا وقتذاك يُعتبرون مجرد أشياء للاستخدام. وضد هذ أيضاً يجب أن يتوجه الفنانون. عصر بربري، ذلك العصر القديم". ولقد لُفت نظر السيد كاف إلى أن الصورة من العصر الحالي. فقال السيد كاف حزيناً: "نعم، من العصر القديم".

قضاء

كثيراً ما ذكر السيد كاف كمثال يحتذى بشكل ما لائحة قضائية للصين القديمة، تقضي في حالات القضايا الكبيرة باستقدام قضاة من مناطق

بعيدة. هكذا ستكون رشوتهم أصعب بكثير (حتى لو كانوا قابلين للرشوة)، ذلك لأن القضاة المحليين يراقبون نزاهتهم ـ وهم أناس ضليعون في هذا المجال تحديداً وينوون لهم السوء. كذلك لا يعرف القضاة المستقدمون عادات واحوال المنطقة من خلال خبراتهم اليومية. فكثيراً ما ينال الباطل ببساطة لباس الحق لكثرة حدوثه. كان على القضاة الجدد أن يستمعوا إلى كل شيء من جديد، فيكتشفون من ذلك ما يلفت النظر. وأخيراً، ما كانوا مضطرين، من أجل فضيلة الموضوعية لأن يسيئوا إلى فضائل أخرى مثل الإعتراف بالجميل ومحبة الأطفال وسلامة النية تجاه المعارف الأقربين، أو لأن تكون لديهم الشجاعة الكافية لكسب أعداء في محيطهم.

جواب وجيه

سئل عامل أمام المحكمة، ما إذا كان يريد أن يقسم اليمين العلماني أم الكنسي. فأجاب: "أنا عاطل عن العمل". ـ "هذا لم يكن مجرد شرود في الذهن"، قال السيد كاف، "فبهذا الجواب عبّر عن أنه في وضع لم يعد فيه لمثل هذه الأسئلة، بل ربما لإجراءات المحكمة برمتها، أي معنى".

سقراط

بعد مطالعة كتاب حول تاريخ الفلسفة تحدث السيد كاف باستهجان عن محاولات الفلاسفة، لأن يفترضوا الأشياء غير قابلة للإدراك من حيث المبدأ. قال: "عندما ادّعى السفسطائيون أنهم يعرفون الكثير دون أن يكونوا قد تعلموا شيئاً، تقدم السفسطائي سقراط بادعائه المتغطرس، بأنه يعلم أنه لا يعلم شيئاً. كان يتوقع المرء أن يُضيف إلى جملته: لأنني أنا أيضاً لم أتعلم شيئاً.

(كي نعلم شيئاً، يجب أن نتعلم). لكن يبدو أنه لم يزد على قوله، ولعل التصفيق الهائل الذي انفجر بعد جملته الأولى والذي استمر ألفي سنة قد ابتلع أي جملة تالية".

الوزير المفوّض

حديثاً تكلمت مع السيد كاف عن حادثة الوزير المفوض لدولة أجنبية، السيد سين، الذي قام في بلدنا بإنجاز مهام معينة لصالح حكومته والذي بعد عودته ـ كما علمنا متأسفين ـ عوقب بقسوة، مع أنه عاد بنجاحات كبيرة. قلت: "اتهموه بأنه من أجل إنجاز مهامه قد تمادى في اتصاله بنا، نحن الأعداء. فهل تعتقد أنه كان سيحقق نجاحاً دون هكذا سلوك؟ ـ "بالتأكيد لا"، قال السيد كاف، "كان عليه أن يأكل جيداً، كي يستطيع التفاوض مع الأعداء، أن يتزلف للمجرمين وأن يتندّر عن بلاده، كي حقق هدفه". سألته: إذن تصرف بشكل صحيح؟". فقال السيد كاف ساهيا: "لقد تصرف هنا بشكل صحيح". ثم أراد السيد كاف أن يودعني. لكني استوقفته من كمّه. وهتفت مستنكراً:" فلماذا إذن عومل بهذه المهانة، عندما عاد؟". قال السيد كاف بلا مبالاة: "لعله تعوّد على الطعام الطيب، وتابع اتصاله بالمجرمين وأصبح متردداً في قراراته. وهنا يتوجب عليهم أن يعاقبوه". فسألته مذهولاً: "وهل هذا برأيك تصرف صحيح من قبلهم؟ ". قال السيد كاف: "نعم، بالطبع، فكيف كان عليهم أن يتصرفوا؟ كان لديه الجرأة والفضل بأن يتولى مهمة قاتلة. وقد مات في سبيلها. أكان عليهم بعدئذ، بدل أن يدفنوه، أن يدعوه يفسد في الهواء وأن يتحملوا نتنه؟".

الدافع الطبيعي للملكية

عندما كان أحدهم يذكر دافع الملكية في مجتمع ما على أنه طبيعي، كان السيد كاف يروي القصة التالية عن صيادي السمك من السكان الأصليين: "على الشاطئ الجنوبي من ايسلاندا يوجد صيادو سمك يقسمون البحر هناك بواسطة عوّامات راسية بشكل دائم إلى قطع يتوزعونها فيما بينهم. وهم شديدو التعلق بهذه الحقول المائية على أنها ملك لهم. يشعرون بأنهم مجبولون معها، فلا يتخلون عنها أبداً، حتى لو لم يعودوا يرون فيها أي سمك، ويزدرون سكان مدن المرافئ الذي يبيعونهم ما يصطادون، لأنهم يرون فيهم جنساً من البشر السطحيين المفطومين عن الطبيعة. أما هم فيسمون أنفسهم مائيي المستوى. عندما يصطادون سمكات ضخمة، يحتفظون بها على أنها ملك لهم. منذ بعض الوقت تسوء حالتهم الاقتصادية، لكنهم يرفضون باصرار كل محاولات الاصلاح، لدرجة أنهم أسقطوا عدة حكومات لم تحترم عاداتهم. مثل هؤلاء الصيادين يقدمون برهاناً قاطعاً على سلطة دافع الملكية الذي يخضع له الإنسان بحكم الطبيعة".

لو كانت أسماك القرش بشراً

سألت الابنة الصغيرة لصاحبة البيت السيد كاف: "لو كانت أسماك القرش بشراً، هل ستكون عندئذ ألطف تجاه الأسماك الصغيرة؟". قال: "بالتأكيد. لو كانت أسماك القرش بشراً، لأقامت في البحر أقفاصاً جبارة، مليئة بشتى الأغذية، النباتية والحيوانية. ولحرصت على أن يكون للأقفاص على الدوام ماء نظيف ولاتخذت جميع الإجراءات الصحية اللازمة. لو مثلاً انجرحت زعنفة سُميكة، فإنه سيوضع لها رباط على الفور، كي لا تفقدها أسماك القرش

قبل الأوان. وكي لا تصبح السُميكات مكتئبة، ستقام لها أعياد مائية، ذلك لأن السميكات المرحة ألذ طعماً من السُميكات المكتئبة. من الطبيعي أنه ستكون هناك أيضاً مدارس في الأقفاص الكبيرة. في هذه المدارس ستتعلم السميكات كيف تسبح في بلاعيم أسماك القرش. ستتعلم مثلاً جغرافياً، كي تستطيع أن تجد أسماك القرش الكبيرة التي تستلقي كسولة في مكان ما. المهم طبعاً هي التربية الأخلاقية للسميكات. سوف تتعلم أن أعظم الأعمال وأجلها تتحقق عندما تضحي السميكة بنفسها راضية، وأن تثق جميع السميكات بأسماك القرش، وخاصة عندما تقول هذه بأنها تسعى لمستقبل مشرق. سوف تُلقّن بأن هذا المستقبل لن يتأمن إلا إذا تعلمت الطاعة. ويجب على السميكات أن تقي نفسها من كل النزعات المنحطة والمادوية الأنانية والماركسية، وأن تبلغ فوراً أسماك القرش، عندما تصدر عن واحدة في صفوفها نزعة كهذه. لو كانت أسماك القرش بشراً، فإنها بالطبع ستثير أيضاً الحروب فيما بينها، كي تحتل أقفاصاً أجنبية وسميكات أجنبية. ستقوم بالحروب بواسطة سميكاتها الخاصة. وسوف تُعلّم السميكات بأن بينها وبين سميكات أسماك القرش الأخرى فروقاً هائلة. سيذيعون، إن السميكات كما هو معلوم خرساوات، لكنها تصمت في لغات مختلفة تماماً ولذلك يستحيل التفاهم بينها. كل سميكة تقتل في الحرب بضع سميكات أخرى، معادية، صامتة في لغة أخرى، ستمنح وساما صغيراً من الطحلب البحري وتعلن بطلة. لو كانت أسماك القرش بشراً، لوجد عندها بالطبع أيضاً فنون. لوجدت صور جميلة، تعرض فيها أسنان أسماك القرش بألوان أخاذة، وبلاعيمها كمنتزهات خالصة، يلهو المرء فيها بابتهاج. أما المسارح في قاع البحر فستعرض كيف تسبح السميكات بشجاعة بطولية في بلاعيم القرش، والموسيقى ستكون جميلة لدرجة أن جموع السميكات ستتدفق مع أنغامها، والفرقة في المقدمة، حالمة وغارقة في أحلى الأفكار، إلى بلاعيم

القرش. كذلك سيكون هناك أديان، لو كانت أسماك القرش بشراً. سوف تُعلّم السميكات أن حياتها الصحيحة لن تبدأ إلا في جوف أسماك القرش. وعلى فكرة، لو كانت أسماك القرش بشراً، فلن تبقى السميكات، كما هي الآن، متساوية. بعض السميكات سوف تتقلد مناصب رسمية وتترأس الأخريات. بل إن السميكات الأكبر قليلاً سيحق لها افتراس السميكات الأصغر. ولن يلاقي هذا سوى القبول من أسماك القرش، لأنها بذلك ستحصل أكثر من ذي قبل على قطع أكبر. والسميكات الأكبر ذوات المناصب ستحفظ النظام فيما بين السميكات، وتصبح معلمات وضابطات ومهندسات الخ في المباني القفصية. باختصار، لو كانت أسماك القرش بشراً، لوجدت وقتئذ،وقتئذ فقط حضارة في البحر".

المديح

عندما سمع السيد كاف، أن بعض تلامذته السابقين مدحوه، قال: "بعد أن يكون التلاميذ قد نسوا تماماً أخطاء المعلم، يكون هو بالذات ما زال يذكرها".

انتظار

انتظر السيد كاف شيئاً لمدة يوم، ثم لمدة أسبوع، ثم بعدئذ لمدة شهر. وفي النهاية قال: "كنت أستطيع أن أنتظر الشهر بشكل جيد، إنما ليس هذا اليوم وهذا الأسبوع".

عبد الغاية

طرح السيد كاف الأسئلة التالية:

"كل صباح يعزف جاري موسيقى بصندوق الحاكي. لماذا يعزف موسيقى؟ سمعت، لأنه يتمرن. لماذا يتمرن؟ سمعت، لأنه يحتاج إلى قوة. لأي شيء يحتاج إلى قوة؟ قال، لأن عليه أن يتغلب على أعدائه في المدينة. لماذا عليه أن يتغلب على الأعداء؟ سمعت، لأنه يريد أن يأكل".

بعد أن سمع السيد كاف أن جاره يعزف موسيقى كي يتمرن، يتمرن كي يكون قوياً، يريد أن يكون قوياً كي يهزم أعداءه، يهزم أعدءه كي يأكل، طرح سؤاله: لماذا يأكل؟.

الفن في أن لا ترشي

نصح السيد كاف تاجراً باستخدام رجل بسبب نزاهته. بعد اسبوعين عاد التاجر إلى السيد كاف وسأله: "ماذا عنيت بالنزاهة؟". قال السيد كاف: "عندا أقول أن الرجل الذي استخدمته نزيه، أعني بذلك أنك لا تستطيع رشوته". - "هكذا"، قال التاجر متكدراً، "وها أنا عندي سبب لكي أتخوف من أن زملتك يقبل حتى أن يرتشي من أعدائي". - "هذا مالا أعلمه"، قال السيد كاف دون اهتمام. فهتف التاجر بمرارة: "وهو يردد كلامي دائماً، إذن فهو يقبل الرشوة مني". ابتسم السيد كاف معجباً بنفسه وقال: "مني لا يقبل الرشوة".

حب الوطن، كراهية الأوطان الأخرى.

كان السيد كاف لا يرى ضرورة في أن يعيش المرء في بلد معين. قال: "أستطيع أن أجوع في كل مكان". لكنه في أحد الأيام سار عبر مدينة محتلة من عدو البلاد التي يعيش فيها. وإذا بضابط من الأعداء يقابله ويرغمه على أن ينزل عن الرصيف. ونزل السيد كاف واكتشف في نفسه أنه كان

مستشاراً ضد هذا الرجل، وليس فقط ضد هذاالرجل، بل خصوصاً ضد البلد الذي ينتمي إليه، بحيث كان يتمنى أن تبتلعه الأرض. وتساءل السيد كاف: "فلماذا أصبحتُ في تلك الدقيقة متعصّباً قومياً؟ ذلك لأنني التقيت بمتعصّب قومي. ولهذا، فيجب اجتثاث الغباء. لأنه يجعل من يلتقيه غبياً".

جوع

كان السيد كاف قد أجاب بخصوص سؤال عن الوطن: "أستطيع أن أجوع في كل مكان". وقد سأله مستمع دقيق، كيف له أن يقول، إنه يجوع، بينما في الواقع لديه ما يأكله. فبرر السيد كاف لنفسه قائلاً: "ربما أردت القول، إنني أستطيع أن أعيش في كل مكان، إن كنت أريد العيش حيث يسود الجوع. أعترف بأن ثمة فرقاً كبيراً بين أن أجوع أو أن أعيش حيث يسود الجوع. ولكن اسمح لي أن أبرر موقفي بالقول، بالنسبة لي الحياة حيث يسود الجوع، إذا لم تكن سيئة مثل الجوع، فإنها على الأقل سيئة جداً. لعله ليس مهماً بالنسبة للآخرين أن أجوع، لكنه مهم أن أكون ضد أن يسود الجوع".

اقتراح، عندما لا يؤخذ بالاقتراح

كان السيد كاف يوصي زيادة في الخير بأنه من الأفضل أن يرفد كل اقتراح باقتراح آخر، في حالة أنه لم يؤخذ بالاقتراح الأول. عندما نصح هو مثلاً أحدهم، وكان في وضع سيء، بتدبير معين، يضرّ بأقل ما يمكن من الناس الآخرين، وصف له أيضاً تدبيراً آخر، أقل طيبة، إنما ليس الأكثر لؤماً. قال: "من لا يستطيع الكل، لا يجوز أن ندع له الأقل".

الموظف الذي لا يُستغنى عنه

سمع السيد كاف من يثني على موظف يمارس مهامه منذ وقت طويل نسبياً، بأنه لا يُستغنى عنه، إلى هذا الحد هو موظف جيد. فسأل السيد كاف منزعجاً: "كيف لا يُستغنى عنه؟". قال مادحوه: "ما كان العمل ليسير بدونه". فقال السيد كاف: "كيف يكون عندئذ موظفاً جيداً، إذا كان العمل لا يسير بدونه؟ كان لديه الوقت الكافي، كي ينظم عمله إلى الحدّ الذي يمكّن من الاستغناء عنه. فيما يشغل نفسه حقاً؟ أنا أقول لكم: بالابتزاز!".

أسئلة مقنعة

قال السيد كاف: "لاحظت أننا ننفّر الكثيرين من فكرنا من خلال أننا نعرف لكل شيءٍ جواباً. ألا يمكننا على سبيل الدعاية أن نضع قائمة بالمسائل التي تبدو لنا كلياً غير محلولة؟".

عناء الأفضلين

سئل السيد كاف: "فيمَ تعمل؟". أجاب: "أنا مجهد جداً، إنني أحضّر لغلطتي التالية".

إساءة محتملة

اتُهم أحد مساعدي السيد كاف بأنه يقف منه موقفاً غير وديّ. فدافع عنه السيد كاف: "أجل، إنما فقط من وراء ظهري".

مدينتان

فضّل السيد كاف المدينة باء على المدينة ألف، فقال: في المدينة ألف أحبني الناس، لكن في المدينة باء عاملوني بلطف. في المدينة ألف كانوا مفيدين لي، لكن في المدينة باء احتاجوا لي. في المدينة ألف دعوني إلى المائدة، في المدينة باء دعوني إلى المطبخ".

اللقاء

التقى بالسيد كاف رجل لم يره منذ مدة طويلة. فحياه بقوله: "أنت لم تتغيّر إطلاقاً". فقال السيد كاف: "اوه"، وشحب لونه!.

سائقان

سئل السيد كاف عن اسلوب عمل اثنين من رجال المسرح، فقارن بينهما كما يلي: "أنا أعرف سائقاً يعرف قواعد المرور جيداً ويلتزم بها ويعلم كيف يستفيد منها. يدري متى يشدّ مسرعاً، ومتى يحافظ على السرعة النظامية، كي يصون محركه، وهكذا بحذر وشجاعة يجد طريقه بين بقية المركبات. وأعرف سائقاً آخر، يتصرف بغير ذلك. هو مهتم بأكثر من طريقة، مهتم بكامل السير ويشعر أنه مجرد جزيء منه. لا يعي حقوقه ولا يتميز شخصياً بشيء خاص. يسوق وعقله في السيارة التي أمامه والسيارة التي خلفه، متسلياً على الدوام بتقدم كل السيارات، بل وحتى المشاة".

السيد كاف يقود سيارة

تعلم السيد كاف قيادة السيارات، لكنه في البدء لم يسق بشكل جيد. قال معتذراً: "تعلمت للتو قيادة السيارات. على أنه يجب أن يكون ممكناً

للمرء قيادة سيارتين، أي كذلك أيضاً السيارة التي قدام سيارته. فعندما يراقب المرء كيف هي أحوال السير بالنسبة للسيارة التي قدامه ويحكم على معيقاتها، عندئذ فقط يعرف المرء كيف يتصرف بالنسبةلسيارته".

اجراءات ضد القمع

عندما تكلم السيد كاف، هو المفكر، في صالة أمام كثيرين ضد القمع، لاحظ كيف انفضّ عنه الناس وولوا. تطلع حوله فرأى وراءه واقفاً: القمع. سأله القمع: "ماذا تقول؟". أجاب السيد كاف: "أتكلم مؤيداً القمع". وعندما غادر السيد كاف، سأله تلامذته عن صلابته. فأجابهم السيد كاف: "ليس لديّ صُلب(*) للتحطيم. أنا بالذات يجب أن أعيش أطول من القمع". وروى السيد كاف القصة التالية:

في أحد الأيام من عهد اللاشرعية دخل إلى مسكن السيد إغه، الذي تعلّم أن يقول لا، أحد الأشخاص وأبرز له تصريحاً صادراً باسم الحاكمين للمدينة يتضمن وجوب امتلاكه لكل مسكن يطأه، وكذلك نواله لكل طعام يطلبه، وكذلك أن يخدمه كل رجل يراه. جلس العنصر على كرسي، طلب طعاماً، اغتسل، استلقى، ثم طلب وهو يدير وجهه نحو الحائط قبل أن يغفو: "هل ستخدمني؟". دثّره السيد إغه بغطاء، وكشّ عنه الذباب، وسهر على نومه، وبقي على هذا المنوال مطيعاً له مدة سبع سنوات. لكنه، مهما فعل له، كان يحترس من فعل شيء واحد، وهو أن يقول كلمة واحدة. وبعد مضي

(*) في الألمانية **Rueckgrat**، استخدم التلامذة المعنى المجازي وهو قوة العزيمة (هنا: الصلابة)، واستخدم االسيد كوينر المعنى المادي وهو العمود الفقري (هنا: الصُلب).

سبع سنوات، وقد أصبح بديناً من كثرة الأكل والنوم والأمر، مات العنصر. هنا لفّه السيد إغه بالغطاء البالي، وسحبه إلى خارج البيت، وغسل المكان وطرش الجدران، وتنفس الصعداء وأجاب: "لا".

التنجيم

دعا السيد كاف الناس الذين يطلبون قراءة طالعهم، أن يذكروا لمنجميهم تاريخاً من الماضي، يوماً جرى لهم فيه حادث سعد أو نحس غير عادي. عندئذ يجب أن يتمكن المنجم بقراءة الطالع من الكشف بعض الشيء عن هذا الحدث. لكن السيد كاف لم يلاق نجاحاً بهذه النصيحة. ذلك لأن المؤمنين بالتنجيم تلقوا بالفعل من منجميهم معلومات عن موافقة أو معاكسة النجوم بما لا يتفق مع ما جرى لهم، غير أنهم قالوا بعدئذ بامتعاض، إن النجوم لا تدل إلا على إمكانيات معينة وهذه يمكن بلا ريب أن تكون قد حدثت في التواريخ المعطاة. وقد بدا السيد كاف متفاجئاً بذلك، وطرح سؤالاً ثانياً: "كذلك لا أفهم أن يكون البشر خلافاً لكل المخلوقات واقعين تحت تأثير النجوم. فلا شك أن هذه القوى لن تدع ببساطة الحيوانات بمنجاة منها. ولكن، ما الذي يحدث إذا كان إنسان ما من برج الحوت، إنما يحمل برغوثاً من برج الثور، يغرق في النهر؟ عندئذ سيغرق البرغوث معه على الأرجح، مع أن طالعه قد يكون سعداً. هذا لا يعجبني".

* * *

حرب البلقان

كان رجل عجوز مريض يسير في البلاد، عندما انقضّ عليه أربعة فتيـان وسلبوه ما بحوزته. ـ فتابع العجوز طريقه حزيناً. لكـن عنـد زاويـة الشـارع التالي راعه أن يرى، كيف أن ثلاثة من هؤلاء اللصوص ينقضّون على الرابع، كي يخلصّوه منهوباته. غير أن هذا سقط أرضـاً أثنـاء الشـجار. وبكـل طيبـة رفعه العجوز عـن الأرض، وغـادر مسـرعاً. لكـن في المدينـة التاليـة تم إيقافـه وإحضاره أمام القاضي. هناك وقـف اللصـوص الأربعـة، الآن متفقـين ثانيـة، وادعوا عليه. فكان قرار القاضي كالتالي:

علىالرجل العجوز أن يعيد للفتيان الأربعة ما تبقى بحوزته. "لأنه"، قـال القاضي الحكيم والعادل، "بغير ذلك يمكن أن يثير الأشخاص الأربعـة قلاقـل في البلاد".

* * *

قصة الذي لم يصل متأخراً أبداً

كان فيما مضى واحد ذكي، ذكي جداً. في غاية الذكاء. كان ذكياً لدرجة أنه كان يسمع في الأماسي الساكنة الأشجار تنمو والسحلايات المسلولة تسعل. أجل - بل كان أذكى من ذلك. هذا ما اعتقده جميع الناس، وأكثر اعتقاداً بذلك كان هو بالطبع. وهذا بالتأكيد حجّة دامغة. فهو لا بدّ يعرف نفسه. إذن: لقد كان فيما مضى ذكياً جداً. وكان هذا ذا قيمة كبيرة. لكن كانت فيه سجيّة أكثر قيمة بمئة، بل بألف مرة. وهي أنه لم يصل متأخراً أبداً. "كل شيء، كل شيء يمكن أن يحدث في العالم، أما أن أصل مرة متأخراً، فهذا غير ممكن قطعاً، مثلما أن الجمل ليس حماراً. أي نعم"، هذا ماقاله هو. ولابد أنه عليم بذلك. أليس كذلك؟

وهكذا ترعرع الشاب إلى رجل وزاد حكمة وفضيلة. أقرباؤه فكّروا بجديّة، كيف ستتطوّر الأمور، وما إذا كان هناك فطنة بقدر ما كان لدى الولد منها.

في هذه الأثناء، وبينما كان المعارف والأقارب يتشاورون ويتكلمون بكلمات كبيرة، ماذا يمكن أن يصبح عليه هذا الشاب الموهوب، كان هو يفكر باهتمام بالغ بهذه المسألة الهامة.

كان مازال متردداً ما بين أمير شعراء وقيصر جنود.

فكل واحدة من المهنتين كان لها حسناتها.

أمير شعراء؟ همْم، هذا ما يمكن للمرء أن يكونه. و لم يكن لدى الأقرباء ما يعترضون به على ذلك. فقد كان قد نظم أشعاراً رائعة. موهبته كانت مثبتة. قصيدته الفخمة "الحب" كانت تحفة فنية. هذه اللازمة:

الحب الإلهي الرائع

من قلب مفعم بالانفعال

في واحد من أجمل الدوافع

يقهر كل الآلام

هي فوق كل نقد. وأفضلية قصيدة أخرى له ثبتت من خلال أن القصيدة نفسها نشرت في إحدى السنوات الأخيرة لـ "الغارتن لاوبة"[١]. ـ إذن، أمير شعراء، هذا جدير بأن يوضع في الحسبان.

رقم٢: قيصر جنود، هذا أيضاً ليس سيئاً.

بالطبع، في ظل امبراطورية فرنسا ـ اسبانيا لن يكون الشاب الموهوب قيصر جنود. لقد كان من السهل جداً احتلالها. ببساطة يعقد المرء صداقة حميمة مع الملك السابق للبرتغال، ثم يرجع معه إلى اسبانيا ويعلن نفسه، بعد أن قُتل هذا الملك، قيصراً. في غاية السهولة، أليس كذلك؟ لقد كشف عن موهبته العسكرية قبل الأوان.

---

١) الغارتن لاوبه (حرفياً:"العريشة") صحيفة اسبوعية مصورة، منوعة للعائلات. تأسست عام ١٨٥٣ واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٤٣. بدأت بورجوازية ديمقراطية، ثم أصبحت بعد ١٨٧٠/١٨٧١ مرآة العاطفية البورجوازية الصغيرة المبتذلة. ـ ملاحظة من المترجم، استناداً إلى معجم ما ير الجديد، لايبزيغ ١٩٧٣،ج٥،ص ٢٥٦.

إذن، فقيصر جنود مهنة لا يمكن ازدراؤها. ــ هكذا تردّد المسكين الموهوب بهذا الشكل، ما بين مهنتين، إلى هنا وهناك. ذلك لأن كلا المهنتين لهما مساوئهما أيضاً. فأمير الشعراء، عليه للأسف أن يكون قادراً على نظم شيء من الشعر. وعلى قيصر الجنود قبل أن يعزل الملك الغبي، أن يبحث عنه أولاً.

وتردّد طويلاً.

بالأخير قرّر أن يصبح صبياً في أحد المحلات. وهكذا أصبح. ذلك أن ماعزم عليه مرة، هو ما نفذه أيضاً. وكان سعيداً بين معلبات السردين وعلب القبّعات.

أصبح مثله الأعلى أن يصبح ملك البورصات، إنما واحداً يستطيع أن يسمّي آل روتشيلد أولاد الشحادين! ـ وهنا، في هذا الوقت، عندما أصبح عمره ١٥ سنة، جرى حدث. فالرجل الشاب الموهوب عشق. كانت العاقبة الأولى لذلك أن صبي الدكان الذي مسّه الايروس النهم للزهور، أمير الشعراء سابقاً، أطلق قصيدة، قصيدة... اوه، اوه! وأية قصيدة! كانت صرحاً، إلهاماً. بلغت ٢٠ مقطعاً وملأت دفتراً كاملاً. كل مقطع ضم ١٠ أسطر، وكل سطر ١٢ كلمة. ـ كانت هائلة! عملاقة باهرة! ـ

غير أن هذا لم يكن إلا بالأول. بعدئذ أقسم أن يجعل من "الحسناء غامقة العينين" زوجة له. هذا ما أقسم عليه بالضوء المسائي السحري لشمعة وبلحيته. إذ ذاك قبض على شعرتي لحيته التي يبلغ طول الواحدة منهما سنتيمتراً واحداً، وللأسف سقطت أثناء ذلك واحدة منها. ــ ثم انطلق إلى العمل. هنا يتبين أن لدى أمير شعرائنا عيباً. لقد كان خجولاً. ـ فكلما التقى بزوجته المستقبلية، تحوّل عنها إلى مسافة بعيدة.

وهكذا مضى شهر وراء شهر، سنة وراء سنة، عقد وراء عقد. قرن وراء قرن. ـ أجل، لقد بالغت. انقضى شهران فقط. ثم لحظها في أحد الأيام، وكانت السماء تمطر، تتأبط ذراع رجل آخر. في ذلك المساء لم يعرف، كيف عاد إلى البيت. جلس في حجرته الموحشة وحيداً، وقد تخلّى عنه اللّه والناس، وبكى.

لاشك أنها علامة شؤم، عندما يبكي الرجال الجادّون...

غير أنه بعدئذ حلق لحيته، أي أنه نتف الشعرة الأخيرة من ذقنه. ـ أصبح كئيباً. جلس طوال أيام غارقاً في أحاسيس سوداوية خلف علب السردين، وهو يفكر. كان يفكر في مشكلة: مشكلة غريبة. وهي: كيف حدث أن واحداً ذكياً هكذا يصل متأخراً؟؟؟

جلس طويلاً وهو يفكر...

مع الزمن أصبح مجنوناً. كان يتمتم باستمرار: وأنا لا أصل متأخراً.

وإذا لم يمت بعد، فإنه مازال عائشاً حتى اليوم...

* * *

السفر في مقصورة

صعد أحدهم إلى قطار ممتلئ، حيث وقف المسافرون مزروبين مثل السردين، وفتح إحدى المقصورات. فجرى ردّ الباب من الداخل. دفعه الرجل مرة أخرى، فرأى رجلاً بديناً مع امرأتين، تهدهدان طفلين على حجريهما. "أغلق الباب"، قال الرجل البدين مستاءً، "مقصورة للمصابين في الحرب". فوقف الرجل مثل سردينة في الممشى، مع الأمل ساعتين. بعدئذ دفع الباب ثانية بيد متصلّبة وقال: "هل لديك أوراق"(*)؟ هنا توجد مقاعد شاغرة. معذرة!". كان الرجل البدين ينتصب واقفاً، كلما انفتح الباب. لماذا، هذا ماكان يصعب تخمينه. قال: "هنا لايمكنك الدخول". ونظر المسافر بجدّية في وجهه، كان رجلاً شاباً، وقال: "ألا ترى في هذا استهتاراً؟". وأراد الرجل البدين أن يغلق الباب، لكن الشاب حال دون ذلك بقدمه. لم يكن مهماً بالنسبة له أن يدخل ليجلس، لكن هؤلاء الناس في الداخل غير محقين، وعليه أن لا يخرج من أجلهم. هذا ما طالب به الشعور بالعدالة لدى الإنسان

(*) المقصود: هل لديك أوراق تثبت ادعاءك.

الشاب. قال: "سوف أجلس هنا. أبعد الكارتونة من هنا!". فوقف البدين ثانية، وكانت على جبينه شبه ماسات من العرق. قال: "لتكن عندك شفقة على النساء. معنا أيضاً أطفال، يجب أن نهدهدهم!". ــ "هل عليّ أن أقف هنا؟"، سأل الشاب، "أنا قادر بسهولة على الوقوف، لكنني لا أريد. فهذا ليس صواباً". وقام البدين بآخر محاولة: "سوف لن يعجبك هذا. الأطفال يكون على الدوام". لكن الشاب جلس. لم يكن جلوسه أكثر راحة. فالمقصورة كانت نصف مظلمة، والمرأتان تهدهدان شقيهما، وهذان كانا يبكيان مثل الشوكة في الخاصرة. غير أن الشاب كان مغتبطاً، لأن الحقّ انتصر. فبقي جالساً، جالساً بارتياح حتى المحطة الأخيرة.

بعد ثلاثة أيام مرض بالحمى القرمزية و لم يستعد صحته أبداً. فالناس في المقصورة كانوا مسافرين مع طفلين مصابين بالحمى القرمزية.

*　　*　　*

لكمة ذقن

بعد أمسية مصارعة في قصر الرياضة جلس بعض الناس، أربعة بمن فيهم أنا، وكانوا مازالوا نسبياً في مزاج متعطّش للدماء، يشربون كأساً من البيرة في حانة في شارع بوتسدامر، زاوية شارع بيلوف، وأحدهم، وهو ملاكم محترف، يسرد قصة ذات عبرة عن سقوط فريدي ما ينكه، قصة "لكمة الذقن".

"فريدي"، قال الرجل وهو ينظر بحول ويستند بمرفقه على بقعة بيرة، "فريدي كانت أمامه قبل عامين فرصة العمر. فريدي اسمه طبعاً فريدريش. غير أنه كان لمدة نصف سنة هناك[1]، على فكرة كانت نصف سنة غامضة نوعاً ما، لايريد بأي حال أن يتكلم عنها. بالإضافة إلى بعض الأسماء غير المعروفة بتاتاً على قائمة الأرقام القياسية التي تخصّه ودولارين أو ثلاثة دولارات ورقية سحبها سهواً من جيب سرواله، كان أهم ما أحضر معه من هناك اسمه الأول فريدي.

---

١) يقصد الكاتب أن بطل قصته كان في بلد آخر.

باسم التدليل فريدي لاكم بضعة أشهر في المدن الأصغر من كولونيا وفي أنحاء الريف، ثم دعي فجأة "لكمة الذقن" وكان له بذلك اسم مفتخر.

عندما وقع نظرنا عليه لأول مرة، ابتسمنا في البدء ساخرين من الطريقة، كيف حضّر لمباراته، وأخذ لنفسه صوراً ولبس سروالاً نسائياً خالصاً، باللون الليلكي. لقد كان الأغنج من بين من رأيتموهم يوماً في الحلبة، ياسيد. كان يجول كما في المسرح. لكنه بعدئذ هزم خصمه في الجولة الأولى بالضربة القاضية، وذلك بواسطة لكمة ذقنية كان يجيدها. أنتم تعلمون بلا شك أنه كان من وزن الديك؟ عموماً ليس لدى هؤلاء ضربة، وفريدي كان زيادة على ذلك ظاهرة هو جاء تماماً، إذا ما نظر المرء إليه هكذا. لكن بعدئذ كان يمتلك فجأة سرعة مثل المروحة بالإضافة إلى الاقتحام كما لو بقوة خمسين حصاناً، وفي النهاية كان الرجل بأكمله فعلاً ضربة ذقنية واحدة.

عندما جلسنا بعدئذ سوية وحطّمنا تقريباً كتفه وظهره من الدقّ، قال، إن هذا ليس إلا نتيجة للتماسك. ولايصبح المرء فعلاً غير مريح[1]، إلا إذا علم تماماً، أنه على أي حال يملك نفسه بيديه. وهو بالذات عليه منذ البدية أن يشعر بأنه لا يضرب رجلاً، بل يخترقه، بالتالي فإن اليد لايمكن على الإطلاق أن يوقفها شيء كالذقن. وقال المزيد من هذه الأشياء، وعلى كل كان جيداً بالنسبة له أن يصدّق ذلك، كما سبق أن رأينا. ففي هذا المساء نال فوزاً مبيناً وتطلّع مباشرة إلى المشاركة في مباراة البطولة.

بدا لنا جميعاً أنه مازال باكراً على ذلك، عندما سمعنا بالموعد، فم يبق على البطولة أكثر من ثمانية أسابيع. فريدي كان مغموراً بالسعادة، وأخذ

---

١) بالنسبة للخصم.

يتمرّن بشدة. حتى أنني كنت من بين الذين انتقاهم كشركاء في التمرين. بدا أنه قد ضمن السرعة سلفاً، ووزني الذي يزيد عنه بـ ١٥ كغ كان كافياً له، لكي يجرّب لكمته غير الطبيعية. مع ذلك حدثت خيبة لدى التمرين. وقد تأتت هذه من أنه لم "يتماسك" وأنه أيضاً لا يمكن للمرء أن "يخترق" الناس طوال عدة أسابيع. فهذا لم يكن ليعني شيئاً حاسماً. لكن الأهم هو أنه قام بالكثير من الأشياء السخيفة. بالطبع لا شأن لي، أنه ابتاع لنفسه دراجة نارية بالتقسيط، وأراد في تلك الأيام بالذات أن يتعلم قيادة الدراجة النارية. برأيي، أنه كان بامكانه أن ينتظر على ذلك. ولكن، إذا أضاف إلى ذلك عروساً، مع خطوبة جدّية وبيت زوجية رسمي في الأفق، وربما أيضاً مع أسرّة من خشب الجوز وخزانة كتب، فإنه يكون عندئذ قد تجاوز الحدود بلا شك. هكذا رجل، يحشر نفسه في هكذا مشروع ضخم كالخطوبة، في لحظة يتعلق فيها وجوده بمجرد خيط رفيع، يجعل عندئذ الكثير وربما كامل سعادته الحياتية معلّقاً بشيء يجب على كل حال أن يحصل أولاً. هكذا رجل لا يحقّ له من بعد أن يخسر. لكنني أقول لك، ياسيد، إذا تعلّقت بأمر أشياءُ كثيرة، فإن القضية فاسدة. على المرء أن يقدم على البطولة مثل بائع في دكانه. إذا باع شيئاً، فهذا جيد. وإذا لم يبع شيئاً، يبقى هناك مالك للدكان من أجل الليالي الأرقة. المهم، كانت المباراة في ١٢ أيلول.

في ١٠ أيلول كان فريدي منتهياً من التمرين. وفي ١٢ أيلول الساعة السابعة مساء جلسنا في هذا المحل، فريدي وأنا ومدير أعماله كامبه السمين. كانوا يعرفونه، هناك على الطرف الآخر، حيث يجلس الرجل الذي معه نكاشة الأسنان. بالطبع كان خطأً أن يجلس المرء هنا. أنتم ترون كيف يعبق الدخان والرطوبة في هذا المحل. لكن فريدي كان مسروراً بذلك، ولم يكن

يرى خيراً في أناس عليهم، بسبب رئتهم، أن ينتبهوا لكل نسمة هواء آذارية. بالمختصر المفيد، جلسنا في ضباب، ماكان المرء ليمرّ عبره بشرّاقة بخار، وطلبنا كامبه وأنا كأسي بيرة. وعن ذلك تمخّض في الـ ١٥ دقيقة التي تبقت لنا، أمر فظيع، لم يلحظه أحد غيري. فقد رغب فريدي في أن يشرب كأس بيرة.

بالفعل نادى النادل. لكن كامبه تدخّل عندئذ وقال بحميّة، إن هذا جنون مطبق، الآن قبل المباراة أن يأكل مسامير الحذاء أفضل له من أن يشرب بيرة.

تمتم فريدي "سخافة"، لكنه ترك النادل يذهب. بالنسبة لكامبه كانت القضية بذلك منتهية، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لفريدي. ثم ذكر كامبة مرة أخرى كل ما كان يعرفه عن خصم فريدي، من عيوب ومميزات. أما فريدي فكان يقرأ في صحيفة مسائية. وتكوّن لدي انطباع بأنه كان خلف قسم الإعلانات في الصحيفة مازال منشغلاً بالبيرة، بتعبير أدق مازال منشغلاً برغبته في البيرة.

بعد ذلك مباشرة وقف فريدي وسار الهوينى إلى مكان تقديم البيرة، دون أن ينتبه إليه كامبه. هناك وقف قليلاً، دون أن يزاحم، مرة مرتين ترك رجلاً آخر، ومرة ترك النادل يتقدمه. ثم تناول بتعبير وجه بليد بعض لفافات التبغ التي كان يدسّها في جيب صدريته.

عندما عاد إلى الطاولة، بدا متغيراً بعض الشيءن وأخذ يلعب باللفافات في جيب صدريته وبدا متكدراً بشكل فظيع. لكنه جلس ثانية بكل هدوء خلف صحيفته المسائية. الآن بدأت أنا، دون أن أعير حديث كامبه أي

اهتمام، بلعن البيرة. مازلت أذكر، أنني قلت، بأنه مسكر فاتر يثير القرف، هذا الذي لا يعرف المرء مصدره من أية مزبلة والذي يندس فيه التيفوس. فباتسم فريدي ابتسامة صفراء.

أعتقد أن صراعه ضد نفسه انتهى إلى حدّ بعيد. فقد كان بالنسبة له غير محتمل أن يجلس هنا دون أن يحقّ له الشرب. لأن شيئاً ماكان يتوقف على أن لا يتخاذل، وأنه مع ذلك كانت لديه الرغبة بأن يستقبل التيفوس، وكان أضعف من أن يفعل ماكان يشتهيه، وأنه أغاظه قبل أي شيء، أن يكون بهذا اللاتعقّل. في الوقت نفسه رأى كما يبدو فتاته بوجه الخطوبة، وأسرة خشب الجوز وخزانة الكتب، فنهض ودفع الحساب.

ذهبنا في سيارة أجرة صامتين إلى القصر الرياضي".

عندما وصل الملاكم بقصته إلى هذا الحدّ، لاحظ أن كمّه في بقعة البيرة، فنشّفه بالمحرمة. وبالرغم من أنه كان واضحاً لنا جميعاً كيف انتهت المباراة، فإنني سألت مع ذلك لمجرد استكمال القصة: "نعم، وبعد؟".

"لقد هزم في الجولة الثانية بالضربة القاضية." هل كنتم تنتظرون شيئاً آخر؟"

"لا، ولكن لماذا برأيك إذن هُزم بالضربة القاضية؟"

"لسبب بسيط. فعندما غادرنا المحل، علمت أن فريدي أخذ رأياً سيئاً عن نفسه".

"هذا واضح نوعاًما"، قلت أنا، "ولكن برأيك ماذا كان على رجل بوضع فريدي أن يفعل؟".

"برأيي، على الرجل أن يفعل دائماً مـايرغب بـه. أتعلـم، الحـذر هـو أبـو الضربة القاضية".

*   *   *

الموقف الطبيعي لموللر

كنا قد تناولنا الطعام، فجلسنا ندخن السيجار ونفتش في مخزوننا عن مواضيع للحديث. تناقشنا في الراهن، وأتينا بعدئذ بمجرد الحذر مرة أخرى على ذكر انحدار المسرح، ثم بعد أن تشجعنا شيئاً فشيئاً توصلنا إلى الحديث عن موللر، عن المهندس موللر، العدو اللدود. فموللر كان موضوعاً محرجاً، لأنه ـ كما ثبت ـ ،حتى لو لم يكن حاضراً،كان مثار شجار مؤكد.

كان لدينا ضده عدد معتبر من الحوادث القريبة زمنياً، والمؤلمة كفاية بالنسبة لنا. غير أن بوشر أراد أن يضع على بساط الحديث حادثة أقدم وإلى حدّ ما منسية. كان يريد، كما يبدو، أن يتخلص منها.

"خططت مرة مع موللر لمشروع تجاري"، بدأ بوشر حديثه، "لهذه الغاية سافرت معه بالطائرة. طرنا من برلين إلى كولونيا. فقد أراد موللر أن يجمعني بشركة أرادت أن تدرس مشروعي بغرض التسويق على نطاق واسع. كنا قد خططنا لأن نقوم بالأمر بصورة مشتركة. وموللر أراد أن يأخذ على عاتقه الجانب التجاري من الأمر، فأشرك، كما سبق القول، الشركة في المشروع.

قال موللر، إنه يعتقد أننا متناسبون مع بعضنا، فنحن نعرف بعضنا جيداً منذ زمن طويل، مثلما للأسف نعرفه جميعا.

إذن جلسنا في واحدة من هذه الأشياء الجميلة المريحة، المصنوعة في الحقيقة من الصفيح. وكان موللر منذ البداية في مزاج سيء، عزاها أمامي إلى منع التدخين. على كلٍ كان هو الذي وضع كامل ثقله لكي نسافر بالطائرة وليس بالقطار.

كنا نريد أن نبحث الأمر مرة أخرى، لكن تبين مباشرة أن هناك بعض الصعوبات، لأن ضجيج المراوح، وعددها ثلاثة، كان عالياً لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يتحدث بهدوء. وفور أن اشتغل المحرك، أي كنا ما نزال على الأرض، زمجر موللر نحوي قائلاً : "لايفهم المرء أية كلمة، مقرف!". وهذا مع أنه كان قد سافر بالطائرة أكثر من عشر مرات.

عندما ارتفعت الطائرة عالياً، توقف عن الزمجرة ، وجلس في مقعده "منكفئاً على ذاته" يتأمل الأفق. أما أنا فلم أكن سافرت من قبل بالطائرة، وبمعنى ما كانت في البدء عيناي كلها تدرس هذه الظاهرة . وعندما أصبحنا على علو مئة أو مئتي متر، وجهت نظري إلى موللر . فبدا لي للتو ـ ولا أهمية لأن تشكّوا في كلامي ـ أن موللر خائف.

لاحاجة لأن تقولوا شيئاً، أنا أعلم ، أن موللر كان في المشاة، فرقة الصدام إلخ. ولم ينل وسام EKI إلا لأنه غير منضبط، أنا أعلم. لكن الآن كان موللر خائفاً، ولم يجهد نفسه بتاتاً كي يخفي خوفه. كان ينظر باستمرار متذمراً من خلال الكوة الزجاجية الصغيرة إلى القبطان، وفي كل مرة تسقط فيها الصندوقة[1] في مطب بضعة أمتار، كان يتمسك بمسندي الذراعين، وهو في

---

١) يقصد الطائرة .

البداية كان الوحيد الذي شدّ الحزام. هذا مع العلم أن هـؤلاء الفتيـان[1] الكبـار المريحين يتحركون عبر الهواء على الأقل بنفس ثقة القاطرة على الأرض ، هـذا ما يلاحظه المرء تماماً بعد المئتي متر الأولى.

بعد عشر دقائق تقريبا سحب موللر من جيب الصدر بهدوء دفتر ملاحظات، كتب مع بعض الانقطاعات التي تطلع فيها إلى القبطان أمامه، على ورقة منه بضعة سطور انتزعها من الدفتر وناولني إياها.

"ألا تعتقد أنه بعد عشرين سنة لن يعود أي إنسان يستوعب إطلاقاً، كيف أمكن لأناس راشدين أن يجلسوا في هكذا شيء ؟ تأمل فقط هذا الصفيح! أود معرفة ما إذا كانوا فيما بعد سيعدون هذا غباء أم بطولة!. موللر"!

عندما حرفت عيني عن الورقة ، كان جالساً دون تأثر في مقعده ويتطلع، كأن شيئاً لم يحدث، من النافذة إلى الخارج. لكن بعد بضع دقائق أشار وهو يتبسم ابتسامة صفراء إلى المروحة إلى جانبه وزمجر نحوي قائلاً:

"ضجيج كما عند الهزة الأرضية! لماذا لايرعد السنونو هكذا؟".

وهزّ رأسه الضخم، كما لو أنه لم يعد يفهم بتاتاً، لماذا لم يخطر هذا على باله منذ البداية. طبعاً، برأيه، لابدّ أن يكون هناك خطأ فادح في التصميم يتسبب في هذا الضجيج. ومن المحتمل أنه فكّر، أن الطائرات خلال عشرين سنة سوف لن تضجّ بهذا الشكل اللاطبيعي. عندما هبطنا في هانوفر، لتسليم البريد وتبادل المسافرين، ووطأت أقدامنا ونحن ندخن أرض المطار، أضاف قائلاً:

"عندما يقرقع شيء هكذا، فإنه ليس على ما يرام".

---

٢) يقصد الطائرات.

ثم جادلني في أنه من غير المعقول، أن شيئاً كهذا يستطيع رجلان أن يزحزحاه بسهولة عن مكانه، يحتاج إلى ٢٤٠ قوة حصان كي يتحرك في الهواء، حيث لا توجد أية مقاومة. وخبّص في المزيد من هذه الأشياء. وقبيل أن نعود إلى الصعود، أنهى سلسلة أفكاره بملاحظة أن هذا النظام بأكمله خطأ.

حتى مدينة ايسّن تصرف بهدوء تام، فقط مرة واحدة قهقه مستهزئاً، عندما انخفضنا بضعة أمتار في مطبّ. لكن في ايسّن، في العشر دقائق على المطار، حدثني في عجلة عن رحلة جوية عاشها حديثاً قريب له في طقس سيء:

"منذ البداية قيل في المطار للمسافرين الثلاثة، إنه من المشكوك فيه أن تتم الرحلة، ذلك لأن الطقس سيء فوق جبال التاونوس. فانتظروا ساعة بعد موعد الإقلاع. غير أن واحداً منهم كان عصبياً، لأن سفرته كانت مستعجلة ولن يستطيع بأي حال أن يصل في الوقت المحدّد إلى مقابلة هامة. ثم أكدّت إدارة المطار أن القبطان (سوف يحاول). وبشيء من المشاعر المتضاربة صعد الناس إلى الطائرة".

"إذ ذاك عليك أن تفكر"، قال مولر،"بأن السماء فوق المطار كانت زرقاء تماماً. تماماً كما هي هنا. العاصفة كانت فقط فوق التاونوس".

"في البدء طاروا بصورة متوازنة، لكن بعدئذ وصلوا إلى فوق التاونوس. فما عاد هناك أثر من السماء الزرقاء. كل شيءٍ من حولهم بدا كثيفاً بشكل لافت، أنت تفهم. هكذا مثل ملاءة مبلّلة تقريباً. والطائرة عاندت مثل جرادة. والآن "حاول" الرجل، الذي يوجّه هذا الشيء، كما يسمونه في رطانة هؤلاء الغير مختصّين. لكن لا تتكلم، فهؤلاء ليسوا سوى أغرار، فالقصة بأكملها لا يتجاوز عمرها بضع سنين. هل سمعت، أن إنساناً حام في الهواء على قطعة من

الصفيح؟. على انه ما من ضرورة لذلك! لقد مرّت ألف سنة بدونها. إذن حاول القبطان أن يخترق طبقة العاصفة، هذا يعني أنه رفع الصندوقة إلى الأعلى. فارتفع إلى حوالي ١٨٠٠ متر. وعندما صار في الأعلى، رأى مندهشاً أن الطقس هناك في الأعلى تماماً مثل في الأسفل، أي كان إعصارياً إلى حد بعيد. وهذا ماكنت أستطيع أن أقوله له في الأسفل".

"ولكنك لم تكن معهم"، قلت له مشمئزاً من نبرته المتعالية والمستهزئة التي سرد بها القصة.

"إذن كان يمكن أن يقول هذا له قريبي الذي أخذه معه إلى فوق. أي، لو لم يكن مثل حقيبة وضعها أحدهم بصورة خاطئة في شبكة حقائب، يرتمي من جهة إلى أخرى. ذلك لأنه أصبح هكذا الآن. والطائرة انزلقت فجأة ببساطة نحو اليمين، دون إمكانية لايقافها. حوالي عشرة أمتار".

"ثم تماسك هذا الشيء، ارتفع قليلاً من جديد وانزلق مرة أخرى، تماماً مثل السابق، عشرة أمتار. مباشرة لدى أول انزلاقة كسر قريبي بكوعه الأيمن زجاج النافذة، بحيث أمكن للبَرد أن يدخل بسهولة. برَد، ماء، كل ماكان في الخارج، دخل الآن، وأنت تستطيع أن تصدقني، بأن الناس في الداخل نالوا من ذلك الكفاية. وبهذا القدر أو ذاك هيأوا أنفسهم الآن على مهل لنهاية أيامهم. فاستعرضوا للمرة الأخيرة حياتهم بلمح البرق إلخ، وكان هذا أذكى ما يمكن أن يفعلوه. ثم وضع القبطان نهاية لهذه الحالة".

"فعلى علو ١٨٠٠ متر، عندما رأى بأن الارتفاع تماماً مثل الانخفاض، قرر أن يتوجه ثانية نحو الأسفل، حيث كان بالطبع أكثر شعوراً بأنه في البيت. فأوقف المحرك، وهوت الطائرة ببساطة على رأسها، مثل عكازة التنزّه. عليك أن تتصوّر هذا! لقد عانيتَ الكثير في الأعلى، ولم تعد سوى حقيبة رأت

حياتها تمر بلمح البرق أمام عينها الداخلية، والآن يتوقف ضجيج المحرك بلحظة واحدة، المقعد يعلو عليك، ورأسك يسقط نحو الأمام والأسفل، وأنت تسرع، ربما مع رفيقتك التي تنتحب مباشرة على رقبتك، دون توقف نحو الهاوية".

"هبط الرجل من ١٨٠٠متر حتى ٣٠متر، هل تفهم ماذا يعني هذا: ٣٠متر ـ هذا قريب من الأرض لدرجة أنك تستطيع أن ترى كل حجر، وأنت تراها بالتأكيد، لأن هذا الشيء قد انقلب على رأسه، وأنت ترى الأرض من "مكانك" مباشرة من خلال النافذة أمامك. بالمقابل تسرع الأرض نحوك دون توقف. وقريباً عليكما أن تلتقيا. ماذا يعني: قريبا؟ فورا، في الحال، في هذه اللحظة، إنما الآن، أي في لحظة قبل هذه اللحظة، اشتغل المحرك ثانية، حدث دفع، وتماسك هذا الشيء ثانية إلى حدّ ما واختار في الوقت المناسب تماماً الاتجاه أفقياً".

"في نصف ساعة كانوا عائدين إلى مكان الانطلاق. (محاولة) الوصول من وفق التاونوس اعتبرت على أنها فاشلة".

"أجل"، قال مولـلر، وهو يسحب نفسه بالمسكة النيكلية صاعداً إلى مدخل المقصورات ويلقي نظرة إلى السماء، إذ أننا تابعنا السفر، "هكذا شيء يحمل هذا في ذاته".

في هذا الجزء الأخير من الرحلة بدا مولـلر، بعد أن أفضى بما عنده، أنه منشرح الصدر. كيف لا، وقد كان، كما قلت، قد سافر بالطائرة عدة مرات. ووصلنا إلى كولونيا سالمين (بالمناسبة، الطيران طريقة ممتعة ومريحة للسفر ولا خطر فيها!). لكن الآن بدأ الجزء الغير ممتع من القصة. وسوف أوجز ذلك.

وصلنا ظهراً وكان علينا أن نتعشى مساء مع الشركة المذكورة. ثم في صباح اليوم التالي أردنا أن نعود في الطائرة.

أمضينا بعد الظهر ونحن نتسكع، وكان موللر فاضي البال تماماً. ولم يهدر أية كلمة أخرى حول سلوكه صباح اليوم، فقد بدا له أنه لا يحتاج إلى الإعتذار. وإذن، بالمختصر المفيد، أردت أن أنسى الأمر. لكن هنا انفجرت القنبلة، عندما لم أكن أنتظرها بتاتاً.

حوالي الساعة التاسعة مساء، فيما كنت في الفندق أبدّل ثيابي لتناول الطعام، دقّ الباب، ودخل موللر في بدلة السفر، وحقيبة السفر في يده. وضع حقيبة اليد على الكرسي إلى جانب جزمتي، ألقى نظرة مستنكرة على الفوضى التي أحدثتها في الغرفة، وقال بلهجة جافة:

"إذن، عزيزي بوشر، لايمكن أن يسفر العشاء عن شيء".

لابد أنني نظرت إليه مندهشاً بعض الشيء، لأنه تابع في الحال، بنبرة عملية خالصة:"كما ترى، لم أبدّل ثيابي، سوف أعود في الحال إلى برلين. القطار ينطلق في الساعة الحادية عشرة والربع. إذا كنت لا تحتاج إلى وقت طويل لتخلع وتعيد ضبّ ثيابك المرسمية، فإنك تستطيع أن ترافقني. فلماذا نمضي ليلاً في كولونيا دون غاية".

"لاتمزح، ياموللر"، قلت له.

"ليس عندي أي مزاج للمزاح، فالأمر من أساسه مزعج غاية الإزعاج بالنسبة لي. أعترف بأنه إلى حدّ ما مزعج لك أيضاً، لكن ليس بنفس القدر. آخر الأمر، أنت لاتعرف هؤلاء الناس، لكنهم يعرفونني. أريد أن أقول لك شيئاً. هذه الصفقة لن يكون لها أي معنى، إلا إذا استطعنا كلانا أن نعمل معاً، أليس كذلك؟ لكن، كما ترى، هذا بالذات ليس ممكناً. نحن لا ننسجم مع بعضنا. يمكنك أن تتذكر، أنني أتحدث الآن منذ صباح اليوم. إياك أن تعتقد،

أنني لم أراقبك. وأنا أعلم تماماً، أنك تسافر لأول مرة بالطائرة. لا، الأفضل أن لا تقول شيئاً".

"ماذا تعني، أن لا أقول شيئاً؟ ماذا يعني هذا كله بالضبط؟ هل تريد أن تقول أنني تصرفت بجبن، أنت الذي.. أنت، أنا لا أقبل بمثل هذه الثرثرة المجنونة. أنا أفكر، أنك تطلب مني الكثير، أنا لا أقول شيئاً عن تصرفك. ولكن هذا، يعلم الله، لاعلاقة له بالصفقة".

لم أستوعب أبداً، كيف بدأ موللر بشيء كهذا، لكن بالفعل، بدا مندهشاً تماماً.

"كيف؟"، قال موللر. "كيف لا علاقة لهذا بالصفقة؟ لقد تصرفتَ مثل المجنون. فأنت تطير إلى الأعلى في الهواء في شيء ما، دهى بعقلك أحدهم بأنه مأمون، وتجلس فيه مثل المظلة، دون أية علامة من علامات الحيوية. مثل نصف أبله، اعذرني، لايلاحظ شيئاً مما يحدث له، وأنا سوف آكل رأسي، إذا كنت لا تسمي ذلك شجاعة. أنا أقول لك: الإنسان الذي لا يتخذ تجاه الظروف المجهولة الموقف الطبيعي، بأن يعبّر في هذه الحالة عن القلق، هذا الإنسان لا يبرهن إلا على أنه لا يملك الغريزة الطبيعية. بالمختصر المفيد، أنا لا أشاركك في مشروع. الناس من أمثالك لا يصلون لشيء، ويقبلون كمبيالة من بائع الفحم. ببساطة أنت لا تملك الحدّ الأدنى البدائي من التوجّس الذي يملكه أي حيوان وبدونه على كوكب مثل الأرض ينقرض ببساطة".

قال هذا وتوجه نحو المصعد.



جمبري بحر الشمال

من المعروف على مدى واسع أنه في تشرين الثاني وكانون الأول ١٨[1] عاد إلى الوطن رهط كبير كامل من الرجال الذين تأثّرت عاداتهم بعض الشيء وأصبحت تغيظ الناس الذين قاتلوا من أجلهم. ولا يمكن أن نجعل من ذلك مأخذاً عليهم. لكن ما يسوء كان لدى صنف آخر، أقلّ عدداً بكثير، من العائدين إلى الوطن الذين جعلتهم الحرب أناساً راقين. هذا الصنف من الرجال لا يعود المرء يستطيع، مهما كلّمهم بالحسنى، أن يستدرجهم خارج غرف حماماتهم المبلّطة، بعد أن اضطروا لبعض سنوات عمرهم أن يتمرّغوا في خنادق موحلة.

من هؤلاء الرجال كان كامبرت من المدفعية الثامنة. كان رجلاً ممتازاً. فقد التقح في قذارة أراس، والتقح في قذارة ايبرن، وفعل كل ما طُلب منه. لم تذكره أبداً جريدة ليل الحربية، لكنه اقتسم تبغه مع كل من انبطح إلى جانبه، وعندما كان يخاف، كان خوفه من النوع المقبول، الصادر عن فهم. صديقي

١) المقصود: عام ١٩١٨.

مولـلر مـن الفرقـة الثامنـة، الـذي هـو الان مهنـدس مـن جديـد، والـذي كـان كضابط برتبة ملازم رئيسه، يقول عنه، إنه لم ينل ترقية لأنه جلب كيس البريد و"عمل سفالة" مع الناس. هذا مؤشر من الدرجـة الأولى. لكـن بعدئـذ انتهـت الحرب، وكامبرت شطّب عليها وتمكـن أن ينسـى أراس وايـبرن خـلال ثلاثـة أسابيع، كما نسي مولده قبل ٢٩ سنة. وأصبح من جديد مهندساً لدى شركة **AEG**. ومنذ هذه اللحظة، التي ضبّ فيها كـل ماكـان جلبـه مـن الميـدان، مـن ثياب داخلية وسكين جيب وساعة يـد وحتـى مذكراتـه مـع ثيابـه العسـكرية المقـمّلة، ضبّها جميعاً في صندوق وأعطاه للخادمة كي تزيله من هذا العالم، منذ هذه اللحظة اتخذ باصرار الموقف التالي: الرجـل الـذي كـان مجبراً علـى تنـاول أعشاب غير منظّفة وأن يحمل لعدة أسـابيع مـن خـلال مشـاف عسـكرية تتنـة قدوراً بمحتويات لا توصف، هذا الرجل يحق لـه في بقيـة حياتـه أن ينـام تحـت لحاف من ريش وأن يأكل في وسط راق. وقد كنت حـاضراً، عندمـا نشـأت عن ذلك مصيبة.

لزمن طويل، تقريباً ثلاثة أرباع السنة. لم نسمع، موللر السمين وأنا، شيئاً عن كامبرت. ثم علمنا أنه في هذا الوقـت تـزوج، وذلـك بالمـال. لم يدعنـا إلى حفلة الزفاف، لكن قبل اسبوعين رآه مولـلر في سيارة بمقعديـن ممتـازة، ألمنيـوم برّاق مع مقاعد حمراء من الجلد الفـاخر، حيـث يسـتلقي وراء المقـود رجـل في شيء يشبه حوض الحمام الهزاز. بعد ذلك ببضعة أيام اتصل بنـا، بأنـه علينـا أن نمرّ لعنده، لنقل مساء الغد، ونشرب ويسكي معه، في أضيق دائرة بديهياً.

"ويسكي"، قال موللر، بينما نحن نصعد الدرج، "يبدو أن الشاب يريد أن يتكلّف كثيراً" . وسحب من جيب سترته علبة صفيـح صغيرة ظريفـة تحتـوي

على جمبري ممتاز من بحر الشمال. " كان الشاب على الدوام شديد الرغبة بأطايب الطعام". وقد وجدت في هذا لطفاً بالغاً من موللر.

فتح لنا الباب كامبرت نفسه. فسلّم عليه موللر صاخباً. وقد بدا كامبرت مضطربا. وفيما هو يعلّق قبعتينا على الحائط على شوكتين حديديتين مدهونتين بالأسود، مضحكتين، اعتذر لنا عن أن لدى خادمته اليوم عطلة. "وعلى كل فأنتما لستما ملحقي بعثة دبلوماسية"، قال هذا بمزاج طيب.

"لا"، قال موللر، "لكن قل لي، ألا تتواجد كوم كاملة من الناس هنا؟".

"سخافة، لا إنسان. نحن ثلاثة فقط. في أضيق دائرة".

"ولكن ها أنت قد ارتديت ثياباً شبه رسمية، أيها الدجاجة القديمة، لهذه التي تلبسها واحدة من بدلات السهرة المرتبة المرحة".

"سخافة"، قال كامبرت،"كل ما هنالك أنني أحبّ أن أبدّل ثيابي مساء. هذه عادة غريبة عندي بالتأكيد لا يزعجكما هذا؟".

"سخافة"، قال مولر، "الويسكي هو الويسكي". ثم حشرنا كامبرت في أريكتين أميركانيتين مريحتين جداً في صالونه، وانتظر قدوم سيدة البيت.

"هذه قاعة معرض كاملة"، قال موللر بعد بضع دقائق من الصمت المطبق، تأملها أثناءها الحجرة العالية نوعاً ما والمدهونة بالأبيض. وقد بدا موللر إلى حدّ ما متعباً وتثاءب بصوت مسموع."أي، أرنا الويسكي الذي عندك".

عبر كامبرت القاعة ونشل من خزّونة صغيرة من خشب المهاغوني بعض قناني الليكور."دائماً بحسب التسلسل"، قال مبتسماً وأضاف:"أتجدان الغرفة زائدة العلو؟".

قال موللر:"لأ، شوي. أجل، عالية قليلاً، لكن بالتأكيد ليست هي مكان إقامتك الوحيد. لكن الكراسي بديعة. وهذا الكوراسو[1]مستساغ جداً".

وألحّ علينا كامبرت:"جرّبا هذا الشرترية[2]! هكذا خطر لي: قاعة كبيرة وفقط بعض أمكنة الجلوس البسيطة فيها. هذا مهدّئ بشكل هائل".

"لكن شراع الشمس هذا مليح جداً"، قلت له منشّطاً، "أصيل".

كان حصيرة يابانية خفيفة أمام نافذة هائلة مائلة.

انتصب كامبرت واقفاً وجرى إلى هناك. ثم أدار دولاباً خشبياً صغيراً، فالتفّ الشيء بأكمله حول عامود من الخيزران. "يظن المرء اليوم بأكمله بأنه جالس في كوبا. هذا الشيء يجمع بشكل لا يصدق الكثير من الشمس".

"هل استلمت الشقة هكذا؟"، سأل موللر، الذي بدا متردداً، ماإذا كان قد حان الوقت لمزج الشارتريه مع الكوراسو.

"ماذا تظن؟ هذا كله نحن بنيناه. لم تكن سوى غرفتين بورجوازيتين بسيطتين. أنت تعرف الأصحاب: ضيق ثم على الأرجح محشو حتى الأعلى بالأثاث".

قرر موللر أن ينتظر في موضوع المزج إلى أن يسلّم على سيدة البيت، وقال وهو يتفحّص الشارتريه:"نعم، يسكن المرء في الحقيقة مثل الخنزير، دون أدنى تفكير".

الآن أقبلت زوجة كامبرت. كانت مليحة جداً، لطيفة جداً، ومهندمة جداً. صافحتنا باليد وتصرفت كأننا صديقاها ولسنا صديقي كامبرت. قالت إن الشقة غير منتهية بعد، لكن علينا أن نتفرّج عليها. فلربما يخطر على بالنا

---

١) كوراسو: شراب مسكر منكّه بقشر نوع من البرتقال المجفّف.

٢) شارترية: مشروب رهبان شارتر

شيء من هذا أو ذاك. وهما مهتمان بأن يجعلا الشقة مناسبة قدر الإمكان. فلماذا لا يجعل المرء المساكن متناسقة مثل ثياب السهرة؟ أكثر الناس يجرون طيلة حياتهم بين قطع الأثاث المرعبة ولا يدرون كيف يفسدون ذوقهم جذرياً لدى استيقاظهم كل صباح. ماهو رأينا بالقاعة التي نجلس فيها؟.

قلت:"ساحرة".

فضحكت ونظرت إلى زوجها. ثم قالت:"لا أعلم إن كانت ساحرة هي العبارة الصحيحة. على كل حال ليس هذا تماماً ما كنا نفكر به. أردنا أن نجعل من القاعة شيئاً بسيطاً تماماً، تقريباً شيئاً فجاً، كنت أفضل مقاعد حديقة، لكن منظرها بشع. بالإضافة إلى حصيرة خشنة. لقد سافرت مثل المجنونة، إلى أن حصلت عليها. شاهدت كيلومترات من كتان الخيم الخشن. لكن، عندما رأيت الحصيرة معروضة في مكان خلفي من الدكان، قلت لنفسي فوراً: هذا هو المطلوب".

"أجل"، قلت لموللر هازئاً، "وأنت تجلس هنا، كما لو دفعت دخولية، وتتصرف كأنه بديهي تماماً ويحدث بصورة تلقائية أن يشعر المرء هنا بالارتياح". و لم يضحك موللر هكذا من قلبه مثلنا نحن وتفرج متفاجئاً الى حد ما إلى الجدران. فتكوّن لدي انطباع، بأنه كان يتمنى لو لم يقل له، لماذا يشعر بالارتياح.

غير أن كامبرت لم يلاحظ شيئاً من ذلك، بل سأل:"ألم يثر انتباهكم شيء، أقصد على هذه الجدران؟".

قال موللر:"هي عالية جداً".

فضحكت زوجة كامبرت ثانية. لكن كامبرت قال برزانة تامة:"أقصد، أنه لا توجد أية صور. فأكثر الناس تملأ جدرانها كما لو كانت حيطان

ملصقات. أنا متمسك بوجهة النظر، بأن من لا يملك غرفة خاصة بالصور، فالأفضل له أن يتخلى عنها".

عند هذه النقطة رماني موللر بأول نظرة جانبية مريبة، لكن عليّ أن أقول، إنني بقيت فترة من بعد لا أفهمه.

"تعالوا"، قالت زوجة كامبرت،"سأدلكم على الباقي". وقال لي كامبرت وهو واقف:"على فكرة، بالفعل كل الشغلة ليست معمولة بالمال، وإلا لكانت بدت بشكل آخر، بل فقط مع قليل من التأمل، وإذا أردت مع بعض المهارة. وجهة نظرنا هي: نحن لسنا لخدمة المسكن، بل المسكن لخدمتنا". وفيما كان كامبرت يقول ذلك، رأيت موللر قد وقف فجأة بصورة تلقائية وملأ كأس شرب بالكوراسو وأخذها معه في الجولة.

تسلقنا درجاً حلزونياً حديدياً يقود إلى الغرف العلوية، وجده موللر عملياً جداً، إذ قال:"إنه لا يشغل تقريباً حيّز". وفي الأعلى قال:"انظروا إلى تحت، على المسكن أن يبدو بحسن المنظر الطبيعي". إثر ذلك تناول موللر جرعة كوراسو من كأسه وحاول أن يرميني ثانية بنظرة جانبية مريبة. لكن زوجة كامبرت كانت لطيفة جداً، وفرّجتنا على غرفة نوم كامبرت.

كانت غرفة صغيرة بسيطة بسرير حديدي وكرسي ومغسلة بسيطة ملمَّعة. و لم يكن في الغرفة سوى ضوء علوي،"بحيث لا يأخذ المرء فيها انطباعاً بأنه يخيّم في العراء، لأنه يرى مقابله جداراً منزلياً". فوق السرير كان هناك غطاء عادي من شعر الجمل.

"طبعاً أنت توقعت مضجعاً مريحاً أكثر"، قال كامبرت لموللر ممازحاً. وموللر ابتسم مجاملاً بلطف (كان اهتمامه محصوراً بالسيدة كامبرت التي ـ كما لاحظتُ ـ استأثرت بإعجابه)، ثم سار تلقائياً بهمّة يتقدمنا إلى الغرفة التالية،

إلى غرفة المكتب. وهذه لم تكن مفصولة عن غرفة النوم سوى بستارة من الشيت[1]: كانت الغرفتان تشكلان عالماً قائماً بحد ذاته. طاولة من خشب الصنوبر. مقعد قاس غير مريح. رفوف من خشب الصنوبر. قاطع[2] واطئ قاس. كتب.

وفرغت كأس موللر.

عندما نزلنا على الدرج الحلزوني ("هذا يوفّر على المرء الرياضة الصباحية")، قلت لكامبرت، إذ أننا أصبحنا إلى حدّ ما صامتين:"غرفة مكتبك ممتازة، فعلاً. هي متقشفة لدرجة".

قال ببساطة:"المهم أن لا يكون في غرفة المكتب شيء غير ضروري".

في الأسفل توجّه موللر يطبط نحو خزونة الماهاغوني، التي كما يبدو هي أكثر ما علق في ذاكرته، وبحبش بين القناني. قال:

"المهم أن يكون ويسكي المرء في البقعة الصحيحة".

فعانقه كامبرت وهو يبتسم، وجلب قنينة ثخينة، ووضعها في مواجهة الضوء وقال:"بلاك أند وايت".

حسناً. لكن، إذا كنتم تظنون أن موللر قد وجد الآن راحته، فانكم تخطئون الظن به. من المؤكد أن من بين أصناف الويسكي "بلاك اندوايت" هو الصنف الأكثر استحساناً، وهذا ليس من غير حق. لكن في هذه اللحظة أدركت غريزياً، أنه بصدق كان الأحبّ لموللر، لو وضع المرء له في الخزانة صنفاً أقل شأناً. حقاً إنه كان يخدم نفسه بسخاء. لكن، أن يشرب الويسكي (مع القليل جداً من الصودا) من كأسه التي مازالت واضحة فيها آثار

---

١) نوع من القماش، قماش الريّاش

٢) صوفا

الشارتريه، فهذه علامة سيئة؛ والأسوأ أنه فجأة وكأنه تبدَّل رغب في أن يرى كل ما بقي في هذا المسكن المتميز.

وقف مقطباً في جناح ليلكي، حيث كل شيء ليلكي، ورق الجدران، الطاولة الخزانات، المصباح؛ ليلكي فاتح، ليلكي غامق، بنفسجي. وكان هناك أيضاً بيانو بازلتي كبير، يتناسب مع الليلكي. خاض عبر غرفة ملابس بخزانات في الحائط بأفتح لون رمادي، تخدم فقط غايات عملية، وعبر غرفة الحمام، حيث لا ينقص شيء، وعبر مطبخ لا مأخذ عليه من الناحية الصحية. ثم جلس معنا صامتاً بخبث في غرفة طعام لطيفة وتناول على مائدة مدورة من خشب البلوط، دون أن تلهيه الصور المواجهة، أطعمة دسمة، إنما شهية. ولم يكن صواباً منه، أن يشرب باستمرار بين وجبات أصناف الطعام بكأسه السابقة كمية متزايدة من الويسكي مع كمية متناقصة من الصودا، لكنه كان يحتاج لذلك. كان يقدِّر كامبرت كثيراً، الذي بالمناسبة قدّم قدر إمكانه قصصاً رائعة، ظهر منها أنه عقل صاح، مع فكاهة حقيقية. ولا يمكن أن يكون ما أعجب موللر هو كامبرت ولا زوجته. لقد كان المسكن هو الذي استفزّه لدرجة. وبذلك كان بالتمام والكمال غير محق. لقد كان مسكناً مليحاً جداً، ولم يكن بأي حال للمباهاة. لكنني أعتقد، أن موللر لم يعد يستطيع بأي شكل تحمّل هذا التناغم القصدي وهذه الانتفاعية الاصلاحوية. وعلي أن أقول، إنه بالتدريج اتضح لي شيء من ذلك.

ثم انسحبت السيدة كامبرت، التي كانت بأسلوبها الطبيعي ممسكة بزمام الأمور، ومقيِّدة الحيواني في موللر، وعلى الفور لاحظتُ أن شيئاً سيحدث الآن.

بهدوء لم ينتبه له كامبرت، لكن بالنسبة لي كان غير طبيعي، وجّـه موللر الحديث بمكر إلى أن يكون عن الجمبري. ثم أصبح أكثر وضوحاً، وفجأة عـبَّر بلا أدنى مواربة عـن رغبتـه بجمبري معلـب. كـان كامـبرت مدهوشـاً بعـض الشيء، لكنه كان مضيفاً مفرط الطيبة ومسروراً بسذاجة بالغة بكماليـة تدبـيره المنزلي لدرجة لايسعه معها إلا أن يقع في إحراج فعلي. كما أننا كنـا الآن مثـل موللر قد شربنا الكثير. ونهض كامبرت، تناول قبعته ووعد ضاحكـاً أن يؤمّـن الجمبري. أما موللر فقد جلس كالأبكم وتبسّم بتجّهم.

علينا أن نقرّ مباشرة أن المـلاك الحـارس لكامـبرت ذهـب في ذلـك المسـاء بالذات مبكراً إلى النوم، إذ قبل أن يكون قد غاب تماماً، كـي يرضـي ضيوفـه، وقع نظره التعيس كما لك على صندوق إلى جانب الباب، على شيء بني تافـه بأربطة حديدية، فقال بمنتهى السذاجة دون أي إدراك للحالة التي يعوم فيها منذ ساعة تقريباً: "هل رأيتم مرة شيئاً غير مناسب كهذا في غرفة طعام محترمة عادة، يا أولاد؟ لكن، أقول لكم، لـن أضعهـا لأي سـبب خارجـاً، لأنـه لا يزعجـني شيء مثل أن يكون كل شيء على مايرام. في المسكن لا يجب أن يكـون كـل شيء منسجماً، وإلا لما كان صالحاً للسكن". وبدون أن يراقب وقـع كلماتـه، ذهب بعجلة ليحضر الجمبري.

أومأ لي موللر مبتسماً. وزال عنه كامل التشنج الذي كان فيه. عـاد ثانيـة ذلك الموللر المهذب الفكاهي السكير، الذي كنت أحبه وأخشاه.

لم نضيّـع الوقـت. باشـرنا فـوراً بـالعمل. فخلـع موللـر سـترته ورماهـا في إحدى الزوايا. وذهب فوراً إلى القاعة وتوجّه إلى خزانـة الماهـاغوني. وسـحب منها ثلاث قناني وقطع عنقها على مسـند كرسـي خـيزران مزيقـة. ثـم صـبّ الجميع معاً، فيما هو يهرع إلى غرفـة الطعـام، في سـلطانية مـازالت تعـوم فيهـا

البندورة. وأخذ منها موللر ملء مغرفة وتمشى، مشيراً لي بالنهي، إلا الأريكات الأميركانية الأصيلة، وارتمى متأوهاً ووضع خطة دقيقة للمعركة. من أجل ذلك احتاج إلى ثلاث دقائق، لكنه بدون هذه الخطة لما تمكّن أبداً أن يعمل بهذه الشمولية، كما أمكن لي أن أرى. أول ما فعله هو أنه نزع شراع الشمس إلى الأسفل ("يا إلهي، كم كان هذا الشيء مثبتاً")، ومدّه بمساعدتي ما بين درباس النافذة والدرج الحلزوني، حيث استخدم للربط الشرّابات البنسفجية من الصالة، لكنه بذلك أوجد أيضاً حصيرة معلقة عملاقة تنساب عبر كامل الغرفة ("تمتد فوق كوبا بأكملها"). ثم عمل من كراسي القاعة وطاولة غرفة الطعام وبعض ستائر المطبخ "زاوية مريحة"، توج في وسطها بصورة عابثة الخزونة الغربية ("الخزونة، كي يكون هناك شيء غير مناسب")، وألصق على الجدران ببقايا السكر من فناجين القهوة نوعاً قبيحاً من الطبع التصويري الذي اقتطعه من بعض المجلات، إذ لا يمكنه في هذه العجالة أن يحصل عليه من مصدر آخر. وعندما أمّن على هذا النحو زاوية مريحة لكل الحالات، نظم، كما قال، موكب نصر مقدونياً عبر الغرفة العلوية، وفي جيب سرواله قنينة، رامياً بنفسه بصورة خطرة على السرير وعلى طاولة خشب الصنوبر وعلى المغسلة. كل هذا فعله، ما عدا ترداد بعض المبادئ، بصمت كامل. وعندما عاد إلى القاعة، بدا مظفراً بصورة غير عادية. بعدئذ، فيما هو يتأرجح في حصيرته الكوبية الجديدة، تحت التأثير المنشط لكميات الكحول الضخمة، ألقى خطاباً ملتهباً جديراً بالذكر حول القناعة.

قال:"الإنسان مخلوق كي يكافح. بطبيعته يتهيّب التعب. لكن، لحسن الحظ هناك قوى طبيعية تحفزّه على ذلك. إذن فالإنسان بحدّ ذاته دودة بائسة، يرغب في أن يحصل على كل شيء بشكل منسجم. أزرق فاتح، أزرق غامق،

كحلي. لكن الإنسان من ناحية أخرى، لاسيما بعد أن يتمتع بالجمبري، مثل زوبعة مخيفة، يعيد إنتاج التنوع الكبير واللاتناغم الجديد بالإعجاب لكامل الخليقة بواسطة التكديس الهائل لأريكات أميركانية، مغاسل بسيطة ومجالات قديمة رصينة. فليس مسموحاً للإنسان بواسطة أشرعة الشمس والبيانوهات الكبيرة أن يصل إلى السماء. المسكن يكون حيث ألقى الإنسان أشياءه القديمة في زاوية. هذا ما قدّره الله، وليس أنا، موللر. انتهى. والآن هو مسكن".

وعندما ألقى هذه الخطبة، وهو يتأرجح من جدار إلى جدار، أمام نافذة ليلية عملاقة، نزل، مضطرباً من فجوره العقلي غير الاعتيادي، عن الحصيرة وذهب مرفوع الهامة، إنما بخطى متمايلة إلى الغرفة البنفسجية، كي يتقوى بوجبة زهيدة. فسحب من جيب سترته التي كانت في الزاوية، علبة الجمبري وفتحها بفتّاحة رسائل على البيانو الكبير. وفي هذه اللحظة وقف على الباب، وفي يده صرّة ورق، كامبرت.

أما موللر، موللر الرهيب، الصديق العنيف، فجلس فجأة محرجاً بعمق، محمّر الوجه على الطاولة المدهونة بالنبفسجي في صالون كامبرت الراقي وصار يأكل جمبري بحر الشمال من العلبة على البيانو وهو يصبّ فيها برعونة ويسكي البندورة، وينظر مضطرباً وشاعراً بالذنب، بحزن إلى كامبرت، المضيف. ثم قال:"بيتي هو قلعتي[1]".

وأنا أظن أنه قال هذا بصورة رئيسية لأنه لا يناسب المقام ولأنه أحسّ في نفسه توقاً بعيد الغور إلى ماهو بقدر كبير غير متناسب ولا منطقي وطبيعي.

* * *

---

١) في الأصل بالانكليزية "My Home Is My Castle"

قصة تأمين صغيرة

رجل مال اسمه كوكلمان. كانت تعوم فوقه منذ عدة أقمار عقبان الإفلاس. خلال اسبوع كامل قام وهو في قلق متزايد بكل مابوسع الإنسان أن يفعله لكي يغذي من جديد ثقته بنفسه المصابة بالهزال وكي يصل إلى أفكار جديدة مثمرة. عند نهاية هذا الأسبوع كان قد خلّف وراءه حانة فندق أدلون وكذلك حانة بريستول وغيرها الكثير من المؤسسات، دون أن يحقق أدنى نتيجة. هنا كان يحفز دماغه بمشروبات أميركية قوية، هناك يهدّئه بقهوة لا تضاهى. قام بجلد روح الحياة المنهكة فيه بأنواع الجاز وارتمى في مسرح الكوميديين واستخدم كافة المجلات المصورة في المتروبولات من أجل التلقيح العقلي، وهذا كل يوم من الصباح حتى منتصف الليل، فلم يجد ما بين السماء والأرض شيئا يمكن، دون أن يملكه، أن يبيعه مع بعض الربح. ثم حطّ الرحال في محل البيرة أشينغر.

كان لديه نزوع غامض، أن يعتصر هنا من الشعب البسيط، الذي مازال يكافح بالعمل من أجل البقاء...، دوافع حيوية. بعد ساعتين متعبتين

من الجلوس هنا وهناك لم يحظ باهتمامه سوى متسول يجلس إلى الطاولة المجاورة وراء كأس صغيرة من البيرة.

كان مظهر هذا المتسول مفزعاً حقاً. وكوكلمان، الذي كان تحسّسه لصور البؤس قوياً بشكل خاص في هذه الأيام، أحسّ بوضوح أن نقي عظامه يرتعد. فعلامات الموت كانت على الرجل. هزاله كان لا يُصدق. وبدا كما لو أنه عاش منذ طفولته على رغيفين في الأسبوع. وتغلبت على كوكلمان الرغبة البطولية بأن ينظر الآن إلى البؤس في بياض عينه، فجلس في يأس إلى طاولة الرجل إياه. متحصّناً وراء جريدة تأمّل بتأثر هذا الهيكل العظمي المتحرك الذي يعبّ البيرة، وطلب له كما لو في الحلم صحن بازلاء، حتى أنه دخل معه، وقد بدا فجأة أنه استعاد سريعاً بعض القوة، في حديث. ثم، كيف لنا أن نقول؟ نهايته أن كوكلمان اصطحب معه المتسول جوزيف كلايدرر إلى الفندق.

علم منه أنه معافى تماماً، وأنه فقط جائع، وأنه كان يتوهم نفسه بين نادل قذر وصندوق حساب فضي.

منذ تلك اللحظة أصبح كوكلمان يطلب طعامه إلى غرفته في الفندق ويتقاسمه مع جوزيف كلايدرر، بحيث أنه، هو الذي عاش رغم كل فقر العالم فيه، مع مضي ثلاثة أسابيع تعافى تماماً، بل حتى أنه اكتسب مظهراً نضراً. الذي عرفوا كلايدرر من قبل ما عادوا يعرفونه: صار سميناً لدرجة أنه على المرء أن يشرب كونياكاً عليه. مقابل ذلك لم يطلب منه كوكلمان شيئاً سوى أن يذهب معه إلى شركة التأمين على الحياة، ذلك لأن حياته (حياة كلايدرر) غالية عليه (على كوكلمان) لدرجة أنه يريد أن يضمنها، وهذا ما تفهّمه كلايدرر. هكذا أمّن كوكلمان على حياة كلايدرر بـ ١٠٠ ألف

مارك، ودفع بآخر مبلغ كبير لديه القسط الأول من التأمين. في طريق العودة قال لكلايدرر، أن عليه أن يشتري سيجاراً، واختفى في دكان تبغ، ولم يخرج منه بعدئذ. أما كلايدرر فقد ذهب معكّر المزاج طبعاً إلى الفندق، وانتظر هنا كما في محلّ البيرة على الغائب دون فائدة.

كثيراً ما انتظر كلايدرر في الحانة فاعل الخير المتخفي، وسرعان ما بدأ انحداره، هو المعدم. وقد استمر مظهره النضر عدة أيام، لكنه بعدئذ ضمر، وقبل أن تمضي خمسة أسابيع، كان يجلس من جديد كهيكل عظمي متحرك يغبّ البيرة كما في السابق في الحانة، وكما في السابق ظهر كوكلمان من وراء جريدة.

كان كوكلمان مازال مهتماً جداً بكلاريدرر، فقدم له الطعام، حتى أنه دعاه لأن يتبعه لعند الصيرفي. وهذا مافعله كلايدرر.

عند الصيرفي سحب كوكلمان أوراق تأمين كلايدرر، وادعى أن هذا نسيبه، وطلب من الصيرفي أن يشتري منه، من كوكلمان، هذه الأوراق. فلأنه حالياً يعاني من صعوبات مالية، لم يعد يستطيع أن يدفع أقساط التأمين، في حين أنه ظاهر للعيان أن جوزيف كلايدرر، ليلق المرء فقط نظرة إليه، لن يعيش اسبوعاً آخر، عظم وجلد، ومبلغ التأمين ١٠٠ألف مارك سيكون من نصيب من يحمل الأوراق. تأمل الصيرفي باهتمام جوزيف كلايدرر ودفع ٤٠ ألف مارك مقابل الأوراق.

وكوكلمان الذي تظاهر بالانقباض، حفظ وهو يزفر الأوراق المالية في محفظته الجلدية، وجرّ "نسيبه" المحتضر بحرص عبر البوابة، ساعده في ركوب الحنتور، وعزمه على الغداء لدى لاور.

في الأيام التالية تناول الاثنـان طعامهمـا متنقلين بـين لاور و كيمبينسـلي و كذلك حانة بريستول. وقد انسرّ كوكلمـان كـالطفل باستعادة كلايـدرر لنضارته وأثبت لـه بـالدليل القـاطع أن الاستماع إلى موسيقى رصينـة لـدى شرب القهوة وتدخين السيجار يجعل المرء أيضاً سميناً.

بعد مضي أسبوعين حافلين، أمكن لكوكلمان أن ينفق فيهما باطمئنـان أكثر من المرة الأولى، استردّ كلايـدرر صحتـه تمامـاً. وفي أحـد الأيـام ذهـب كوكلمان معه إلى عند الصيرفي.

اندهش الرجل. فيما بعد اعتاد كوكلمان أن يؤكد ضمن دائرة زملائه، بأنه ما من إنسان آخر كان ليتعرّف في جوزيـف كلايـدرر السـمين المبتسـم على ذلك "الهيكل العظمي"، لكن هذا الصيرفي كان فوراً مـن النظـرة الأولى في الصورة. لقد كانت له النظرة الحادّة لرجل دفع ٤٠ ألف مارك.

قال كوكلمان بانفعال، إن نسيبه قـد اسـترجع صحتـه عكـس المنتظـر، فيبدو أن قوة حياة هائلة تكمن في العائلة. وبحسـب ما هي الأمـور الآن، فإنـه بالطبع لا يريد أن يجور على أحد ليدفع أقساطاً مدة ثلاثين إلى أربعين سنة ـ إذ الإنسان يعيش سبعين سنة، وفي الأحوال الجيدة ثمانين سـنة وهـو ـ وفـاءً منه ـ على استعداد تـام لأن يشـتري الأوراق الـتي بسـبب الحـدث السـعيد فقدت الكثير من قيمتها، وذلك بسعر معقول. ويعتقد أن السعر الذي يمكـن أن يتحمّله هو ٢٥٠٠ مارك. حسب الصيرفي في ذهنه تكاليف المحاكمة الـتي سوف تترتب عليه، إذا ما استجاب لرغبته في أن يطـال كوكلمـان بأسـنانه، فتخلى عن هذه الرغبـة، إذ ليـس لديـه سـوى عيـد ميـلاد واحـد في السـنة. فاستلم الـ ٢٥٠٠ مارك مقابل أوراق التأمين، و لم يقـم سـوى بمراجعة آرائـه حول صلاحيته للحياة.

حفظ كوكلمان بوليصية التأمين في محفظته الجلدية، وتقدم جوزيف كلايدرر عبر الباب الزجاجي... ثم غاب أمام عيني جوزيف كلايدرر في سيارة أجرة كما لو في غيمة.

غير أن كلايدرر، الذي انتهت مرحلى الازدهار الثانية في حياته، ما عاد بحث عنه نهائياً. وسيطر هدوء مقبض على الرجل البسيط، الذي لم يستوعب بأي حال السلوك الغريب، إنما كما يبدو المثمر لفاعل الخير. فتدهورت حالته سريعاً. وعندما ظهر كوكلمان من جديد ، كما توقّع، ودعاه إلى الطعام، وذهب معه إلى صيرفي وباع أوراق التأمين إياها ودسّ النقود في محفظته الجلدية وابتدأ معه في تناول الطعام، انبثق في داخله رفض أخرق. وبما أنه كان جائعاً، لم يستطع أن يرفض الطعام، لكنه لم يزد في أكله على الضروري. أكل كما لو كان غائباً، بل وبقرف. واستمع إلى التعليق المادح لكوكلمان على مظهره المتحسن من جديد (لأن الطعام هو الطعام ويجعل المرء سميناً)، بنظرة جانبية حولاء من تحت إلى فوق، ثم غادر مارّاً على المرآة بسرعة وقد حوّل نظره عنها. وفي أحد الأيام، وكان مازال غير سمين، بدأ أمام اندهاش كوكلمان يهرع إلى الجرائد للبحث عن عمل. فاختار مهنة توزيع الجرائد. كان الأجر متواضعاً، لكنه حقق له فرصة بأن يصعد على أدراج لاتعدّ. غير أنه قبل أن يستطيع بكثرة الحركة إيقاف زيادة وزنه، أراه كوكلمان بطريقة ماكرة أثناء الطعام، الذي لم يستطع كلايدرر كعادته أن يقاوم إغراءه، أوراق التأمين، وجوزيف كلايدرر نظر بعينين تبدّى فيهما بحر محيط من أفكار الانتقام، كيف تحسّسته ثانية نظرات خائبة إلى محيط جسمه وكيف كوكلمان سحب ثانية محفظته الجلدية.

في ذلك الوقت أسس كوكلمان شركة التعليب الكوكلمانيـة المعروفـة. ولم يكن لديه وقت كاف، ليهتم بكلايدرر الذي بالطبع تدهورت حالته من جديد. كانت سفينته تبحر بكامل أشرعتها في البحر. مع ذلك، إنما هذه المرة ليس قبل عدة أشهر ولمجرد الاستجابة لمبدئه في اتمام أي مشروع يبدؤه، بحث مرة أخرى عن كلايدرر الذي كان قد انحدر تمامـا في مستنقع الحيـاة، لكـن مفاجأة كانت بانتظاره. فهذا الرجل الذي طالما سحبه مـن المستنقع وألبسه وأطعمه، بل وحتى سمّنه، الذي له الفضل في الأوقات الزاهرة القليلة في حياته البائسة والفارغة، هذا الرجل لديه الجـرأة لأن يـردّ علـى دعوتـه اللطيفـة إلى الطعام بدافع عاطفي بجواب رافض لايمكن أن يُذكر هنا.

* * *

أربعة رجال ولعبة بوكر

أو

الحظّ الزائد ليس حظّاً

كانوا جالسين على كراسي قش في هافانا وناسين العالم. عندما يصبح الجو حارّاً بالنسبة لهم، كانوا يشربون ماء مثلجاً، وفي المساء يرقصون بوستون في فندق الأطلسي. فقد كانوا جميعاً يملكون الكثير من المال.

في الجرائد كُتب عنهم أنهم أناس كبار. وعندما كانوا يقرأون ذلك ثلاث مرات، كانوا يلقون بالجريدة إلى البحر. أو كانوا يمسكون الجريدة بكلتا يديهم ويثقبونها ببوز أحذيتهم. ثلاثة منهم سبحوا أمام عشرة آلاف شخص أرقاماً قياسية، والرابع أنجز العشرة آلاف على قدميه. وعندما تغلبوا على خصومهم وقرأوا الجرائد، غادروا مبحرين. عادوا وفي جيوبهم الكثير من النقود إلى نيويورك.

في الحقيقة لا يمكن للمرء أن يسرد هذه القصة بشكل صحيح إلا بمرافقة شريط جاز. فهي من ألفها إلى يائها شاعرية. تبدأ بتدخين السيجار والضحك وتنتهي بحادث قتل.

بالنسبة لواحد منهم كان من المؤكد أنه يستطيع أن يصيد شبوطه من علبة كونسروة. كان محظوظاً، كما يقال. ويدعي جوني بيكر، جوني المحظوظ. لقد كان أفضل سباح للمسافات القصيرة في كلا نصفي الكرة الأرضية. غير أن حظه هذا المثير للسخرية كان يلقي بظلاله على أي من نجاحاته. ذلك لأنه إذا كان الرجل، لنقل، يسحب من كل فوطة ورق دولاراً ورقياً، فإن المرء يصبح مرتاباً تجاه مواهبه المهنية، ولو كان هو روكفلر. ومرتابون، هذا ماكانوه.

في هافانا انتصر هو مثل السباحين الآخرين. لقد كسب أكثر من ٢٠٠ ياردة حول طول الجسم. غير أنه مرة أخرى لم يكن من الممكن التكتم عن أن أفضل رجل غيره ما كان ليستطيع تحمل المناخ ولكان توعّك. أما جوني نفسه فقال بالطبع، إنهم كانوا على أية حال سوف يلصقون به شيئاً ما ويهذرون عن "حظه"، حتى لو أنه سبح جيداً. وعندما قال هذا، ابتسم الاثنان الآخران.

هكذا كانت الأمور، عندما بدأت القصة، وهي بدأت بلعبة بوكر صغيرة. فقد كان الوقت مملاً على السفينة.

كانت السماء زرقاء، وكذلك البحر كان أزرق. المشروبات كانت جيدة، إنما جيدة كما هي دائماً. والسيجار كان المرء يستطيع أن يدخنه مثل أي سيجار آخر. باختصار: السماء والبحر والمشروبات والسيجار لم تكن جيدة.

هكذا منّوا النفس ببعض المتعة من لعبة بوكر صغيرة. بدأوا قبل مثلث برمودا بمسافة قصيرة. فجلسوا متفسّحين لهذه الغاية: كل واحد استخدم كرسيين. واتفقوا ضمنياً[1] على ترتيب كراسيهم. فامتدت قدما الواحد منهم إلى جانب أذن الآخر. هكذا بدأوا قبل مثلث برمودا بمسافة قصيرة بالتسبّب في دمارهم.

بما أن جوني كان يشعر بالاهانة من تلميحات معينة، فقد بدأ ثلاثتهم باللعب. واحد ربح، واحد خسر، واحد حافظ على وضعه. كانوا يلعبون بواسطة فيشات من الصفيح، تمثل الواحدة منها خمسة سنتات. ثم أصبحت اللعبة مملة بالنسبة لواحد منهم، فسحب قدميه منها. فحلّ جوني محله. لكن الآن فجأة لم تعد اللعبة مملّة. ذلك لأن جوني أخذ يربح. إن لعب البوكر هو ماكان جوني لا يجيده، أما ما كان جوني يجيده فهو: الربح في لعب البوكر.

عندما كان جوني يلف، كان البلف مثيراً للسخرية، لدرجة أنه ما من لاعب بوكر في العالم يتجرأ على مجاراته. وإذا توقّع رجل، يعرف جوني، أن هناك بلفاً، فكان جوني عندئذ، ودون أن يدري، يضع فلاش على الطاولة.

بعد ساعتين أصبح جوني يلعب بدون أي حماس. أما الاثنان الآخران فقد احمرّ وجهاهما. وعندما عاد الرابع بعد ساعتين من المطبخ، حيث كان يقشر البطاطا ويتفرج، لاحظ أن الفيش الصفيحية يعاد توزيعها وقد أصبحت الواحدة تمثل دولاراً. هذا الرفع الضئيل لقيمة الفيش كان الإمكانية الوحيدة بالنسبة لشركاء جوني، كي يستعيدوا جزءاً من نقودهم. كان الأمر ببساطة هكذا: عليهم أن يستحصلوا منه بالأكوام ما أخذه منهم بالسنتيات.

---

[1]) في الأصل بالانكلزية: **Gentelmanlike**.

ومع أن حتى آباء العائلات ماكانوا في هذه الحالة ليلعبوا بحذر أكثر، فإن الذي كوّم أمامه هو جوني.

في البدء لعبوا ست ساعات. أثناء كامل هذه الساعات الست كان بإمكانهم في كل لحظة أن يخرجوا من اللعب، دون أن يتركوا لدى جوني أكثر من المبلغ الذي كسبوه في هافانا. بعد هذه الساعات الست من الغمّ والتعب ما عادوا يستطيعون الاحتمال.

وجاء وقت العشاء. فأكلوا في أقصر وقت، بدلاً من شوكات الطعام كانوا يحسّون بالستريت بن أصابعهم. كانوا يأكلون الستيك ويفكّرون بالرويال فلاش. أما الرجل الرابع فقد أكل بهدوء أكبر . وقال إن لديه رغبة في أن يشارك في اللعبة ، فالآن جاء شيء من الانتعاش إلى هذه الثرثرة الفارغة.

بعد طعام العشاء بدأوا من جديد، أربعتهم لعبوا ثماني ساعات. وكانوا قد خلّفوا مثلث برمودا وراءهم، عندما قُرب الساعة الثالثة صباحاً عدّ جوني نقوده.

ناموا خمس ساعات غير هانئين وبدأوا من جديد. لقد كانوا أناساً مدمرين على أي حال لسنوات ولم يتبقى أمامهم سوى يوم واحد من السفر، حيث سيصلون ليلاً حوالي الساعة الثانية إلى نيويورك. وفي هذا اليوم عليهم أن يحاذروا من أن يصبحوا لبقية حياتهم في الحضيض. ذلك لأنه جلس بينهم واحد يمتص بلعب سيء للبوكر نقي عظامهم.

قبل الظهر، عندما استدلوا من كثرة السفن على قرب الشاطىء، بدأوا باللعب على مساكنهم. وقد ربح جوني علاوة على ذلك بيانو . ثم منحوا أنفسهم ساعتي قيلولة، وبعدها خاضوا معركة حامية من أجل البدلات التي

يلبسونها. وفي الساعة الخامسة بعد الظهر رأوا أنفسهم مضطرين لأن يتمادوا. فالرجل الذي لم يدخل اللعب إلا بعد مثلث برمودا ، والذي كان يأكل بهدوء، في حين كان الآخران لا يحسّان بشوكة الطعام في يديهما، دعا جوني في هذا الوقت طوعياً، لأن يلعبا على صديقته. هذا يعني، إذا ربح جوني فله الحق في أن يحضر مع واحدة اسمها جيني سميث حفلة الأرملات الراقصة... في مدينة هوبوكن، أما إذا خسر، فعليه أن يعيد ما حصّله من الجميع . وقد قبل جوني.

قبلئذ استفسر:

"وأنت نفسك لا تذهب معنا؟"

"لاأفكر بذلك"

"ولن تؤاخذني عليه ؟"

"لن أؤاخذك عليه"

"ولا لها"

"ماذا تعني ب : ولا لها؟"

"أقصد ، أن تؤاخذ البنت جيني على ذلك؟"

"لا،بحق الشيطان لن أؤاخذها على ذلك"

ثم بعدئذ ربح جوني.

عندما تقوم بلعبة وتربح وتدّس ربحك في الجيب وتهوي قبعتك وتذهب، عندئذ تكون قد تواجدت في خطر ونجوت منه. أما إذا كان في جسدك قلب، وبقيت جالساً وأعطيت لخصومك فرصة، فعندئذ ، باستثناء أن تنتهي في ملجأ فقراء، سيكون عليك أن تسير طيلة حياتك متفقاً مع

خصومك: سوف ينهشون كبدك مثل العقبان. فعليك في لعب البوكر أن تملك قلباً قاسياً مثلما في أي شكل آخر من نزع الملكية.

منذ اللحظة التي دخل فيها في اللعب ، أذعن جوني للآخرين. ذلك لأنه نبتق عنه رجل آخر. لقد أرغموه على أن ينظر آلاف أوراق اللعب، حرموه من النوم، وحرصوا على أن يبتلع وجباته الغذائية مثل عامل بالقطعة. كان لأحب إليهم أن يعلّقوا له قطعة اللحم بخيط فوق مكانه لينهشها كل ست ساعات. لقد كان الأمر بالنسبة لجوني كريهاً بشكل لا يوصف.

عندما نهض عن الطاولة بعد اللعبة على الفتاة، التي كانت برأيه زائدة عن الحد، قال بسذاجة إنه يكفي لعباً. كانوا قد علقوا معه ، مع أنهم عرفوا حظه ، لأنهم فكروا أنه لايفهم بالبوكر أكثر مما يفهم سائق قاطرة بالجغرافية. غير أن سائق القاطرة لديه السكة الحديدية التي تفهم شيئاً بالجغرافية: أما الرجل فيصل من نيويورك إلى شيكاغو ولا أي مكان آخر. وبالضبط، بحسب النظام كان قد ربح. والمسألة الآن هي، كيف يستطيع أن يعيد لهم أرباحه، دون أن يهينهم إهانة لاتغتفر . كان قلب جوني هو عيب جوني . فقد كان زائد التهذيب.

قال لهم في الحال ، أن لايهتموا للأمر، فقد كان بالطبع كل شيء لمجرد التسلية . فلم يعطوا جواباً. استمروا في جلستهم، كما كانوا منذ يومين ، وتطلعوا إلى النوارس التي ازداد عددها الآن.

استنتج جوني من ذلك ، أنهم يرون أن لعب البوكر لمدة تزيد على ٢٤ ساعة لا يعود له علاقة بالتسلية.

وقف جوني إلى درابزين السفينة وفكّر. ثم جاءته فكرة. اقترح عليهم، أول شيء للاستجمام أن يتناولوا معه طعام العشاء. بالطبع على حسابه.

خطرت بباله مأدبة كبيرة، شيء فرح مرح، طعام على أي مستوى. بالنظر للظروف الراهنة لا أهمية للتكاليف. حتى أنه فكر بالكافيار. كان جوني ينتظر الكثير من هذا الطعام.

فلم يقولوا :لا.

تلقوا الدعوة دون أي حماس، لكنهم كانوا سيذهبون معه في كل الأحوال، لاسيما أنه كان وقت الطعام.

ثم ذهب جوني وأوصى بالطعام. دخل المطبخ وعامل الطباخ مثل بيضة نيئة. أراد أن تمدّ له ولأصدقائه مائدة، مأدبة تتفوق على كل ما تقدمه مطابخ الدرجة الأولى في سفن المنطقة ما بين هافانا ونيويورك. وقد أحسّ جوني بالارتياح في هذا الحديث البسيط مع الطباخ.

أثناء هذه النصف ساعة لم ينطق أحد بكلمة على ظهر السفينة في الأعلى.

في الأسفل هيأ جوني بنفسه المائدة. إلى جانب مقعده وضع طاولة إضافية صغيرة، ورتّب عليها المشروبات. بذلك لا يحتاج إلى الوقوف من أجل مزج المشروب. ثم أرسل الطباخ ليحضر أصدقاءه من فوق. فجاؤوا بوجوه لا مبالية وجلسوا بعجالة كما لو كانوا يجلسون إلى وجبة اعتيادية. ولم يتعدل مزاجهم إلا قليلاً.

كان جوني يظن، أنهم أثناء الوجبة سيصبحون أكثر انفتاحاً. عموماً يصبح المرء أثناء الأكل منشرحاً، لاسيما أن الطعام كان ممتازاً. وقد أكلوا كثيراً، لكن يبدو أنه مع ذلك لم يرق لهم. فأكلوا الخضار الطازجة مثل شوربة البازلاء، والفروج المشوي مثل شحم الخنزير. فيبدو أنه كانت لهم وجهة نظر خاصة بضيافة جوني. مرة أمسك أحدهم بوعاء ظريف من

البورسلان اللمّاع وسأل: "هل هذا كافيار؟". فأجاب جوني بصدق: "نعم، أفضل نوع يمكن أن يقدمه المرء على المائدة في هذه الصندوقة المبهدلة". فأومأ الرجل برأسه وأكل ما في الوعاء بملعقة. مباشرة بعد ذلك أشار أحدهم لآخر إلى علبة مايونيز. ثم ابتسما. هذا وأمثاله من تصرفاتهم لم يغفل عنه المضيف.

غير أنه لم يتضح لجوني إلا عند تناول القهوة، أنه كانت وقاحة منه أن يدعوهم إلى هذا الطعام. لقد بدوا غير متفهمين لكونه أراد أن يستخدم الربح في نفع المجموع. ولربما لم ينتبهوا بتاتاً إلا إلى جدية خساراتهم، حيث وجب عليهم أن يروا كيف ترمى نقودهم من أجل مثل هذه المأكلات التي لا معنى لها. هذا شبيه بما يحدث لك مع امرأة تريد التخلي عنك. عندما تقرأ رسالة الوداع الجميلة، قد تفهمها، ولكن إذا رأيتها تركب سيارة أجرة مع رجل آخر، فعندئذ فقط تلاحظ ما الذي حدث. لقد كان جوني مذهولا بحق.

كانت الساعة الثامنة مساء. وكان المرء يسمع صفارات بواخر الشحن. مازالت هناك أربع ساعات للوصول إلى نيويورك.

كان لدى جوني شعور مبهم، بأنه سيكون غير محتمل الجلوس مع هؤلاء الناس المدمرين في هذه المقصورة العارية. لكن بدا أنه لم يكن يستطيع أن ينهض ببساطة ويغادر. في هذا الوضع أدرك جوني مرة أخرى فرصته الخاصة. فاقترح عليهم أن يلعبوا معه مرة أخرى على المجموع.

وهكذا وضعوا من أيديهم فناجين القهوة وأزاحوا إلى زاوية من الطاولة المعلبات النصف فارغة. ووزعوا أوراق اللعب مرة أخرى.

لعبوا في البداية من جديد بفيشات صفيح تمثّل نقوداً. فأثار انتباه جوني أن الثلاثة كانوا يحجمون عن المراهنة بأكثر من مبلغ معين. إذن فقد أخذوا اللعب من جديد على محمل الجدّ.

في الحال ولدى أول توزيع لعب حصل جوني على ستريت. مع ذلك خرجٍ من اللعب في الدورة الثانية وترك لهم مبلغ الرهان. فلا شك أنه تعلّم شيئا.

في الفتّة الثانية والثالثة، حيث كان الرهان يرتفع في كل مرة، تركهم يلفون وسايرهم قدر إمكانه. لكن بعدئذ قال له أحدهم بهدوء وهو ينظر في وجهه: "العب بأصول!". إثر ذلك لعب بضع مرات كالسابق وربح كالسابق. ثم طاب له أن يلعب كما يُفترض به وأن يستفيد من فرصه كالآخرين. بعدئذ رأى وجوههم ثانية وأنهم بالكاد كانوا ينظرون في أوراقهم حتى يرموها ببساطة من أيديهم. إذ ذاك أصبح يائساً. أراد مرة أخرى أن يلعب خطأ، لكنه في كل مرة همّ بأن يقوم بشيءٍ خاطئ، شعر بأنه مراقب، بحيث لم يجرؤ عليه. وعندما كان يلعب شيئاً عن جهل، فإنهم كانوا يلعبون أسوأ منه، ذلك لأنهم كانو لا يؤمنون إلا بحظّه. أما عدم حذره فكانوا يعتبرونه مجرد خبث. وازداد اعتقادهم بأنه إنما يلعب معهم مثل القطّ مع الفئران.

عندما صارت جميع فيشات اللعب ثانية أمامه، انتصب الثلاثة واقفين، وبقي وحده لوهلة جالساً، شارد الذهن، مابين الأوراق وعلب المحفوظات. كانت الساعة الحادية عشرة، قبل ساعة من الوصول إلى نيويورك.

أربعة رجال ولعبة بوكر في مقصورة في سفرة من هافانا إلى نيويورك.

كان مازال لديهم بعض الوقت. وبما أن الهواء في المقصورة كان خانقاً جداً، فقد أرادوا أن يصعدوا قليلاً إلى ظهر السفينة. لقد أملوا شيئاً من الهواء المنعش. فكرة الهواء المنعش هذه جعلتهم في مزاج أفضل. حتى أنهم سألوا جوني، ما إذا كان يريد الذهاب معهم إلى ظهر السفينة

لم يرد جوني الذهاب إلى ظهر السفينة.

وعندما رأى الثلاثة أن جوني لا يريد الذهاب معهم إلى ظهر السفينة، بدأوا يقدّرون أهمية ذلك.

هنا فقد جوني لأول مرة تماماً أعصابه، وأخطأ إذ لم يقف حالاً. ربما من خلال ذلك أعطاهم فرصة، لأن يقرأوا على جبينه الخوف لوقت أطول. وهذا بدوره قادهم إلى قرار معين.

بعد خمس دقائق ذهب جوني، دون أن ينطق بكلمة، إلى ظهر السفينة. كان السلّم يتسع لأثنين. وقد حدث أن صعد السلم واحد قدّام جوني، وواحد خلفه، وواحد إلى جانبه.

عندما أصبحوا في الأعلى، كان المساء بارداً وضبابياً. وكان ظهر السفينة رطباً وزلقاً. وجوني كان مسروراً لأنه سار في الوسط.

مرّوا من جانب المقود، حيث وقف رجل لم ينتبه إليهم. وعندما سبقوه بأربع خطوات، شعر جوني بأنه قد فاته شيء. ولكنهم عندئذ كانوا قد توجّهوا إلى الدرابزين، إلى سور ظهر السفينة.

لكن عندما وقفوا إلى الدرابزين، أراد جوني تنفيذ مخططه وأن يصرخ عالياً. لكنه تخلّى عن ذلك، لسبب غريب هو الضباب. فالناس عندما لا يرون جيداً، يظنون أن الآخرين أيضاً لا يسمعونهم جيداً.

في هذه اللحظة دفعوه من فوق الدرابزين إلى الماء.

بعد هذا جلسوا من جديد في المقصورة، وأكلوا ما تبقى في المعلبات، وخلطوا بقايا المشروبات، وتساءلوا، ثلاثة رجال ولعبة بوكر في سفرة من هافانا إلى نيويورك، ما إذا كان جوني بيكر، الذي يسبح الآن وراء السفينة المتوارية مع ضوئها الأحمر، يستطيع أن يسبح جيداً بقدر ما يربح بالبوكر.

لكن، لا أحد يستطيع أن يسبح هكذا جيداً، بحث ينقذ نفسه من البشر، إذا حاز في هذا العالم على زيادة في الحظّ.

* * *

بربارة

فكرت طويلاً، ماذا أسمي هذه القصة. لكني عرفت بعدئذ، أن اسمها "بربارة". أنا أعترف بأن بربارة نفسها لا تظهر إلا في البداية وأنها خلال القصة بأكملها تظهر في ضوء خافت ، لكن القصة لا يمكن أن تسمى إلا "بربارة" .

ادموند ، ويدعى ايدي، السوداوي المزاج الذي يزن مئة كيلو غرام، أساء كثيراً، إذ اصطحبني معه الساعة التاسعة مساء لعند بربارة في شارع ليتسنبورغر٥٣، وذلك لمجرد أننا احتسينا معاً كأسي كوكتيل كورفورستن دام وأن سيارته الكرايسلر وقفت أمام الخمارة، مع أنه كان عليه أن يعلم أن بربارة كان لديها "مقابلة هامة مع مدير ناد ليلي".

قرعنا الجرس، دخلنا، علقنا المعطفين ورأينا بربارة قادمة إلينا وهي غاضبة، وسمعناها تصرخ: "سوف تجعلني مجنونة بغيرتك البلهاء". وعلى الأثر انصفق الباب، ولاحظنا أننا نقف من جديد في الأسفل أمام كرايسلر ايدي فجلسنا على الفور في السيارة.

انطلق ايدي بسرعة مفاجئة. وسار مثل هب الريح من بين حافلتين كهربائيتين متقاطعتين على تماس بذقن سيدة معمّرة، ومن حول شرطي، وبأقصى سرعة فوق جسر هالنزير.

كان كل الوقت يتحدث دون توقف. لقد بدا، كما لو أنه كلة[1] دسم، مع قبعة صغيرة سوداء صلبة كرأس، وفي وسطها رافعة سوداء صغيرة، وما بين هذه والقبعة كل شيء مدهون بعناية بالدسم. ولدى هذه الكلة مقود كبير نوعاً ما، وتتحرك الآن بسرعة مخيفة ومتزايدة باتجاه الغابات.

وكما قلت، كانت كلّة الدسم، تتحدث أثناء ذلك.

"أترى"، قالت كلّة الدسم، "كان هذا من الأمور الصغيرة.عدم تهذيب صغير، سبّبته عصبية قوية. لكن، ألا ترى، هذه الأمور الصغيرة هي الكلّ، بصراحة: لقد اكتفيت من ذلك. ماذا تعني الغيرة؟ إذا وجد انسان لايغار، لايعرف هذا الشعور على الإطلاق، ولم يعرفه قطّ، فإنه أنا. بالطبع لا أهيم بمدراء النوادي الليلية، ولكن هذا سيكون مطلباً زائداً عن الحد. بالطبع من حقها أن تستقبل مثل هؤلاء الغلمان الساعة التاسعة مساء وفي ثياب النوم، وإذا وجد أحد يحترم الحق، من كل نوع، إلى حدّه الأقصى، فهو أنا. لكن هذا طيش من بربارة. هذا ما أقوله، ولاشيء غير ذلك. قال غيرة قال!".

" لاأستطيع إطلاقاً أن أقول لك، كم أكون غاضباً، عندما أرى مثل هذه المعاطف الرجالية المبطّنة في مشجب بربارة. بالطبع، المسألة ليست مسألة معطف. كما أنني لاأعلم ماهي المسألة، لكن لديّ ببساطة نفور غريزي من المعاطف المبطنة بالفرو. حتى معطفي الذي أرتديه يقرفني. غير

---

١) تلفظ الكاف هنا كقاف بدوية أو جيم مصرية (قاهرية)

أنني لجمت نفسي منذ أمد، عن أن أعبر عـن آرائـي الخاصـة. علـيّ أن أقـول لك، بأن الأمر وصل بذلك الآن إلى نهايته. قطعاً".

هذا ماقاله ايدي، عندما أصبحنا فـوق جسـر هـالنزير. في غابـة الغرونـه فالد تكلم أكثر بكثير. كان معكراً بضباب كريه، وكنت أتمنى لـو كنـت في البيت. لكن ايدي كان مازال لديه الكثير ليقوله.

كان واضحاً أنه يريد أن يعرفـني علـى نظرتـه إلى الحيـاة. فقـال لي كـل ماكان يفكر به حول العالم. قال هذا دون تزويق، في الوقت الذي كان يسير فيه بسرعة ٩٠ كيلو متر على طريق لاوجود له إلا في مخيلتـه. كـان فيلسـوفاً رديئاً وسائقاً ممتازاً، لكن سواقته كانت أخطـر بكثـير مـن فلسـفته. قـال، إن البشر عموماً مصنوعون بصورة خاطئة، ببساطة صناعـة معطوبـة مـن النـوع غير المجرب، كما ترميها بعض الشركات في السوق، فتصرف وقتاً ضئيلاً في ذلك ثم تغطي حثالتها بهيكل جميل من الألمنيوم. غير أنني رأيت فراشات تمر بسرعة خاطفة وشعرت بأن السرعة كانت متهورة بكل معنى الكلمة.

أعطى ايدي مزيداً من الوقود كي يسرع أكثر، وقال لي ماكان يفكّر به حول النساء. فايدي اعتبر النساء، عندما أوصل السرعة إلى ١٠٠ كيلو مـتر، شيئاً من هذه الحثالة، بحيث سأل نفسه، لماذا يوضعن دائمـاً فوق الحيوانـات المنزليـة الأخـرى الـتي هـي موثوقـة أكـثر. هـنّ أداة سـهلة جـداً، حيطـان رابيتس[1]!. عند قوله" حيطان رابيتس"، وقد استعملها على النساء، كزّ على أسنانه مباشرة. ووصل هكذا إلى السرعة المرعبة لـ ١١٠ كيلو متر.

---

١) حيطان فاصلة خفيفة، مسماة باسم مخترعها.

بهذه السرعة (١١٠ كيلو متر في الساعة) لم أستطع أن أدقق في حجج ايدي ضد النساء، لكن الفراشات، التي رأيتها تمرّ بسرعة خاطفة، بدت لي موثوقة بشكل هائل، ومقاومة إلى أبلغ الحدود.

الرهيب في الأمر هو أن ضيق ايدي بالدنيا كانت له قدم، وهذه تضغط على دواسة البنزين. وبما أنه ماكان وارداً أن أزيل القدم، فقد حاولت أن أفعل شيئاً ضد الضيق بالدنيا.

بناء عليه بدأت، في منتصف الليل على طريق غير منار ما بين بحيرة فانزيه ومدينة بوتسدام وغرونه فالد إلخ، أن أبين لكلة الدسم التي أصبحت مجنونة مزايا الكوكب الأرضي. قلت له ببساطة، إذ لم أستطع في مثل هذه الظروف أن أدخل في التفاصيل، إن كل شيء نسبي، مع أنني رأيت بأن سرعتنا كانت بلا شك مطلقة. كنا نتجه، ليس بأي حال نسبياً ، سريعاً نحو حتفنا. وعندما وصلت إلى التكلم في موضوع "بعد المطر يأتي ضياء الشمس" كنا بسرعتنا الخاطفة نسير تماماً على منحدر في الغابة، وأخيراً عندما خبّصنا في الأسفل على المرج، لم تستطع بالطبع محاضرتي عن "الجوانب الجيدة التي تملكها النساء" أن تؤثر إلا قليلاً. في الأسفل لاح لايدي الطريق العام من جديد وأمكنه أن يعيد سيارته إلى السرعة التي تناسب يأسه.

كنت منهكاً كلياً. قدّرت أننا في مطلع الفجر سوف نرتمي عند أي حجر مسافة، ما زالت حتى الآن بيضاء[1] نحن، أي: سيارة سابقة ومجنون سابق وضحية سابقة لهذا المجنون. كنت ناقماً بشكل مرعب.

---

١) لأنها لم تصطبغ بدمائهم بعد.

سرنا بالسيارة زمناً، على الأقل نصف ساعة، في صمت مطبق، إنما دون أي تخفيض للسرعة. ثم سار ايدي مرة أخرى على منحدر من حصى، فقلت له باقتضاب وفظاظة: " أنت تسوق مثل خنزير بري".

هذه الكلمة التي كنت جاداً فيها، كان لها تأثير كبير على ايدي. فمن المعلوم أنه كان سائقاً ممتازاً. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيعه.

صوت عميق صدر عن جسده اللامتناسق، كأنه أنين عملاق قيل له إنه أضعف من أن يقتلع أعواد الحشيش.

ثم قاد ايدي السيارة بسرعة ١٢٠ كيلو متر .

كنا بالضبط في منطقة كثيرة المنعطفات و لم يكن هناك سوى القليل من الضوء، فقط في القرى وجدت بعض الأضواء ، من اسطبلات البقر إلخ. من خلال بريق خافت خاطف كاللمع رأيت كسم ايدي؛ ابتسامة خفيفة مزدرية ارتسمت على وجهه الطفولي الذي لم يعد من هذا العالم.

غير أنه في قلب الغابة، حيث عمّ سواد كالخطيئة، دقر المحرك .

فأعطى ايدي وقوداً.

فسارت السيارة أبطأ.

فدعس ايدي على الدبرياج وأعطى وقوداً مرة أخرى.

فتوقفت السيارة.

لم يكن هناك بنزين.

فنزل ايدي وحملق في خزان الوقود، نظر في صفيحته، هزّها، وجلس مكسور الخاطر على مدخل باب السيارة. كنا في غابة بلا بداية ولا نهاية، في غابة لم تكن بالتأكيد مرسومة على خارطة. لا بد أنها كانت بعيدة في الشرق، فقد كان الجو بارداً مثل جورة ثلجية.

بذلك تكون قصتي بالأساس قد انتهت. أستطيع فقط أن أضيف، بأنه رؤي عند الصباح في قرية نائية رجلان يدفشان أمامهما سيارة كرايسلر، وبينما الأول، النحيف يقول للآخر كل ماكان يفكر به عنه وأكثر، كان الثاني، كتلة الدسم المعطوبة، والتي لا شكل لها، ينفّخ وهو يدفش، ويضحك بين الفينة والأخرى.

غير أنه كان ضحكاً طفولياً وسعيداً.

* * *

وجه جديد

في أحد البلاد الكبيرة كان يعيش تاجر. وكان يشتري أشياء كثيرة، كبيرة وصغيرة، ويبيعها مع ربح جيد جداً. اشترى معامل وأنهاراً، غابات وأحياء في المدن، مناجم وسفنا. وإذا لم يكن لدى الناس ما يبيعونه، كان يشتري منهم وقتهم، أي أنه كان يجعلهم يعملون عنده مقابل أجر، وهكذا كان يشتري عضلاتهم أو دماغهم. كان يشتري قبضة أذرعهم من أجل شريط إنتاجه الدائر، ودعسة أقدامهم من أجل أطعمته، وتوقيعاتهم وخططهم في دفاتر حساباته.

كان تاجراً كبيراً جداً وصار أكبر فأكبر. وكان في طول البلاد وعرضه محترماً جداً وصار أكثر فأكثر احتراماً. لكن، فجأة أصيب بمرض شديد.

ففي يوم من الأيام أراد أن يشتري شيئاً من جديد، هذه المرة بعض مناجم القصدير في المكسيك. في الحقيقة لم يرد أن يشتريها هو بنفسه، بل كان على أناس آخرين أن يشتروها له، كي يستطيع هو أن يبيعها. كان يريد أن يخدع هؤلاء الناس.

تواعد معهم في بيت مصرفي.

هناك تباحثوا عدة ساعات فيما بينهم، حيث دخنوا سيجارات ثخينة وسجلوا إضافة لذلك بعض الأرقام.

تحدث التاجر الكبير لأصدقائه التجار، كم من النقود يمكنهم أن يكسبوا من هذه الصفقة، وبما أنه بدا كتاجر محترم جداً ومهذّب ولطيف، كما يكون عادة تاجر كهل وردي بشعرات بيضاء لامعة، لذلك صدّقوه، على الأقل في البداية. لكن بعدئذ حدث شيء غريب.

فقد لاحظ فجأة أن السادة كانوا ينظرون إليه بشكل غريب، حتى أنهم بعدئذ تنحوا بعيداً عنه فيما هو يتكلم. نظر إلى نفسه من تحت، لعل في بدلته شيء ليس كما يجب، لكن بدلته كانت على مايرام. فلم يعرف بتاتاً، ما الأمر. وفجأة نهض السادة معاً، وبدت وجوههم الآن مرتعبة تماماً، ونظروا إليه بشكل سافر على أنه شيء مخيف. هذا مع أنه كان يتكلم كالعادة، بتهذيب ولطف مثل أي تاجر كبير محترم.

لماذا إذن لم يعد يستمع إليه أحد، ولماذا ذهبوا خارجين هكذا ببساطة دون أي اعتذار، وتركوه وحده جالساً؟ على كل، هذا ماحدث. إثر ذلك نهض هو الآخر ونزل إلى الشارع ليستقل سيارته. وهنا رأى كيف أن السائق ارتعب، عندما رآه.

في البيت أسرع في الحال إلى مرآته. وهنا رأى شيئاً مرعباً.

مقابله في المرآة نظر إليه وجه نمر .

لقد صار له وجه جديد! بدا مثل نمر!

* * *

السلامة أولاً[1]

في مجلس رجالي جاء الحديث على الجبن، وبما أننا كنا قد شربنا مـا فيـه الكفاية، فقد تجنبنا حديث الحكماء. فقصصنا جميعاً تقريباً أحداثاً من حياتنـا، تصرفنا فيها "بشكل ما كجبناء". كان واضحاً بالنسبة لنا، كم هو سيء أن يكتشف الآخرون نقطة الضعف هذه فينا، إنما الأسوأ هو عندما نلمـس نحـن أنفسنا الجبن فينا. بوصولنا إلى هذه النقطة سرد أحدنا القصة التالية:

كان ميتشل ربّاناً لإحدى تلك السفن العملاقة التي تبحر ما بين البرازيل وانكلترا، تلك المسماة "فنادق عائمة". بالطبع لم يعد يصحّ أن نتخيّـل هـؤلاء الربابنة على أنهم دببة البحار لزمن أجدادنا، الذين في زبد وضربات الأمـواج يقفون على جسر القيادة ويزمجرون بالأوامر. كان ميتشل شاباً طويـلاً قويـاً، لكن ما كان ليخطر على بـال أحـد أنـه بحـار، الأرجـح أنـه مهنـدس، وهـذا ماكانه أيضاً، أومدير فندق.

---

١) في الأصل بالانكليزية: **Safety First**

وقد حدث مع ميتشل شيء غريب. فقبيل نهاية إحدى سفراته، ليس بعيداً عن اسكتلندا، اصطدمت السفينة في الضباب بمركب صيد، وعلى كل لم يكن الحق على ميتشل ورجاله. غير أن القارب العملاق، وكان يسمى "أستوريا"، انثقب وابتلع ماء. تفحّص السادة في غرفة الملاحة الضرر، فتوصلوا للقرار النهائي بإرسال نداء استغاثة **SOS**. لقد حسبوا أن الزمن الذي يمكن أن تصمد فيه السفينة لا يزيد على ساعة واحدة، في حين أن كبائن السفينة مشغولة تماماً بالركاب.

أرسل نداء الاستغاثة **sos**، فقدمت سفينة، سفينتان. وجرى نقل الركاب إليهما.

وبينما كان أقرباء الركاب في لندن أمام مكاتب الترانس أتلانتيك يعانقون الركاب من شدة الفرح، كان ميتشل يعيش ساعات صعبة. لقد بقي مع ضباطه وبحارته على متن "أستوريا"، لأن هذه بصورة مفاجئة وخلافاً لكل التنبؤات لم تغرق. كما أنها لم تغرق في الساعات التالية ووصلت المرفأ دون أية حوادث أخرى.

نظر ميتشل إلى تصرّف مركبه هذا بمشاعر أكثر من مختلطة. فبعد الدراسة كان في يأس حقيقي من وضع هذه الصندوقة وتسرّب الماء إلى داخلها. وكان مزعجاً جداً بالنسبة له أن هذه السفينة الزفت لم تغرق.

عندما وصل إلى رصيف المرفأ، سلّم عليه أقرباؤه، أبوه وأختاه وعريس الأخت الكبرى. كانوا قد عانوا من خوف كبير، عندما أنبأت الصحف عن نداء استغاثة "استوريا". فهم يعيشون منه. والآن هم سعداء جداً، بالإضافة

إلى أنهم فخورون. وقد أضجروه بأسئلتهم: كيف قدرت على أن تجرّ السفينة إلى هنا؟ إلخ. بحسب فهمهم الغرّ ظنوا أنه قام بعمل بطولي.

في اليوم التالي مضى في طريقه الصعب.

بالطبع لم تكن آماله كبيرة، عندما وصل إلى مكاتب شركته، الترانس أتلانتيك. فقد استدعى مبكراً، أي دون ضرورة، مساعدة غريبة، مساعدة غريبة غالية جداً. لكن الاستقبال، الذي حُضّر له، كان أسوأ من كلّ ما توقعه.

كان صاحب الترانس أتلانتيك هو إ.ب. وتش الكبير، وهذا استقبل ميتشل شخصياً. بحسب رأيه الخاص كان صديق الحقيقة، ومن ذلك استخلص لنفسه الحق في أن يصرخ عالياً، بحيث أمكن لكل المكاتب أن يسمعوا رأيه بأناس مثل ميتشل. وهكذا تسرّبت عبر الجدران كلمة جبان للمستخدم ومن هناك بسهولة إلى جميع المكاتب الأخرى لجميع شركات السفن الأخرى وإلى جميع الحانات وجميع دكاكين البحارة وبالتالي إلى كل مكان يجلس فيه أناس لهم علاقة بالسفن. إ.ب. وتش لم يصرخ فحسب، بل الأسوأ من ذلك ماقاله بصوت أجش عن زلمته ميتشل.

وسُرِّح ميتشل من عمله. سبب التسريح هو تحديداً الجبن، ولذلك كأنه سُرّح من الملاحة الأمريكية كلها، وليس فقط من الترانس أتلانتيك. وحيثما ذهب في الأيام والأسابيع التالية، لم يكن ليجد أحداً يسلّمه قيادة سفينة. فلا أحد من أصحاب السفن لديه الرغبة في استخدام ربّان ينادي من أجل سفن لم تمت تماماً بعد، أطباء غالين، أي سفناً أخرى، بدل أن يملك الشجاعة لمتابعة الإبحار أو على الأقل للمحاولة، لعله يستطيع بقوته الخاصة أن يصل

بالسفينة سالمة. تجاه الخارج قيل، إن ذنب ميتشل كمن في أنه "فقد عقله وجعل الركاب الغاليين في حالة اضطراب مجانية".

بهذه الصيغة أمكن للمرء أن يقرأ القصة في الجرائد، وهكذا قرأتها عائلة ميتشل.

كما قلنا، في البدء كان لدى العائلة تصور تفاؤلي عن الأمر. بالطبع لم يتكلم ميتشل في البيت عن الشجار في الترانس أتلانتيك. ولم يكن لدى العائلة أي علم بالتسريح من العمل فتابعت عيشها في بحبوحة. الأخت الكبرى كانت تحضّر لعرسها، وهو مناسبة غالية. ثم وصلت الجرائد، فصارت الأخت الصغرى أضحوكة صديقاتها بسبب أخيها. كذلك عريس الكبرى أحسّ بالحالة وظهر بسحنة مهمومة جداً. قال لخطيبته، إنه ليس محظوظاً.

بدهياً لم يكن الأمر هكذا، بحيث أن العائلة تعامل فجأة معيلها حتى الآن معاملة مختلفة. فهو مازال معبود العائلة. لكنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا الأمر تماماً، وعلى نحو ما لم يستوعبوه. ثم إنه عليهم الآن أن يقلّلوا من مصروفهم. وقد كانوا بكياستهم يثيرون أعصاب ميتشل.

بالإضافة لذلك لاقى ميتشل مزعجات أخرى.

كان في شبه علاقة خطوبة مع أرملة شابة تملك منزولاً[1] للبحارة، بدءاً من البحار على المقود فصاعداً، وهي تدعى بيث هيووتر. كانت تستلطف ميتشل، لكنها لسوء الحظ كانت تتعامل مهنياً مع بحارة. وهؤلاء كانوا

---

١) في الاصل **Boardinghouse**

مشحونين ضد ميتشل. كانوا جميعاً يعانون من أصحاب السفن، ويفترض بهم بالتالي أن يستطيعوا فهم ميتشل. فالرجل بالنتيجة فضّل مصلحة الركاب على مصلحة الشركة. لكنهم للأسف ما كانوا يفكرون هكذا، بل الأرجح كمتنافسين. لذلك، عندما زار بيث هيووتر وجلس في الصالون ينتظرها، عملوا له مقلباً سيئاً.

الفاعل الرئيسي لهذا الملعوب كان تومي وايت، ربّان "سورفاس"، الذي كان قد أخذ لتوّه إجازة لمدة أسبوعين، لأن مركبه وُضع في حوض السفن للتجفيف. كان مهتماً ببيث هيووتر، ولذلك شارك روحاً وجسداً بالملعوب.

نجح وايت في جعل بيث لا تستقبل ميتشل، عندما قصدها، بل تدعه ينتظر في الصالون بحجة أنها ذهبت لعند أمها. وهكذا جلس إليه بعض الضيوف وفتحوا معه أحاديث متعاطفة ظاهرياً عن سوء حظه وعن زيارة بيث الطويلة لأمها.

في هذه الأثناء أعدّ تومي في الأعلى، في غرفة بيث، المشهد. فرمى بضع كراسي في الزاوية، أزاح السجادة، صبّ حبراً أحمر عليها وطرح هاري بيغرز، مساعده، على السجادة بالعرض ووجهه نحو الأسفل. ثم رمى على طاولة الزينة البراونينغ[1] الفضي الصغير لبيث الذي كانت قد حصلت عليه من ميتشل في عيد ميلادها. وبصورة عرضية (فهذا لم يكن متفقاً عليه مع بيث) أخذ من على طاولة الزينة صورة لميتشل، مزّقها، ورماها في سلّة المهملات. ثم أطلق رصاصة من البراونينغ في المدخنة وأعاده إلى الطاولة.

---

[1]) Browning نوع من المسدسات.

عندما جاء "مع كل علائم الذعر" متهردباً إلى الصالون، كان ميتشل يجلس متهجماً في زاويته. لكنه، عندماسمع أنه "قد حدث شيء للسيدة هيووتر"، هرع فجأة إلى فوق. كذلك ذهب السادة إلى فوق، وألقوا نظرة في غرفة السيدة هيووتر، ثم ذهبوا إلى غرفة تومي، كي يتشاوروا.

تحدث تومي، وهو يصبّ الويسكي للجميع، بأن هاري بيغرز كان قد دعم السيد هويوتر، عندما كان هذا على قيد الحياة، بمبلغ غير قليل من المال. والآن، حيث أن الأعمال جيدة، أراد استرداد نقوده. غير أن بيث بدت غير راغبة في ذلك. فيظهر أنها فضّلت أن تقتله. وعلى كل، المهم أن يكون واضحاً لنا ما علينا فعله. قال هذا ونظر إلى ميتشل. فقال ميتشل بتأنّ، بأنه يرى إحضار بيث والاتفاق معها على ما يجب قوله للشرطة. مثلاً يمكن أن يقال، إن المساعد حاول أن يكون حميماً معها.

عندما عرض هذا، رأى أن الجميع يتبسمون. كان ابتساماً غير مريح على الإطلاق.

"إذن أنت تقترح إحضار الشرطة؟"، سأله تومي وهو ينظر إلى الآخرين.

"لا"، قال ميتشل،"أنا اقترحت إحضار بيث".

فقال تومي بازدراء: "كنت أظن أنه يمكننا تدبير الأمر بالنيابة عن بيث، أنت تعلم. أقصد، نحن الرجال نستطيع فيما بيننا أن نقوم بشيء من أجل بيث".

"إذن عندئذ تكون هذه قضيتي"، قال ميتشل بتأنّ مرة أخرى، "قدّم اقتراحاً!".

لم يكن ميتشل صاحياً تماماً. لقد شرب الكثير عندما كان تحت في الصالون ينتظر بيث. فلم يكن صعباً جداً أن يقنعه المرء ببعض الأشياء. قال له تومي، إن المشكلة هي، كما علم من مساعده، أن هناك رسالة استلمها هاري بيغرز من بيث. وفي هذه الرسالة تدعوه إليها. إذن يجب الحصول على هذه الرسالة.

وهكذا ذهب الجميع مرة أخرى إلى غرفة بيث وفتشوا عن الرسالة. فلم يجدوها في جيب هاري بيغرز. ولا في سلة المهملات. في سلة المهملات كانت بدلاً من ذلك صورة ممزقة، التقطها ميتشل. وكما هو مفهوم، لم يلفت ميتشل الأنظار إليها، بل دسّها في مكان ما من ثيابه. وهذا ماسوف يندم عليه.

في منزل هيووتر كانت هناك فتاة شابة، تدعى جين راسل، تعزّل الغرف وتساعد أيضاً في المطبخ. كان شخصاً دون اعتبار، بجوارب سميكة ومريول طويل، بالإضافة إلى نظارة، تفتقد إلى ما يسمى جاذبية جنسية[1].

كان ميتشل هو الضيف الوحيد تقريباً، الذي كان لطيفاً معها بعض الأحيان. وعندما سعى الناس في المنزول لأن يبرهنوا لبيث هيووتر أن خطيبها جبان حقيقي، لعبت الصغيرة جين بتحمّسها لميتشل دوراً رئيسياً في مخطط معركتهم.

أخذ ميتشل الصغيرة إلى غرفة فارغة واستعلم منها. وفي الحال قالت له، إنها لا تعرف بيغرز إطلاقاً وكذلك لم تسحب منه أية رسالة. ومع أنه كان

---

١) في الاصل Sex - Appeal

في جوف ميتشل الكثير من الخمر، فقد أمكنه مع ذلك أن يكتشف أنها قالت الحقيقة. فلم يكن اكتشاف ذلك صعباً لدى جين راسل.

وعندما قال للسادة، إنه ليس لدى جين أية رسالة، رأى من جديد ذلك الابتسام المشؤوم. ثم قال تومي فجأة:

"وماذا عن الرسالة في جيبك؟".

كان ميتشل مرتبكاً بعض الشيء. فمدّ يده إلى جيب سرواله، ووجد الصورة الممزقة في الداخل. لكنه لم يتجرأ على إظهارها. فابتسموا مرة أخرى.

ثم استقدموا سيارة، حشروا فيها هاري بيغرز وأجلسوا ميتشل إلى المقود، بينما جلس السائق في الصالون يشرب الويسكي. كان على ميتشل أن ينقل الجثة إلى ظهر "سورفاس"، سفينة تومي وايت. وكان يعلم أين هي، فمضى إليها.

عندما وصل إلى هناك، رأى سيارة شرطة المكافحة واقفة على الرصيف، وكانت السفينة مضاءة. ولم يكن هذا غريباً، لأنه فيما كان ميتشل يستنطق جين، أخبر تومي الشرطة هاتفياً، بأنه تمّ اكتشاف بترول في مستودع الفحم في "سورفاس" ويُخشى من حدوث حريق.

مع ذلك زحف ميتشل خارجاً من سيارته وتقدّم إلى الماء. ورأى الشرطة على الـ "سورفاس"، فعاد متمايلاً. وعندما عاد إلى سيارته، افتقد الجثة. تملكه رعب، فقاد السيارة بطرق جانبية إلى منزل بيث.

هناك حدث شيء مع جين راسل. فمنذ استجوبها ميتشل انتبهت جيداً إلى كل ما يحدث في المنزل. فعرفت أن السيدة هيووتر تمكث في الغرفة التي

يُحفظ فيها الغسيل. لقد رأت السيد وايت والسيد ميتشل يحملان هاري بيغرز، الذي بدا لها ثملاً، نازلين على الدرج، ورأت كيف أن ميتشل أخذه معه في السيارة. ثم سمعت السيد وايت يقول للسائق، إن أحد الضيوف فرّ بسيارته. ورأت الرجل يذهب إلى الهاتف، وسمعت كيف اتصل بالشرطة.

في هذه اللحظة تدخلت في الحدث. فذهبت إلى السائق وقالت له، إن السيد الذي أخذ سيارته هو رجل محترم، وإن الأمر كله مجرد دعابة، لا علاقة للشرطة به. وفي الحال قاطعتها بيث هيووتر بحدّة وحتى حاولت من ثم أن تجرّها بعيداً. إذ ذاك أصبحت جين الصغيرة المتواضعة شرسة، ووصل الأمر إلى أن تعاركت على الممر مع بيث هيووتر وسرّحت من عملها. على أي حال وفّر هذا على ميتشل أن يمثل أمام الشرطة وهو في وضع لا يستطيع فيه أن يتكلم.

غير أنه لم يوفّر عليه شيئاً آخر.

فقد فتح الباب إلى الصالون وظن أنه لا يرى جيداً. ففي الزاوية كان يجلس براحة وأمامهم كاسات الويسكي بيث وتومي والآخرون، وإلى جانب بيث جلس هاري بيغرز وهو يتبسم بشماتة. كذلك بيث وتومي والآخرون كانوا يتبسمون شامتين.

"لاشك أنك كنت تريد أن تحدثنا الآن بأنك وضعت هاري في مكان ما؟"، حيّاه بذلك تومي. لكن ميتشل لم يعد لديه في الحقيقة ما يقوله. تهردب ثانية إلى الخارج وبقي فترة حائراً أمام المنزل.

بعد بعض الوقت انتبه إلى أن شخصاً يقف إلى جانبه وأنه جين راسل، ع حقيبة في اليد ودموع في العينين وراء النظارة. فعلم أن بيث طردتها،

"لأنها ضربت السيدة هيووتر من أجل ميتشل". وأخبرته أنه ليس لها أقرباء في لندن ولا تعلم إلى أين، وقد تأخر الوقت. قال لها ميتشل، إنها تستطيع أن تأتي معه. وهكذا أحضرها معه قرب الفجر إلى مسكنه. آواها في غرفته واستلقى هو على القاطع في غرفة المعيشة، وكان مازال ثملاً.

في الصباح نشأ ظرف غير مريح. فأختاه رأتا جين الصغيرة في غرفة نومه، واستغربتا. وميتشل تكلم بشيء ما غير مترابط، ولاسيما عندما أحسّ بالتحفظ العام الذي استمعوا به إليه. مع ذلك عبّر عن أن بيت خادمة، وبذلك قُدّم لها الفطور في المطبخ. لم يكن الأمر مريحاً بالنسبة له، وكان الأقلّ راحة أنه بعدئذ جرى الحديث مع جين بوجود العائلة. فاستفسر بصورة مصطنعة عن نواياها ووافقها على أن الأفضل لها لو تذهب إلى ملجأ معين، حيث تحصل الخادمات على المنامة والطعام بأسعار رخيصة. لسوء الحظ كان قد تحدث مع جين تحديداً حول هذا الملجأ في قدومهم الليلي. وقد قالت له، إنه سيء جداً وليس بمستطاعها[1] إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام كأقصى حدّ.

إثر ذهاب جين مع حقيبتها، تملك ميتشل لأول مرة شعور بأنه جبان.

في الأيام التالية تابع بحثه عن عمل بهمّة عالية. أما عائلته فكانت تتصرف كالطاووس، فقد تجاهلت تماماً تغيّر الوضع. حتى أن أختيه اشترتا في هذه الأيام بيانو بالتقسيط.

---

[1]) الإقامة فيه

ولم يجد وظيفة جديدة. بدا أن الجميع علموا بما حدث له. ثم إنه لم تكن هناك وظائف بهذه الكثرة لربابنة بواخر ممتازة، ولا حتى للشجعان منهم.

ومن كثرة انشغاله بذلك نسي حتى أن يسأل بعد ثلاثة أيام عن جين في الملجأ. في اليوم الرابع سألته أخته عنها، فذهب إلى هناك. كانت قد رحلت في اليوم الثاني. لكن في مساء ذلك اليوم عُرضت عليه وظيفة.

ففي منطقة أحواض الهند الشرقية كانت هناك شركة يديرها أخوان، سمعتهما سيئة إلى أبلغ الحدود. وهذان أرسلا من أخبره، بأنه قد يكون لديهما شيء له. فذهب إلى هناك وسمع منهما، أنه يمكنه أن يقود لهما قارباً لشحن الفحم إلى هولندا.

"كنت منحوساً في الفترة الأخيرة، يا ميتشل"، قال له أحد الأخوين وابتسم بخبث، "لكن هذه مهمة مناسبة لك، تستطيع بها أن تنجح ثانية. لكنك بالتاكيد لن ترسل في الحال إشارة استغاثة **SOS**، أليس كذلك؟".

ابتلع ميتشل ذلك، وذهب معهما لرؤية قارب الشحن. كان أقدم واقذر وأردأ سطل[١] رآه في حياته. فهذا المعوّق[٢] لن يستطيع أبداً أن يصل إلى روتردام. كما أن الأخوين ما أرادا ذلك بأي حال. كان كل شيء واضحاً كالشمس، القضية قضية الحصول على مبلغ التأمين، ليس إلا.

كانت سمعة ميتشل الطيبة فيما يخصّ الشعور بالمسؤولية (هكذا يُسمى الوجه الآخر من الجبن) هي التي جعلت منه الربّان المناسب لهذه المهمة.

---

[١]) يقصد: القارب.

[٢]) يقصد أيضاً: القارب.

أحس بغليان شديد في صدره، لكنه كبته و لم يقل لا. فطلب مهلة للتفكير وغادر. من حين لآخر كان يقف أمام واجهة محل ويجري حواراً مع صورته في زجاج الواجهة.

سأل نفسه:"هل أنت جبان؟". وميتشل المرآة هزّ الكتفين.

"هل كنت هكذا دائماً؟". وميتشل المرآة هزّ الرأس.

ثم صادف جين. كانت تقف في زاوية من أحد المنازل وتنتظر شيئاً ما. ظن بالأسوأ و لم يتجرأ على المرور أمامها. وهكذا رأى من الجهة المقابلة، كيف تكلم معها رجل ظنّ بها مثله. لكن بدا أنها صدّته بقسوة. إثر ذلك عبر ميتشل إليها ودعاها إلى المقهى. قالت، إنه يناسبها أن تتمكن من النظر إلى الشارع عبر النافذة. فهي تنتظر صديقة تعرف شيئاً عن فرصة عمل.

في العشرين دقيقة التي أمضاها ميتشل في هذا المقهى الصغير عاش الدرك الأسفل من حياته.

وكي يقول لها شيئاً لطيفاً، افتتح الحديث بالتصريح بأن مظهرها جيد جداً.

هذا يدهشها، قالت له، وهي تتطلع بصورة سافرة في وجهه. لم تكن جبانة. والمعجنات على الطاولة، التي دفعها نحوها، أكلتها كلها دون حرج. لم يكن لديها مانع في أن يرى أنها لم تكن شبعانة.

ثم انتقل، وهو مشوّش قليلاً، إلى أن يبين لها، أنه عليها، إذا أرادت عملاً جديداً، أن تعدّ نفسها بشكل آخر. انتقد التسريحة، وحتى أنه نزع عنها النظارة. كانت لها عينان جميلتان.

ردت عليه، بأنها لاترغب بتلك الأعمال التي يجب أن تظهر فيها مليحة. على أنه يُخشى أن يكون العمل الذي تعرضه صديقها من هذا النوع.

إثر ذلك بدأ، لدهشته هو نفسه، يلحّ عليها بأن لا تقبل مثل هذا العمل. حتى أنه اقترح عليها أن تقبل منه نقوداً تعيش منها، ريثما تجد عملاً أفضل.

فأزعجه أنها بدت كأنها لم تأخذ عرضه على محمل الجدّ. لأنها في هذه اللحظة رأت صديقتها (ذات الوظيفة السيئة) عبر النافذة، فنهضت وهرعت إلى الخارج. وبالكاد استطاع أن يعرف عنوانها.

بعد هذه المعايشة الصغيرة كان يُفترض به أن يكون محطماً، لكنه كان بالعكس متشجعاً. لقد علم الآن، أنه يجب أن يحدث شيء يضع نهاية لهذه اللعنة. فذهب إلى حانة وتناول بضعة أقداحٍ من الويسكي، كمية أكثر مما يحتمل. وبعد أن تأكد أنه لم يعد يرى كأساً، ولا أين توجد كأس، غادر الحانة. وذهب مباشرة إلى البيت.

في غرفة المعيشة كان يجلس أبوه واختاه الأصغر منه. كانوا يستمعون في الراديو إلى "ترافياتا". فأوقف الموسيقى وأوضح لهم دون مواربة، أنه عليهم أن يخلوا مسكنهم ذا الثماني غرف وينتقلوا إلى مسكن بغرفتين، وأن على ختيه أن يبحثا عن عمل مكتبي، إذ أن شركته طردته من العمل، سيان لماذا.

ثم غرق في النوم، وفي الصباح اصطحب اختيه، بمن فيهما الكبرى، إلى كتب التوظيف. كانتا خجلتين جداً. واستطاع أن يلاحظ، كيف عاد جزء ن الاحترام المفقود. حتى أن أخته الكبرى لم تعارض بكلمة، عندما أوعز لها أن تفسخ خطوبتها، إذا كان خطيبها غير راضٍ عن ابن حميه.

الشيء الثاني الذي فعله هو أنه خابر الأخوين صاحبي قارب الفحم. قال لهما، إنه يريد أن يتعاقد معهما، وعليهما أن ينجزا الأوراق. وحدّد معهما موعد الإبحار. في المساء قبلئذ عليهما أن يحضرا إلى القارب ويسلّماه الأوراق. وفي هذه الأثناء سوف يهتم هو بإيجاد الطاقم. وكان هذا يوافق مساء الثلاثاء.

الشيء الثالث هو أنه خابر أناساً آخرين مختلفين ودعاهم لمساء الثلاثاء إلى عشاء صغير على ظهر "المايدا". من بين هؤلاء كان السادة في المنزول، ومن بينهم بيث هيوورتر، وحتى من بينهم ربّ عمله السابق. وقد وافق الجميع على الحضور حتى إ.ب.وِتش. فعلاقة ميتشل بزملائه وحتى بأرباب عمله بقيت بعد "الحادث" ظاهرياً، كما كانت. استمروا يربتون على كتفه، عندما يلتقون به عرضاً. كل ما هنالك أنه أصبح الآن لدى الجميع تلك الابتسامة اللعينة التي لم تعجب ميتشل، على الإطلاق.

ثم دعا صحفياً يعرفه، وطلب عشاء ممتازاً من سافوي مع مايلزمه من نادلين، لتقديمه على ظهر "المايدا". بعدئذ، قبل ظهر الثلاثاء، توجّه إلى النقطة الرابعة.

النقطة الرابعة هي جين.

اقتفى أثرها في منزل بائس، وكانت ماتزال بلا عمل. شيء واحد فقط انسرّت به عينه في هذه الحجرة، وهو صورته (الممزّقة). فقد حصلت عليها بطريقة ما في ذلك المساء الحاسم، وهاهي هنا معروضة على الكومودينة. وجين لم تكن مستعدة لأن تبعدها.

سألها: "ألا تريدين على الأقل إخفاءها عني؟". فهزّت الرأس. في هذه الحالة كان أي شيء آخر نسبياً بسيطاً. و لم ينشأ سوى صراع صغير، عندما نزع عن وجهها النظارة ("سوف أقودك وأبصر عن اثنين") وعندما قام بإعادة تسريح شعرها ("بيث تعتبر الشعر على الوجه ليس حسناً").

على الـ"ألمايدا" كان كل شيء على أفضل حال. النادلون تعجبوا قليلاً من الغرفة التي كان عليهم أن يرتبوا فيها أشياءهم الحسنة والغالية. وكان الصحفي كينز موجوداً، وضحكا كثيراً على ما سيحدث.

قرب الساعة التاسعة توافد أوائل الضيوف. في العاشرة إلا ربع كان الجميع موجودين. حين قامت بالاستقبال، ومن سحنة بيث تبين أنها اعتبرت هذا التصرف جرأة من طرف ميتشل. ثم وقف ميتشل وألقى كلمة قصيرة.

بيّن لهم أنه قرر استجابة لإلحاح السيدين نايف (وانحنى باتجاه الأخوين) ن يوصل هذه السفينة إلى روتردام. وهو يفعل هذا، لأن مثل هذه البادرة دلّ على الشجاعة، وقدكانت شجاعته محلّ شكّ في الآونة الأخيرة. ولكي كون جميع أولئك الذين أبدوا في الآونة الأخيرة اهتماماً بالأمر، في وضع كنّهم من الاقتناع بشجاعته، فإنه يسمح لنفسه بأن يدعوهم إلى هذه سفرة القصيرة.

وفي هذه اللحظة بدأ القارب بالارتجاف، كما ترتجف القوارب عادة ندما تبحر في الماء. وبدأت الماكنة تعمل، بحيث أمكن للمرء أن يسمعها نيداً.

كانت المفاجأة كبيرة حقاً.

في الغرفة، التي جُعلت غرفة طعام، حدث ذعر شديد. فقفز الرجال إلى الباب. لكن الباب كان موصداً. أما السيدات فزعقن. وهنا تابع ميتشل كلمته:

"سيداتي وسادتي. لو كنتم تعرفون الحالة التي تتواجد فيها أرضية (ألمايدا)، لما خبّطتم هكذا بأقدامكم. والباب الذي تتدافعون عليه هو تقريباً قطعة الخشب الوحيدة الجيدة التي تصمد. حالة القارب هذه هي سبب ارتفاع التأمين عليه، أليس كذلك، أيها السيدان نايف؟ ولأنه ليس مؤكداً أنه سيصل، لذلك وجب التأمين عليه. بالطبع، يتطلب ليس القليل من الشجاعة أن يبحر المرء بشيء كهذا في أعالي البحار. سوف تسرّون وتغفرون لي الكثير، كما أظن. حتى أنت، يا بيث، شككت في أن تكون لدي الشجاعة لأن أُبعد أشياء لم يعد المرء يريد رؤيتها. وهذا القارب، أمايدا، هو أحد هذه الأشياء. سوف أبعده في الحال، كوني واثقة! وأنت، ياوتش، سوف لن تراني أطلب مساعدة من سفينة أخرى، قبل أن تغرق هذه. لقد فعلت هذا مرة، ولن أفعله ثانية. على المرء أن يكافح الجبن، أليس كذلك؟".

سوف أختصر الموضوع. فقد حدثت أيضاً بعض المشاهد غير اللائقة حقاً. أكثر الموجودين افتقدوا الشجاعة بصورة مؤسفة. حتى أن إ.ب.وتش أعاد لربّانه السابق وظيفته السابقة، بوجود الشهود. تومي وايت هاج مثل المجنون. وهاري بيغرز شارف على الموت فعلاً.

باشمئزاز وفي الوقت نفسه برضى عن اختياره ترك ميتشل ضيوفه بعد فترة قصيرة يغادرون إلى اليابسة. عندما انفتح الباب، تبيّن أن ميتشل قام فقط

بربط القارب بحبال حديدية في النهر، بحيث كـان يتحـرك في مكانـه. وكـان يمكن رؤية سيارات الضيوف من على ظهر القارب.

"لست بأي حال جباناً إلى حدّ أنـي أرفـض عـرض إ.ب.وتـش"، قـال ميتشل بمرح. "في حال بقي عليه"، أضافت جين مستندة إلى جانبه.

"سوف يبقى عليه"، قال كينز ساخراً.

* * *

مكان العمل أو
بعرق جبينك عليك أن لا تأكل خبزك

في العقود التالية للحرب العالمية[1] تعاظمت البطالة العامة والقلق لدى الشرائح الطبقية الدنيا. ثمة حدث جرى في مدينة ماينتس يبين أفضل من كل اتفاقيات السلام وكتب التاريخ والإحصائيات، الحالة البربرية التي هوت فيها البلدان الأوروبية الكبيرة، حيث عجزت عن تسيير اقتصادها إلا بطريق التسلط والاستغلال. ففي أحد الايام تلقت عائلة هاوسمان في برسلاو، المؤلفة من رجل وامرأة وطفلين والتي تعيش في ظروف معسرة، رسالة من زميل عمل سابق لهاوسمان، يعرض فيها عليه مكان عمله، وهو وظيفة تتطلب الثقة، يريد التخلي عنها بسبب ميراث صغير في بروكلين. كانت العائلة قد وصلت بعد ثلاث سنوات من البطالة إلى حافة اليأس، فجاءت الرسالة لتضعها في حمّى من الانفعال. وهكذا نهض الرجل في الحال من فراش المرض

[1]) يقصد الكاتب: الحرب العالمية الأولى.

ـ كان مصاباً بالتهاب ذات الرئة ـ ، طلب من زوجته أن تضبّ الضروري في حقيبة قديمة وعدد من العلب، أمسك بيدي الطفلين، وبيّن لها كيف تتصرّف بأغراض البيت التافهة، وتوجه رغم حالته المرضية إلى المحطة. (لقد أمل من اصطحاب الطفلين أن يؤثر على زميله ويجعل من عرض العمل في كل الأحوال أمراً مقضياً). وفيما كان يقبع فاقداً الشعور من ارتفاع درجة حرارته في مقصورة القطار، أسعده أن مسافرة شابة، وهي لفّاية[1] مسرّحة من عملها في طريقها إلى برلين، ظنته أرملاً، اهتمت بطفليه، حتى أنها اشترت لهما أشياء صغيرة ودفعت ثمنها من جيبها. في برلين تردّت حالته لدرجة أنه غاب عن الوعي تقريباً، فتوجب نقله إلى المشفى. هناك توفي بعد خمس ساعات. لكن اللفاية، واسمها لايدنر، التي لم تتوقع هذا الظرف الطارئ، لم تتخلى عن الطفلين، بل أخذتهما معها إلى منزل رخيص. كانت قد انفقت الكثير عليهما وعلى المتوفي، كما أنها أشفقت على الدودتين[2] العاجزتين. فسافرت في مساء اليوم نفسه مع الطفلين عائدة إلى برسلاو. هكذا دون تفكير ، ذلك لأنه كان الأفضل بلا شك لو أخبرت السيدة هاوسمان واستدعتها إليها. تلقت هاوسمان الخبر بالبلادة المرعبة، التي تتملّك أحياناً من ينحرم من أي مجرى اعتيادي لظروفه. طوال اليوم التالي انشغلت المرأتان بشراء لوازم الحداد بالتقسيط. وفي الوقت نفسه تابعتا التصرّف بأغراض البيت، الذي فقد الآن أي معنى. وفيما هما واقفتان في الغرف الفارغة مع العلب والحقائب المضبوبة، خطرت على بال السيدة قبيل السفر بقليل فكرة هائلة. فمكان العمل الذي فقدته مع زوجها لم يغب دقيقة

---

[1] مستخدمة في البيوت (خادمة غير مقيمة).

[2] يقصد الكاتب: الطفلين.

واحدة عن رأسها المسكين. أصبحت القضية الآن: أن تنقذه مهما كلّف الأمر: مثل هذه الفرصة المصيرية لا تأتي مرة ثانية. والمخطط الذي خطر لها في اللحظة الأخيرة لإنقاذ مكان العمل هذا لم يكن أكثر مغامرة من يأس حالتها: لقد أرادت بدلاً من زوجها وبصفة رجل أن تستلم العمل المعروض، كحارس في المعمل. وقبل أن تكون قد حسمت أمرها تماماً، نزعت عنها الأسمال السوداء، جلبت أمام أعين الطفلين من الحقيبة المربّطة بخيطان القنب بدلة الأحد لزوجها وارتدته بلا اتقان، حيث ساعدتها صديقتها الجديدة التي في لحظتها فهمت كل شيء. وهكذا سافرت في القطار إلى ماينتس، في حملة مجدّدة باتجاه مكان العمل الموعود، عائلة جديدة لا يزيد عدد رؤوسها عن الموجودة سابقاً. فقد تقدّم لسدّ النقص الذي أحدثته نار العدو في الكتيبة جنود مستجدّون.

لم يسمح الموعد، الذي ستصل فيه سفينة المالك الحالي لمكان العمل إلى هامبورغ، للمرأتين بأن تنزلا في برلين وتحضرا جنازة هاوسمان. وبينما كان هو يُنقل بلا مشيّعين من المشفى، كي يوارى جسده التراب، كانت زوجته، وهي ترتدي ثيابه وتحمل أوراقه ، في طريقها إلى المعمل، وإلى جانبها رفيقته السابقة التي عقدت معها اتفاقاً سريعاً. وأمضت يوماً آخر في بيت زميل زوجها وهي تتمرّن بلا كلل أمامه وأمام صديقها ـ وكل هذا باستمرار أمام أعين الطفلين ـ على مشية وجلوس وطريقة أكل وكذلك طريقة تكلم الرجال. ولم يكن هناك سوى زمن يسير بين اللحظة التي رقد فيها هاوسمان في حفرته وبين اللحظة التي احتل فيها مكان العمل الذي كان يأمله.

عاشت كلا المرأتين، وقد أعيدتا من خلال تشابك بين القدر والحظ إلى الحياة، أي إلى الإنتاج، باعتبارهما السيد والسيدة هاوسمان حياتهما الجديدة

مع الطفلين في أفضل شكل من الرزانة والتدبير. و لم تكن مهنة حارس لمعمل كبير ذات متطلبات قليلة. فالجولات الليلية عبر صالات المعمل وأماكن الآلات والمستودعات كانت تتطلب أمانة وشجاعة، وهي خصال لطالما أُعتبرت رجالية. وإن تحقيق هاوسمان لهذه المتطلبات ـ حتى أنها عندما ضبطت مرة لصاً وسيطرت عليه (شيطان صغير أراد أن يسرق خشباً) حصلت على ثناء رسمي من إدارة المعمل ـ يبرهن على أن الشجاعة والقوة البدنية والتبصّر بأجمعها يمكن أن يقدمها كل شخص، من رجلٍ أو امرأة، يعتمد في حياته على اكتسابها. ففي أيام قليلة أصبحت المرأة رجلاً، كما أن الرجل أصبح في مجرى آلاف السنين رجلاً: من خلال عملية الانتاج.

أربع سنوات، كانت أثناءها تزداد من حولهم البطالة العامة، مضت في أمان بالنسبة للعائلة الصغيرة التي كان طفلاها يكبران. وفي هذه الأثناء لم تثر الحياة البيتية للهاوسمان أية ريبة لدى الجيران. ثم حصلت حادثة. فقد كان بواب البناية غالباً ما يجلس مساء عند العائلة هاوسمان. كان ثلاثتهم يلعبون بالشّدة[1]. وكان "الحارس" يجلس إذ ذاك بطاق القميص وأمامه جرّة البيرة (وهي صورة سوف تعرضها لاحقاً المجلات المصورة بكل أبهة). بعدئذ ذهب الحارس إلى الخدمة، وبقي البواب جالساً مع المرأة الفتية. والأسرار لا يمكن أن تبقى مكتومة. فربما فضحت اللايدنر السرّ في هذه المناسبة، أو ربما رأى البواب الحارس لدى تبديل الثياب من خلال فتحة الباب. على كل عانت عائلة هاوسمان بدءاً من لحظة معينة من بعض الصعوبات مع البواب، حيث توجّب عليها أن تقدم للسكير، الذي لم يكن مدخوله كافياً، إعانات مالية. وأصبح الوضع أكثر صعوبة، عندما انتبه الجيران إلى كثرة زيارات هازه

---

[1] الشّدة: أوراق اللعب.

ـ هكذا كان اسم الرجل ـ لمسكن هاوسمان، وكذلك بتناقلهم أن "السيدة هاوسمان" كثيراً ما تجلب إلى غرفة البواب بقايا طعام وقناني بيرة. حتى أن الإشاعة عن لا مبالاة الحارس تجاه أمور تمسّ الشرف في بيته وصلت إلى المعمل وضعضعت لفترة الثقة فيه هناك. فاضطر الثلاثة إلى التظاهر نحو الخارج بانتهاء صداقتهم. غير أن استغلال المرأتين من قبل البواب لم تستمر فحسب، بل حتى أنها أخذت حجماً متعاظماً. ثم حصل حادث مؤسف في المعمل وضع حدّاً للأمر كله وكشف الستر عن الواقعة الرهيبة.

لدى انفجار مرجل في الليل جرح الحارس، جرحاً خفيفاً، إنما نُقل من المكان وهو مغمى عليه. وعندما أفاقت هاوسمان، رأت نفسها في المشفى النسائي. كان ذهولها لايوصف. مجروحة في ساقها وظهرها ومضمّدة، مخضوضة من سوء حالتها، إنما برعب أكثر إماتة من مجرد رعب الجرح الناقز في العظام، حملت نفسها عبر صالة النساء المريضات اللواتي مازلن نائمات إلى غرفة المديرة. وقبل أن تنطق هذه بكلمة ـ كانت ماتزال ترتدي ثيابها، والحارس المزيّف كان عليه قبلئذ بصورة غريبة أن يتغلب على الخجل المكتسب من أن يدخل على امرأة في غرفتها، الأمر الذي ليس مسموحاً بالطبع إلا لبنات جنسها ــ ، أمطرتها هاوسمان بتضرعات، دون أن تعطي فرصة للمديرة لأن تخبرها عن الواقعة القدرية. ليس بدون تعاطف اعترفت المديرة للمرأة البائسة، التي أغمي عليها مرتين، والمصرّة مع ذلك على متابعة الجدال، بأن الأوراق قد ذهبت إلى المعمل. وكتمت عنها، كيف انتشرت القصة التي لا تصدّق مثل النيران عبر المدينة.

غادرت هاوسمان المشفى بثياب رجالية. وصلت قبل الظهر إلى البيت، ومنذ الظهر تجمّع على مدخل البناية وعلى الرصيف المقابل كامل الحيّ لرؤية

الرجل المزيّف. في المساء أحضرت الشرطة المرأة المنكوبة إلى المخفر، كي تضع حدّاً للاستياء العام. فصعدت إلى السيارة وهي ماتزال في ثياب الرجال. فلم يكن عندها ثياب أخرى.

في مخفر الشرطة تابعت نضالها في سبيل مكان عملها، وبالطبع دون ثمرة. فقد أعطي لواحد من الذين لايعدون والذين ينتظرون ثغرة، ويحملون بين فخذيهم ذلك العضو المسجل على وثيقة ميلادهم. وهاوسمان التي لا يمكن أن تتهم نفسها بأنها تركت شيئاً لم تحاوله، عملت لبعض الوقت كساقية في محل بإحدى الضواحي بين صور تعرفها كحارس بطاق القميص تلعب بالشدّة وتشرب البيرة، وجزئياً تعرضها بعد افتضاح أمرها كمسخ للاعبي المخاريط[1]. بعدئذ اختفت نهائياً من جديد في الجيش المليوني لأولئك المضطرين من أجل كسب رزقهم الزهيد لأن يعرضوا أنفسهم للبيع كلياً أو جزئياً أو تبادلياً؛ ولأن يتخلوا خلال أيام قليلة عن عادات عمرها مئات السنين وتبدو كأنها أبدية؛ وحتى، كما رأينا، لكي يغيّروا جنسهم، إنما غالباً دون نجاح؛ باختصار لأولئك الضائعين، الضائعين نهائياً، إذا أراد المرء أن يأخذ بالرأي السائد.

*   *   *

---

[1]) لعبة المخاريط (أو الأوتاد)

بـانـي المدن

بعدما بنـوا المدينـة، التقـوا جيمعـاً ودلّـوا بعضهـم البعـض على منـازلهم أشاروا إلى ما صنعته أيديهم. ـ وذهب معهم الرجل الـودود، مـن منـزل الى منزل، طول الليل، وأثنى عليهم جميعاً.

أما هو بالذات فلم يتكلم عما صنعته يداه و لم يُشر لأحــد إلى مـنزل. ـ وحلّ المساء، فالتقوا جيمعهم ثانية في ساحة السوق، وعلـى منـبر مـن ألـواح الخشب وقف كل واحد منهم وقدم تقريراً عن نوع وحجم منزله وعن زمن البناء، كي يتمكنوا من معرفة من منهم بنى أكـبر المنـازل، أو أجملهـا وفي أي زمن. ـ وبحسب الترتيب الأبجدي لاسمـه استـدعي أيضـاً الرجـل الـودود. ـ فظهر في الأسفل أمام المنبر،، وهو يحمل إطار باب. ـ

قدّم تقريره. ـ هذا الذي هنا، إطار البـاب، كـان مـا بنـاه مـن منزلـه. ـ وساد صمت. ـ عندئذ انتصب مدير الاجتماع واقفاً. ـ "أنا متعجــب"، قـال هذا، وكادت أن تنفجـر ضحكـات السـخرية. لكـن مديـر الاجتمـاع تـابع قائلاً: "أنا متعجب، أن لا يأتي الحديث عن هذا إلا الآن. فهذا الرجـل كـان أثناء كامل وقت البنـاء في كـل مكـان، علـى كـامل العقـار وسـاعد في كـل

مكان. من أجلٍ هذا المنزل هنا بنى الجملون، وهناك ركّب الشبّاك، و لم أعد أعلم، ماذا أيضا، لهذا المنزل قبالتنا رسم المخطط. فلا عجب بعد هذا أن يظهر هنا مع إطار باب، هو بالمناسبة جميل، دون أن يمتلك منزلاً".

"بالنظر إلى الوقت الطويل الذي أمضاه في بناء منازلنا، يكون صنع إطار الباب الجميل هذا تحفة معمارية حقيقية، وهكذا أقترح، أن نقدّم له جائزة أفضل بناء".

* * *

حام الثخين

يقال عن الحمير، إنهم لم يعيشوا الطوفان، فقد خلقهم اللّه تعالى متـأخراً جداً بعد جميع الحيوانات، لأنه وجد أنه مازالت هناك ثغرة في خلقـه. وكـان علىالحمير أن يسدّوا هذه الثغرة. على كل حـال تعكس هـذه النظـرة، بأنـه توجد قصة عن الطوفان، مازالت حتى اليوم متناقلة بين الحمير، وهي التالية:

من بين أولاد نوح كان حام الثخين مهماً بصورة اسـتثنائية. وقـد سمـي حام الثخين، مع أنه كان ثخيناً في موقع واحد من جسـمه. وهـذا مـاحدث: كما هو معلوم من إخباريات أخرى، كانت السـفينة مصنوعـة بكاملهـا مـن خشب الأرز الخالص. وكان علـى مدود الخشـب أن تكـون ثخينـة بثخانـة إنسان.

لعـدة أسـابيع أثنـاء البنـاء وقـف يـافث، كمـا هـو معلـوم، إلى جـانب الأشجار قبل قطعها. فالأشجار التي كانت أرفع من يافث لم تستخدم لبنـاء السفينة. لكن من ثم في الأيام الأخيرة، عندما أمطرت السماء بصورة رهيبـة، لم يعد يافث يريد أن يقف هكذا في غابـة الأرز، فرجـا أخـاه حـام أن يقـف بدلاً منه إلى جانب الأرزات.

غير أن حام كان أنحف أولاد نوح.

ثم جاء الطوفان، وعامت السفينة. وفي الحال لاحظ نوح، أن السفينة تعوم بشكل ممتاز، لكنها كانت رقيقة في موضع واحد. كانت السفينة طويلة وعريضة بشكل رهيب، وذات عمق هائل، والموضع الذي كان رقيقاً، كان بحجم قرص الشمس عند الظهيرة. لكن من خلال هذا الموضع كان يتسرب الماء.

إذ ذاك قال نوح لأولاده: "من فعل هذا؟".

فقال أولاد نوح: "إنه حام".

عندئذ قال نوح لحام: "قف، يا حام، وتعال إلى هذا الموضع الرقيق، انزل واجلس عليه".

وجلس حام، فانسدّ الثقب.

وقد سجّل العهد القديم بدقة، كم من الزمن جلس حام على هذا الموضع، لقد جلس طيلة زمن الطوفان. وعندما زال الطوفان ووقف حام، أصبح الموضع من حام، حيث غطى المكان الرقيق من السفينة، ثخيناً جداً. أما حام نفسه فقد بقي نحيفاً كما كان. وبهذه الخاصية في جسمه أصبح حام إلى حدّ بعيد غير صالحٍ لكثير من الأشياء، إنما متى جاء طوفان وبنيت سفينة وكان موضع منها رقيقاً، فإنه لا يمكن عندئذ الاستغناء عن حام.

هذه هي القصة التي بقيت بشكل خاص في ذاكرة الحمير من الطوفان.

* * *

امتحان ذهني[1]

أوصى فلاح في جزيرة فونن[2] أن توزع ماشيته بين أبنائه الثلاثة، بحث ينال الأكبر النصف، والأوسط الثلث، والأصغر التسع. وقد سلّم وصيته لأحد أصدقائه القدامى، الذي كان يعمل مزرعة صغيرة في الجوار، على أن يسلمها لأولاده يوم الدفن.

عندما لفظ الفلاح أنفاسه الأخيرة، هرع الأبناء من حجرة الميت يبحثون عن الوصية. بالطبع لم يجدوها. فحدث أنه بعد يومين من الوفاة، عندما قدم المشيّعون، كان البيت من أسفله إلى أعلاه قد أصبح في فوضى تامة، ولم يجر تحضير أي شيء لاستقبال وخدمة الضيوف. في صباح يوم الدفن جاء الفلاح العجوز، الذي كان يحمل الوصية في جيبه، ودخل الحوش بعربة يجرها ثور. وعندما كشف عن الوصية، قام الأبناء، الذين تلقوا تعزيته متجّهمين متكدّرين، بضربه ضرباً مبرّحاً. أما المسألة الحسابية التي تضمنتها

---

[1] أصل القصة عربي، كما يتبين من إحدى قصص السير كوينر (خدمات الصداقة).

[2] في الدنمارك.

الوصية فقد جعلتهم أكثر غضباً. فعندما سجّلت الحصص بالطبشور على حائط الاسطبل، تبين أن الماشية، منذ ذلك الوقت الذي كتب فيه العجوز وصيته، قد زادت أو نقصت، أي باختصار كانت القسمة صعبة للغاية. فقد كان عدد الأبقار ١٧ رأساً.

كان الضيوف يتوافدون، في حين مازال الأبناء، وهم في سراويل وأكمام سوداء، يسوقون الأبقار، مرة في هذه المجموعات ومرة في تلك. أما الضيوف فكان أغلبهم يشهد هذه التمثيلية غير الموقرة وهو صامت، إنما مع استياء متصاعد، والبعض فقط كان يشارك بمقترحات لا قيمة لها لحل المسألة.

أخيراً، بعد أن اكتسوا تماماً بثياب الحداد ـ وهم لدى وضع ربطة العنق يطلّون بين الفينة والأخرى من النافذة إلى الحوش، حيث كان التوزيع مستمراً ـ جلس الأبناء مع الضيوف في حجرة الميت التي رتبت بحسب الضرورة. وحتى في هذا الوقت جرى التشويش على المعزّين الجالسين على المقاعد وظهورهم متصلبة على الحائط، أثناء حديثهم المتلعثم عن فضائل ومقاشبة المتوفي في حياته، وذلك من خلال ضجيج أجراس الأبقار القادم من الحوش. ذلك لأن أحد الأبناء ـ تسلل خارجاً ـ أخذ يوزع الأبقار في مجموعات جديدة.

في غمرة هذا الإحراج، الذي أخذ يزداد مضايقة، نهض الصديق القديم، تقدم إلى وسط الحجرة وقدم للأبناء ثوره الخاص و ـ على فكرة ـ الوحيد. ثم أضاف، إنه يتمنى أن يعيدوا له ثوره، إن زاد عن حاجتهم. وعلى هذه الإضافة هزّ الضيوف رؤوسهم مشفقين.

توجّه الجميع خارجاً إلى الحوش، وجرت القسمة بمساعدة ثور الفلاح العجوز بعد فكّه من العربة، ودون أي إشكال. فنال الابن الأكبر تسعاً، والأوسط ستاً، والأصغر اثنتين من الأبقار، كل واحد منهم أكثر مما كان سيطالب به بموجب حسبة الوصية. فالنصف من ١٧ لن يكون بأي حال أكثر من ٨ونصف، والثلث ليس أكثر من ٥ وثلثي بقرة إلخ. فكانوا مسرورين حقاً، وبنفس القدر كان عجبهم، عندما زاد لديهم ثور الفلاح العجوز. فـ٩ثيران و٦ثيران وثوران مجموعهم ١٧ ثوراً لا أكثر.

وفي جو من الارتياح العام سار موكب الجنازة، في مقدمته الثور الثامن عشر، والأبناء الثلاثة في الوسط، متهلّلي الوجه، يتكلمون بابتهاج عن الحلّ السعيد.

لقد كان الثور الثامن عشر ضرورياً كوسيط حسابي.

* * *

المحتويات

صدر للمترجم

- المادية الجدلية والتحليل النفسي، تأليف فيلهلم رايش، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠
- الأزمات الاقتصادية، تأليف أوتو راينهولد، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٢.
- أصل الفروق بين الجنسين، تأليف اوزولا شوي، ط٢، دار الحوار باللاذقية ١٩٩٥.
- الطوطم والتابو، تأليف زيغموند فرويد، دار الحوار باللاذقية ١٩٨٣.
- نمط الانتاج الآسيوي في فكر ماركس وانغلز، تأليف كارل ماركس وهلموت رايش، دار الحوار باللاذقية ١٩٨٨.
- مستقبل الحياة في الغرب، تأليف غيركن وكوينتسر، دار الكنوز الادبية، بيروت، ٢٠٠٠.
- الموساد - ذراع داود الطويلة، تأليف أوبر سكالسكي، قيد النشر.

قصص من الرزنامة